سلسلة
القصص القرآني

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي   د. عبد الحميد مصطفى   د. محمد شعلان

المجلد الثامن

سلسلة

القصص القرآنى



دكتور

حمزة النشرتى

عبد الحفيظ فرغلى   د. عبد الحميد مصطفى

المجلد الثامن

الروح والنفس

- ويسألونك عن الروح .
- كلمة "الروح" في القرآن .
- الإنسان وعلاقة الروح به .
- أين تذهب الروح بعد مفارقة الجسد ؟
- هل حياة الشهداء بالروح والجسد معا ؟
- هل عرف النبي - صلى الله عليه وسلم - حقيقة الروح ؟
- هل وجدت الروح قبل البدن ؟
- هل هناك فرق بين الروح والنفس ؟
- مكان الروح بعد الموت .
- تحضير الأرواح .
- قوام الدعوة المحمدية .

ويسألونك عن الروح

الـــروح فى اللغـــة

الروح - بفتح الراء وسكون الواو ، : برد نسيم الريح .. ومنه قوله - تعالى -:

﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [1]

وقد يطلق على الرحمة والراحة كما فى قوله - تعالى -:

﴿ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (٢)

أما الروح - بضم الراء وسكون الواو - فيطلق على معان .

يطلق على النفس ، ويذكر ويؤنث ، ويجمع على أرواح .

وان كان ابن الأنبارى يقول : الروح والنفس واحد . إلا أن الروح يذكر ، والنفس تؤنث .

والروح فى قوله - تعالى - :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴿٨٥﴾ ﴾ [3]

ما به حياة النفس .. قال الفراء : والروح هو الذى يعيش به الانسان لم

---

(١) الواقعة ٨٩

(٢) يوسف ٨٧

(٣) الاسراء ٨٥

يخبر الله به أحداً من خلقه ، ولم يعط علمه العباد . قال ـ عز وجل ـ :

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴿٢٩﴾ ﴾ (٤)

فهذا الذى نفخه فى آدم وفينا لم يعط علمه أحداً من عباده .

ويقال : هو النفس الذى يتنفسه الانسان وهو جار فى جميع الجسد ، فإذا خرج لم يتنفس بعد خروجه .

ويقال : هو خلق من خلق الله ، وعلى ذلك يؤول قوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ (٥)

أضاف الروح المرسل ـ لمريم ـ إلى نفسه كما تقول : أرضه وسماؤه ـ ومثله قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ (٦)

ويطلق الروح على الوحى أو أمر النبوة أو القرآن . . ومنه قوله ـ تعالى :

﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾ (٧)

---

(٤) الحجر ٢٩

(٥) مريم ١٧

(٦) النساء ١٧٠

(٧) غافر ١٥

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴿٢﴾ ﴾ (٨)

وقد سمى الوحي والقرآن روحاً لأنه حياة من موت الكفر فصار بحياته للناس كالروح الذى يحيا به جسد الانسان قال ابن الأثير : وقد تكرر ذكر الروح فى الحديث كما تكرر فى القرآن ووردت فيه على معان ، والغالب منها أن المراد بالروح الذى يقوم به الجسد وتكون به الحياة ، وقد أطلق على القرآن والوحى والرحمة وعلى جبريل فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (٩)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (١٠)

قال : وهو يذكر ويؤنث .

أما ما جاء فى الحديث « تحابوا بذكر الله وروحه » فقد أراد ما يحيا به

---

(٨) النحل ٢

(٩) الشعراء ١٩٣ : ١٩٤

(١٠) النحل ١٠٢

الخلق ويهتدون ، فيكون حياة لكم وقيل : أراد بالروح أمر النبوة ، وقيل : القرآن .

وأما قوله ـ تعالى ـ :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾ (١١)

فقد قال الزجاج : الروح خلق كالإنس وليس هو بالإنس .

وقال ابن عباس : هو ملك فى السماء السابعة وجهه على صورة الانسان وجسده على صورة الملائكة . وقال بعضهم : هو جبريل .

وروح الله حكمه وأمره . .

وينسب إلى كلمة روح فيقال : روحانى ـ ولا يقال : روحى . . وهو نسب على غير قياس(١٢)

كلمة الروح فى القرآن :

وقد وردت كلمة الروح فى القرآن الكريم ـ بفتح الراء وسكون الواو ـ فى ثلاثة مواضع . وقد ذكرناها . وهى خارجة عن نطاق البحث .

والدراسة تدور حول معنى « الروح » بضم الراء ، وهو الأمر المعضل الذى حدا باليهود أن يطلبوا من المشركين سؤال النبى ـ صلى الله عليه

---

(١١) النبأ ٣٨

(١٢) راجع لسان العرب لابن منظور ح ٣ مادة روح

وسلم ـ عنه . وقيل : إن اليهود أنفسهم هم الذين سألوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه .

قال الواحدى فى أسباب النزول :

أخبرنا محمد بن عبد الرحمن النحوى ، قال : أخبرنا بن بشر بن العباس ، قال : أخبرنا أبو لبيد محمد بن أحمد بن بشر ، قال : حدثنا سويد عن سعيد قال : حدثنا على بن مسهر عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : إنى مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حرث بالمدينة وهو متكىء على عسيب ، فمر بنا ناس من اليهود ، فقالوا : سلوه عن الروح ، فقال بعضهم لبعض : لا تسألوه فيستقبلكم بما تكرهون ، فأتاه نفر منهم فقالوا : يا أبا القاسم ، ما تقول فى الروح ؟

فأنزل الله عليه:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (١٣)

ـ رواه البخاري ومسلم ـ

قال : وقال عكرمة عن ابن عباس : قالت قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه الرجل ، فقالوا : سلوه عن الروح .. فنزلت هذه الآية .

فهذه الكلمة وردت احدى وعشرين مرة .. فى مواضع متعددة من

---

(١٣) أسباب النزول للواحدى ص ٢٢٠

القرآن . منها هذه الآية التى ذكرناها . ومنها قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١٤)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ (١٥)

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١٦)

وغير ذلك من الآيات .

وبما أن الروح سر مستغلق ، وهو أمر خفى أدى الخوض فيه إلى أختلافات كثيرة ، وربما ترتب على ذلك بعض الأخطاء التى ينبغى تصحيحها ، فنحن نرجو الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يوفقنا فى الحديث حول هذا الموضوع بما يجلى بعض الغموض ، ويبين للناس طريقهم فى ، مثل الأمور التى يجب تناولها بحذر وحرص وتفويض . فنقول : والله المستعان .

---

(١٤) البقرة ٨٧

(١٥) النحل ٢

(١٦) المجادلة ٢٢

ما قاله المفسرون حول آية الروح

جاء فى تفسير القرطبى :

روى البخارى ومسلم والترمذى عن عبد الله قال : بينما أنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ـ فى حرث وهو متكىء على عسيب ، إذ مر نفر من اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح فترددوا فى سؤاله ، ثم تقدم بعضهم فسألوه فأمسك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يرد عليهم شيئاً ، فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت مقامى ، فلما نزل الوحى قال :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾

وفى مسلم : « وما أوتوا . . »

قال القرطبى : وقد اختلف الناس فى الروح المسئول عنه . .

أىّ الروح هو؟

فقيل : هو جبريل

وقيل : هو عيسى

وقيل : هو القرآن .

وقال القرطبى : أسند البيهقى بسنده إلى ابن عباس فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ ﴾

الروح ملك .

وقال النحاس : الروح جند من جنود الله لهم أيد وأرجل يأكلون الطعام . .

وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوا عن الروح الذى يكون به حياة الجسد .. وهذا ما نرجحه ، وهو الأقرب إلى الصواب وقال أهل النظر منهم : إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكه فى بدن الانسان ، وكيف امتزاجه بالجسم واتصال الحياة به ، وهذا شيء لا يعلمه إلا الله - عز وجل -

ونقل عن أبى صالح : الروح خلق كخلق بن آدم وليسوا بنى آدم ، لهم أيد وأرجل ، والصحيح الابهام وأن شأن الروح وعلمه عند الله .. لقوله - تعالى - :

﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾

أى هو أمر عظيم ، وشأن كبير من أمر الله - تعالى - أبهم أمره وترك تفصيله ، ليعرف الانسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها ، وإذا عجز الإنسان عن معرفة نفسه ، كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق سبحانه وتعالى - أولى . وحكمة ذلك أن عجز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ، دليل على أنه عن إدراك حقيقة خالقه أعجز .

- عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : مر النبى ﷺ على قوم يتفكرون فى الله . فقال : تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق فإنكم لن تقدروه »

أما المخاطب بقوله - تعالى - :

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

فقد اختلف فيه .

فمنهم من يقول : إنهم السائلون فقط .

ومنهم من يقول : إنهم اليهود بجملتهم ، وعلى هذا قراءة ابن مسعود

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

ومنهم من يقول : المراد العالم كله ،- وهو الصحيح - وعليه قراءة الجمهور « وما أوتيتم . . » وقد قالت اليهود للنبى - صلى الله عليه وسلم - : كيف لم نؤت من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهى الحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ؟

فعارضهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعلم الله فغلبوا . .
وقال اليهود : من عنيت بقول :

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

نحن أم قومك ؟ فقال : كلاً عنيت
قال القرطبى : وفى هذا المعنى - أى عدم إحاطة أحد بعلم الله - نزل قوله - تعالى -

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١٧)

وقد قيل : ان السائلين عن الروح هم قريش ، قالت لهم اليهود : سلوه

---

(١٧) لقمان ٢٧

عن أصحاب الكهف ، وعن ذى القرنين ، وعن الروح ، فان أخبركم عن اثنين وأمسك عن واحدة فهو نبى .. فأخبرهم كما قالوا .. ولكنهم لم يؤمنوا ..

هذا ما قاله القرطبى حول هذه الآية مختصراً ..

ما قاله ابن كثير :

وذكر ابن كثير فى تفسيره نفس السبب الذى ذكره القرطبى حول نزول هذه الآية ..

وأضاف : أن هذا السياق يقضى أن هذه الآية مدنية ، وإن كانت السورة التى جاءت فيها الآية مكية . ويجاب عن ذلك بأنه قد تكون الآية نزلت مرتين ، مرة فى مكة ومرة فى المدينة .

ودليل نزولها فى مكة سؤال القرشيين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الروح ، وإجابته بالآية التى نزلت .. ويحاول ابن كثير أن يجمع بين قول من يقول نزلت بمكة وقول من يقول نزلت بالمدينة فيقول :ـ

قال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار قال : نزلت بمكة « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » فلما هاجر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة أتاه أحبار اليهود وقالوا : يا محمد بلغنا عنك أنك تقول « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » أفعنيتنا أم عنيت قومك ؟

فقال : كُلًّا قد عنيت .

قال : إنك تقر بأننا قد أوتينا التوراة ، وفيها تبيان كل شيء ؟

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : هى فى علم الله قليل ، وقد أتاكم ما إن علمتم به وعملتم به استقمتم . وأنزل الله آية لقمان

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾

وذكر ابن كثير كذلك اختلاف العلماء حول المراد بالروح . فقال : المراد أرواح بنى آدم عند بعض العلماء .

وقال العوفى نقلا عن ابن عباس : قال اليهود للنبى - ﷺ - : أخبرنا عن الروح ، وكيف تعذب الروح التى فى الجسد ؟ وإنما الروح من الله ، ولم يكن قد نزل عليه فيه شىء فسكت - ﷺ - فأتاه جبريل فقال له : قل الروح من أمر ربى . .

فأخبرهم النبى - ﷺ - بذلك .

فقالوا : من جاءك بهذا ؟

فقال : جاءنى به جبريل من عند الله .

فقالوا له : والله ماقاله لك إلا عدو لنا .

فأنزل الله

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾(١٨)

وذكر أقوال العلماء فى المقصود بالروح . .

---

(١٨) البقرة ٩٧

وبعض هذه الأقوال غير مستساغ لدى العلماء . .

ومعنى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ أى من شأنه ، ومما استأثر بعلمه دونكم ، وما أطلعكم من علمه إلا على القليل فانه لايحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء الله .

وذكر ابن كثير كلام السهيلى فى هذا الموضوع .
فقال : قال السهيلى : قال بعض الناس لم يجبهم النبى ـ ﷺ ـ عما سألوه ، لأنهم سألوه على وجه التعنت قاصدين تعجيزه . .

وقيل : أجابهم . وعول على أن المراد بقوله : من أمر ربى أى من شرعه ، أى فادخلوا فيه ، وقد علمتم ذلك لأنه لاسبيل إلى معرفة هذا من طبع ولافلسفة ، وانما يسأل من جهة الشرع . .

قال : وذكر السهيلى الخلاف بين العلماء فى أن الروح هى النفس أو غيرها ، وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء سارية فى الجسد كسريان الماء فى عروق الشجر ، وقرر أن الروح التى ينفخها الملك فى الجنين هى النفس بشرط اتصالها بالبدن ، واكتسابها بسببه صفات مدح أوذم . فهى إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء

قال : كما أن الماء هو حياة الشجر ، ثم يكسب بسبب اختلاطه بالشجر اسما خاصا ، فاذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار إما مصطارا [١٩] أو خمرا ، ولايقال له ماء حينئذ إلا على سبيل المجاز . وهكذا لايقال للنفس (روح)

---

(١٩) المصطار : الخمر الحديثة المتغيرة الطعم والريح

إلا على هذا النحو ، وكذلك لايقال للروح نفس إلا باعتبار ماتؤول إليه .

فحاصل مايقول : ان الروح أصل النفس ومادتها ، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن ، فهى هى من وجه لامن كل وجه .

تفسير الزمخشري:

ولم يضف صاحب الكشاف فى تفسيره جديدا إلى ماجاء فى القرطبي وابن كثير . إلا أنه ذكر قول ابن أبى بريدة : لقد مضى النبى - ﷺ - وما يعلم الروح .

أى ان ذلك مما استأثر الله بعلمه لقوله تعالى

﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾

ومعنى أمر ربى أى من وحيه وكلامه ، وليس من كلام البشر .

وحديث ابن أبى بريدة ذكر أن الواحدى قد ذكره فى الوسيط عن عبد الله بن بريدة فى حديث لم يسبق إسناده . .

أما الذى أفاض فى الحديث عن الروح فهو الإمام فخر الدين الرازى فى كتابه « مفاتيح الغيب » ونحن نوجز منه مايستدعيه المقام »[٢٠]

مع الفخر الرازى

أولا : عن أى شيء سألوا ؟

لقد سألوا عن حقيقة الروح وماهيته

(٢٠) قدم الأستاذ محمد عبدالعزيز الهلاوى دراسة محققة فى هذا الموضوع بعنوان : « يسألونك عن الروح » للامام فخر الدين الرازى- من تفسيره « مفاتيح الغيب »

أهو عبارة عن أشياء موجودة فى داخل هذا البدن متولدة من امتزاج الطبائع والأخلاط ؟

أو هو عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب ؟

أو هو عبارة عن عرض قائم بهذه الأجسام ؟

أو عبارة عن موجود يغاير هذه الأجسام والأعراض ؟

وقد خلص من هذه الاسئلة إلى إجابة محددة

انه موجود مغاير لهذه الأجسام ولهذه الأعراض ، لأن الأجسام تحدث من امتزاج الأخلاط والعناصر ، وأما الروح فإنه ليس كذلك ، بل هو جوهر بسيط مجرد لايحدث إلا بمحدث هو قوله تعالى :

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾

إنه يحدث بأمر الله ، وتكوينه وهو سر الحياة فى هذا الجسد . ولايلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة نفيه فإن أكثر حقائق الأشياء وماهياتها مجهولة . .

أما كلمة أمر فمعناها الفعل كقوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧ ﴾ (٢١)

أى ومافعل فرعون برشيد ، وقال ـ تعالى ـ :

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا ﴾ (٢٢) أى جاء فعلنا .

---

(٢١) هود ٩٧

(٢٢) هود ٦٦

فكذلك قوله

« من أمر ربي »

أى من فعل ربي ..

هل يجوز أن يكون المقصود بالروح فى الآية القرآن ؟

ذكرنا أن الله ـ سبحانى تعالى ـ سمى القرآن روحا فى مواضع عدة منها قوله :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٢٣)

ومنها قوله ـ تعالى ـ :

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ (٢٤)

وقد سبقت الاشارة الى أن تسمية القرآن روحا لأن به تحيا القلوب والعقول .

أما أن يكون المقصود من الروح فى قوله تعالى :

---

(٢٣) الشورى ٥٢

(٢٤) النحل ٢

القرآن . . . فهذا مالا يساعد عليه السياق ، ولا يؤيده سبب نزول الآية . . . .

وقد رجح الرازى أن يكون المراد بالروح الذى سألوا عنه فى الآية هو سبب الحياة لأنه الشيء الذى تتوفر دواعى العقلاء على معرفته . . .

ولذلك كان صرف هذا السؤال اليه أولى . . وهذا مانراه ونرجحه . . والله أعلم . .

الانسان وعلاقة الروح به:

وهذا يتطلب أن نعرف أولا . ما الانسان ؟ هل هو ذلك الجسم الذى نراه فى هذه البنية ؟ أو هو جسم داخل فى هذه البنية ؟ وقد ناقش الرازى ذلك : والحقيقة التى يراها أن الإنسان ليس هو ذلك الجسم الذى نراه لأن هذا الجسم لاحياة له بدون العلم الذى يوجد فى القلب ، وقد استدل على ذلك بأدلة : منها : أن الانسان قد يكون حيا حال كون هذا الجسم ميتا ، فوجب كون الإنسان مغايرا لهذا الجسم ، والدليل على صحة ذلك قوله ـ تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ (٢٥)

---

(٢٥) آل عمران ١٦٩

فهؤلاء المقتولون أحياء . فدل ذلك على أن الإنسان ليس هو الجسم الذى مات

ومنها قوله ـ تعالى فى حق آل فرعون

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٢٦)

وقوله ﷺ : « أنبياء الله لايموتون ولكن ينتقلون من دار الى دار »
وقوله ﷺ
« القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار »

فهذه النصوص تدل على أن الإنسان يبقى بعد موت الجسد . . وبديهة العقل والفطرة شاهدان بأن هذا الجسد ميت ، واذا ثبت أن الانسان شيء وكان الجسد ميتا لزم أن الانسان شيء غير هذا الجسد .

ومن ذلك قول النبى ـ ﷺ ـ فى خطبة طويلة : « حتى إذا حمل الميت على نعشه رفرف روحه فوق النعش ، ويقول : ياأهلى وياولدى لاتلعبن بكم الدنيا كما لعبت بى ، جمعت المال من حله ومن غير حله فالغنى لغيرى والتبعة على ، فاحذروا مثل ما حل بى . . .

ففى هذا تصريح فى الوقت الذى كان فيه الجسد ميتا محمولا كان ذلك الإنسان حيا باقيا فاهما . . فلزم من ذلك أن الإنسان ليس هو ذلك الجسد المحمول على الأعناق .

---

(٢٦) غافر ٤٦

ومنها قوله - تعالى

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠ ﴾ (٢٧)

فالخطاب موجه للنفس حال الموت . فدل على أن الذى يرجع يكون حيا راضيا عن الله راضيا عنه الله . والذى يكون راضيا هو الإنسان . وهذا يدل على أن الانسان بقى حيا بعد موت الجسد ، فالإنسان - إذن - مغاير لهذا الجسد . . .

ومنها قوله - تعالى -

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢ ﴾ (٢٨)

فكيف يكونون مردودين الى الله حال كون الجسد ميتا ؟

إن ذلك يدل على أن المردود مغاير للجسد الميت .

ومن الحجج العقلية أن جميع الناس فى مختلف الأجناس والأقطار والأزمنة والملل والنحل يتصدقون عن موتاهم ويدعون لهم بالخير ويذهبون إلى زيارتهم ، ولولا أنهم بعد موت الجسد بقوا أحياء لكان التصدق عنهم عبثا والدعاء لهم عبثا وزيارتهم عبثا .

---

(٢٧) الفجر ٢٧ : ٣٠

(٢٨) الانعام ٦١ : ٦٢

فالإجماع على الصدقة والدعاء والزيارة يدل على أن الفطرة الأصلية شاهدة بأن الإنسان شيء غير هذا الجسد وأن ذلك الشيء لايموت بل الذى يموت هو الجسد .

وخلاصة القول : أن الانسان يلزم أن يكون عالما ـ على نحو ما من العلم ـ والعلم لايحصل إلا فى قلب فيلزم أن يكون الإنسان عبارة عن الشيء الموجود فى القلب . واذا ثبت هذا بطل القول بأن الانسان عبارة عن هذا الهيكل وهذه الجثة .

والذى يدل على أن العلم لايحصل إلا فى القلب قوله ـ تعالى ـ

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴿١٧٩﴾ ﴾ (٢٩)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٣٠)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (٣١)

وعلى ذلك فالإنسان غير محسوس لأنه هو الروح الذى يحل بذلك الجسم المحسوس .

بدليل أن هذا الروح إذا فارق الجسم لزم الموت لهذا الجسم .

---

(٢٩) الاعراف ١٧٩

(٣٠) المجادلة ٢٢

(٣١) الشعراء ١٩٣ : ١٩٤

ما الأرواح ؟

ذكر بعض العلماء أنها أجسام نورانية سماوية لطيفة لاتقبل التحلل ولا التبدل ولا التفرق ولا التمزق .

فاذا تكون البدن وتم استعداده وهو المراد بقوله ـ تعالى ـ « فاذا سويته » نفذت تلك الأجسام الشريفة السماوية فى داخل أعضاء البدن نفاذ النار فى الفحم ونفاذ دهن السمسم فى السمسم ، ونفاذ ماء الورد فى جسم الورد .

ونفاذ هذه الأجسام السماوية فى جوهر البدن هو المراد بقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴿٢٩﴾ ﴾

رأى آخر فى حقيقة الإنسان

يقول بعض المحققين : الإنسان هو الجوهر المخصوص والنفس . . . والنفس اذا تعلقت بالبدن اتحدت به ، فصارت النفس عين البدن والبدن عين النفس ، ومجموعهما هو الإنسان ، فاذا جاء وقت الموت بطل هذا الاتحاد ، وبقيت النفس ، وفسد البدن .

هل النفس جسم ؟

نفى المحققون أن تكون النفس جسما . واحتجوا بحجج كثيرة أثبتها الرازى فى تفسيره . .

* منها قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴿١٩﴾ ﴾(٣٢)

---

(٣٢) الحشر ١٩

ففى هذه الآية دليل على أن النفس الانسانية شىء غير الهيكل وغير الجسد . .

فمن المعلوم أن أحدا من العقلاء لا ينسى هذا الهيكل المشاهد ، فدل ذلك على أن النفس التى ينساها الانسان عند فرط الجهل شىء آخر غير البدن

* ومنها قوله ـ تعالى ـ

﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (٣٣)

فلا شك أن معناه أخرجوا أنفسكم من أجسادكم وهذا يدل على أن النفس مغايرة للجسد

* ومنها أنه ـ تعالى ـ ذكر مراتب الخلقة الجسمانية فقال :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴿١٤﴾ ﴾ (٣٤)

فليس من شك فى ان فى جميع هذه المراتب اختلافات واقعة فى الأحوال

---

(٣٣) الانعام ٩٣

(٣٤) المؤمنون ١٢ : ١٤

الجسمانية . لأن الله تعالى حين أراد أن يذكر نفخ الروح قال

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾

وهذا صريح بان ما يتعلق بالروح جنس متغاير لما سبق ذكره من التغيرات الواقعة فى الأحوال الجسمانية وهذا يدل على أن الروح شىء مغاير للبدن

* ومنها قوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى (٢٩) ﴾ (٣٥)

فان هذا يعنى أن الله ـ تعالى ـ ميز بين البشرية وَنَفْخ الروح . فالتسوية عبارة عن تخليق الأبعاض والأعضاء وتعديل المزاج والأشباح ، فلما ميز النفخ عن التسوية ، وأضاف الروح إلى نفسه ، دل ذلك على أن جوهر الروح معنى مغاير لجوهر الجسد .

* ومنها قوله تعالى ـ

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا (٨) ﴾ (٣٦)

فهذا صريح فى وجود شىء موصوف بالإدراك والتحريك حقا ، لأن الإلهام عبارة عن الإدراك ، وأما الفجور والتقوى فهما فعل .

---

(٣٥) الحجر ٢٩

(٣٦) الشمس ٧ : ٨

والآية تفيد أن الإنسان شيء موصوف بالإدراك والتحريك ، وموصوف أيضا بفعل التقوى تارة وفعل الفجور أخرى . ومعلوم أن جملة البدن غير موصوف بهذين الوصفين فدل على وجود جوهر آخر يكون موصوفا بكل هذه الأمور .

أين تذهب الروح بعد مفارقة الجسد ؟

قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ﴾ (٣٧)

ظاهر هذه الآية يقضى أن الشهداء أحياء . .

وهذه الحياة قد تكون حقيقية وقد تكون مجازية .

فان كانت الحياة حقيقية فاما أن تكون فى الآخرة ، وإما أن تكون فى الحال .

أما ان تكون الحياة فى الآخرة فهذا هو رأى المعتزلة وهو مردود عليه بوجوه : .

* منها أن قوله ـ تعالى ـ بل أحياء ـ يفيد حياتهم فى الحال .

* ومنها أن الله تعالى لو أراد أن يجعلهم أحياء فى الآخرة ، لما قال لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ولا تحسبن » لأن حياة الآخرة معلومة غير منكرة .

---

(٣٧) آل عمران ١٦٩ : ١٧٠

وقد أراد الله أن يبشره بحياتهم بعد استشهادهم مباشرة وظاهر استشهادهم يوحى بموتهم ، فأراد الله ان يثبت حياتهم لاموتهم . .

* هناك آثار كثيرة وردت مفسرة لهذه الآية تؤكد حياة الشهداء فى عالم البرزخ حياة سعيدة منعمة ويدل عليها قول صاحب يس

﴿ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ﴾ (٣٨)

ومن الآثار الواردة فى ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى صفة الشهداء « إن أرواحهم فى أجواف طير خضر وأنها ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها تسرح حيث شاءت وتأوى إلى قناديل من ذهب تحت العرش فلما رأوا طيب مساكنهم ومطعمهم ومشربهم قالوا ياليت قومنا يعلمون ما نحن فيه من النعيم وما صنع الله بنا كى يرغبوا فى الجهاد فقال الله ـ تعالى ـ :

« أنا مخبر عنكم ومبلغ اخوانكم ففرحوا بذلك واستبشروا . فأنزل الله هذه الآية »(٣٩)

وقد اختلف العلماء فى كيفية حياتهم فى الحال .

هل ستكون هذه الحياة للروح فقط ؟

أم أنها ستكون للروح والجسد معا ؟

وللإجابة عن ذلك يجب أن نتذكر ما سبق عرضه وهو أن الانسان ليس مجموع هذه البنية التى نراها بدليلين :

---

(٣٨) يس ٢٦ : ٢٧

(٣٩) أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير عن عبدالله بن مسعود ، ومسلم فى كتاب الامارة . .

أحدهما أن أجزاء هذه البنية قد تتبدل من آن لآخر . فالجسم قد يكون سمينا ثم يصبح هزيلا ، وقد يكون صغيرا ثم يصبح كبيرا ، ولن يظل الجسم على حال واحد طول حياة الانسان .

والثانى أن الإنسان قد يكون عالما بنفسه حال ما يكون غافلا عن جميع أعضائه وأجزائه ، والمعلوم وهو النفس مغاير لما ليس بمعلوم وهو الجسم .

أما الجسد الذى كان فى الدنيا فلا عبرة به ، وليست هناك استحالة فى اعادته كما كان ، وقدرة الله أكبر من أن يحيط بها عقل أو يصل إليها إدراك .

وبذلك تبعد الشبهات التى يثيرها البعض حول نعيم القبر وعذابه . .
وان التمست دليلا عقليا لن يعجزك ذلك : ـ

* فمن المعروف أنه فى حالة النوم يضعف البدن وضعفه لا يقتضى ضعف الروح بل ربما قويت وقت النوم فانطلقت عبر الكون واطلعت على كثير من الأشياء ، فإذا كان ضعف البدن لا يوجب ضعف النفس فذلك يؤكد أن موت البدن لا يستعقب موت النفس .

قد تؤدى كثرة الأفكار إلى جفاف الدماغ ، وهذا يؤدى إلى الموت ، مع أن كثرة الأفكار قد تؤدى إلى استكمال النفس بالمعارف الإلهية وهو غاية كمال النفس . فما كان سببا فى كمال النفس كان سببا فى ضعف البدن وهذا يدل على أن النفس لا تموت بموت البدن . .

---

(٤٠) استعنا فى عرض بعض ماقاله « الرازى » بكتاب « ويسألونك عن الروح » الذى أصدرته مكتبة القرآن للأستاذ المحقق محمد عبدالعزيز الهلاوى

* المتأمل فى أحوال النفس يدرك أنها على الضد من أحوال البدن . فالجوع مثلا يؤدى إلى ضعف البدن مع أنه فى المقابل يؤدى إلى صفاء النفس ، والمبتهج بالمعارف الإلهية لا يجد لديه إقبالا على شهوة الطعام والشراب التى تقوى البدن . وتستطيع ملاحظة ذلك فى المستبشر بخدمة السلطان أو بالفوز بمنصب أو بالحصول على جائزة لا يجد لديه الإقبال على الطعام أو الشراب بل ربما وجد نفرة من ذلك . . ذلك أن السعادة النفسية تطغى على السعادة الجسمانية ، وهذا يؤكد أن النفس لا تموت بموت البدن . .

لقد ذهب بعض العلماء إلى أن أرواح الشهداء أحياء وهى تركع وتسجد كل ليلة تحت العرش الى يوم القيامة والدليل على ذلك ساقه الرازى ـ رحمه الله ـ من قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

« اذا دام العبد فى سجوده باهى الله ـ تعالى ـ به ملائكته ويقول : انظروا الى عبدى روحه عندى وجسده فى خدمتى »

هل حياة الشهداء بالروح والجسد معـا ؟

قال بعض العلماء : إنه تعالى يصعد أجساد هؤلاء الشهداء إلى السموات وإلى قناديل تحت العرش ويوصل أنواع السعادة والكرامات إليها .

القائلون بالحياة المعنوية المجازية :

ويرى بعض العلماء أن المراد بالحياة فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ ﴾

هى الحياة المجازية المعنوية : فالعالم الذى ينتفع الناس بعلمه حى بأثره ، والجاهل ميت يمشى على قدمين

وعلى ذلك يفهم قول الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

وقول الشاعر :

والناس صنفان موتى فى حياتهم وآخرون ببطن الأرض أحياء

والحق أن الشهداء يحيون الحياتين معاً . فهم يحيون الحياة الحقيقية بعد الموت بدليل الآية الكريمة .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

كما يحيون الحياة المعنوية فى هذه الدنيا . لأن ذكراهم باقية بين الناس بما قدموه من بذل للنفس والمال فى سبيل إعلاء كلمة الله . .

وقال بعض العلماء إن المقصود بالحياة أن الله يحفظ أجساد هؤلاء الشهداء فلا تبلى فى القبور فبقاء أجسادهم دون تحلل هو حياة مجازية والذى يؤيد ذلك أن كثيرا من قبور الشهداء كشفت فرئيت فيها أجسادهم ما تزال كأن قد دفنت الآن . .

هذا موجز ما ذكره الإمام فخر الدين الرازى حول مضمون هذه الآية

مع الامام الألوسى :

ولم يبعد الإمام الألوسى عما ذهب اليه الإمام الرازى .

فقد قرر ان سؤال اليهود أو المشركين للنبى - صلى الله عليه وسلم - كان عن حقيقة الروح الذى هو مدار البدن الانسانى ومبدأ حياته ، لأن ذلك من أدق الأمور التى لا يسع أحد إنكارها ، ويشرئب كل إنسان إلى معرفتها ، وتتوفر دواعى العقلاء إليها ، وتكلُّ الأذهان عنها ، ولا تكاد تعلم إلا بوحى . .

أما فى تفسير قوله ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ فقد قال :

معنى كون الروح من أمره تعالى أنه من الابداعات الكائنة بالأمر التكوينى من غير تحصل من مادة وتولد من أصل كالجسد الإنسانى . فالمراد من الأمر واحد الأوامر أعنى « كن »

والسؤال عن الحقيقة والجواب إجمالى ، ومآله أن الروح من عالم الأمر مبدعة من غير مادة ، لا من عالم الخلق وهذا من الأسلوب الحكيم كجواب موسى - عليه السلام - سؤال فرعون إياه حين قال له « ومارب العالمين » فأجابه بقوله :

﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٤١)

لقد سأل فرعون عن كنه الحقيقة .وذلك مالا يعلمه إلا الله الذى يقول

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

---

(٤١) الشعراء : ٢٤

ومعنى ذلك أنكم لا تعلمون إلا علما قليلا تحصلونه عن طريق الحواس ، وقالوا فى ذلك : من فقد حسا فَقَدْ فَقَدَ علما .

وربما كان أكثر الأشياء لا تدرك بالحس لأنها غير محسوسة ، أو محسوسة ولكن منع من الإحساس بها مانع كالغيبة مثلا .

وظاهر كلام بعض العلماء أن إدراك كنه الروح غير ممكن .

وفرق بعضهم بين بيان كنه الروح الذى هو ممكن وكنه الذات الأقدس الذى ليس بممكن إدراكه .

هل عرف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حقيقة الروح ؟

روى عن عبد الله بن بريدة أنه قال : لقد قبض النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما يعلم الروح .

ولكن عبدالله ـ هذا كان من الذين يقولون بامتناع العلم بها . . وذكر بعض العلماء

أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يقبض حتى علم كل شىء يمكن العلم به أى ماعدا الأمور التى لم يرد الله أن يطلع عليها أحداً من خلقه . .

ويفهم بعض العلماء أن الروح من عالم الأمر ، ويقصد بعالم الأمر : العالم الكائن من غير تحصل من مادة وتولد من أصل . .

ويقابل عالم الخلق وهو الكائن المتحصل من المادة والمتولد من أصل . .

ويقول هؤلاء إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد أشار إلى ذلك بقوله ـ تعالى ـ

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (٤٢)

---

(٤٢) الأعراف ٥٤

ولكن هذا مجرد اصطلاح - كما يقول الألوسي - وليس أمرا مقررا فى لغة العرب .

هل وجدت الروح قبل البدن ؟

يرى الألوسي أن الروح حادث حدوثا زمنيا كسائر أجزاء العالم إلا أن العلماء اختلفوا : فى كون ذلك قبل البدن أو بعده ؟

والذى يرى أن الحدوث قبل البدن يستدل بالحديث الشريف : « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »[٤٣]

فهذا الحديث يفيد أن الأرواح كانت مخلوقة قبل الأجساد - نقول : ويمكن الاستشهاد على ذلك بآية الميثاق :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴿١٧٢﴾ ﴾[٤٤]

وقال بعضهم : إنها فى برزخ منقطع العناصر فاذا استعد جسد لشيء منها هبط إليه ، وانها تعود إلى هذا البرزخ بعد الوفاة ، وهذا القول منسوب إلى ابن حزم ، وان كان لادليل عليه من كتاب أو سنة . .

ومن العلماء من يرى أن الروح حادثة بعد البدن ، ومن هؤلاء حجة الاسلام الغزالى ، ويستشهد أصحاب هذا الرأى بقوله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله خلق ابن آدم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما دما ، ثم

---

(٤٣) رواه البخارى فى بدء الخلق

(٤٤) الأعراف ١٧٢

يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح »[٤٥]

فهذا الحديث يدل على أن البدن خلق أولا ، ثم أرسل الملك لينفخ فيه الروح بعد ذلك .

وهناك من العلماء من يؤكد فساد الرأى الذى يقول إن الأرواح خلقت قبل الجسد .

والقول الصحيح عند الألوسى وهو الذى دل عليه الشرع والعقل أنها مخلوقة مع الأجساد ، وأن الملك ينفخ الروح أى يحدثه بالنفخ فى الجسد إذا مضى على النطفة أربعة أشهر ودخلت فى الخامس .

أما الفلاسفة الذين يرون قدم الروح من أمثال افلاطون وغيره فقولهم باطل .

هل هناك فرق بين الروح والنفس ؟

اختلفت آراء العلماء حول ذلك .

فمنهم من يقول : إن الروح والنفس شىء واحد ، يطلق كل منهما على الآخر .

والدليل على ذلك الحديث المروى عن أبى هريرة وأخرجه البزار : « ان المؤمن ينزل به الموت ويعاين ما يعاين يود لو خرجت نفسه ، والله ـ تعالى ـ يحب لقاءه ، وإن المؤمن تصعد روحه إلى السماء فتأتيه أرواح المؤمنين فيستخبرونه عن معارفه من أهل الدنيا »

---

(٤٥) رواه البخارى فى بدء الخلق ، ومسلم فى كتاب القدر

ومنهم من يفرق بين الروح والنفس

فيقول : الروح هو النفس المتردد فى الانسان .

والنفس أمر غير ذلك وهى التى تلتذ وتتألم وتفرح وتحزن ، وهى التى تتوفى فى المنام وتخرج وتسرح وترى الرؤيا ويبقى الجسد دونها بالروح فقط لايلتذ ولا يفرح حتى تعود ، ودليل من يقول ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴿٤٢﴾ ﴾ (٤٦)

ومنهم من يرى أن الروح نورية روحانية ، وأن النفس طينية نارية .

ومنهم من يرى أن قوام النفس بالروح ، والنفس صورة العبد والهوى والشهوة والبلاء معجون فيها ، ولا عدو للإنسان أعدى من نفسه ، فهى تريد الدنيا وشهواتها ، ويؤيد هذا قوله ـ تعالى ـ على لسان من وردت فى حقه :

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٤٧)

أما الروح فإنها تدعو إلى الآخرة وتؤثرها(٤٨)

وربما حدث بين الروح والنفس نزاع ، يخضع القلب للغالب منها . .

---

(٤٦) الزمر ٤٢

(٤٧) يوسف ٥٣

(٤٨) راجع فى ذلك « يسألونك عن الروح » الاستاذ محمد عبدالعزيز الهلاوى

هل ترقى النفس ؟

يعنى العلماء المهتمون بتهذيب النفس بضرورة جهادها حتى ترقى وتصعد إلى الدرجات العلا ، ولهم فى ذلك وسائل مختلفة يسلكونها ويحثون تلاميذهم . . . عليها

وللشيخ حسن رضوان كتاب اسمه « روض القلوب المستطاب » فيه باب مستقل عن جهاد النفس ، ويبين سر إيجاد النفس ، وسر إيجاد الهوى والروح ، وميل النفس مع الهوى ، وكيف تتغلب الروح فى معركتها المستمرة مع النفس وشهواتها ثم يتعرض لمراتب النفس وألوان جهادها فى كل مرتبة وأحوالها فى هذه المراتب حتى تصل إلى نهاية كمالها المطلوب ، هذا عدا المتناثر بين أبواب الكتاب الأخرى حول هذا الموضوع .

ولا نتعرض لرأى المؤلف بقدر ما نتعرض لاثبات قدرة هؤلاء العلماء على إدراك أسرار النفس إدراكا يبرز قدرتهم على الكشف . . ويبين ما يحصل لهم من الالهام . . .

يقول السيد محمود أبو الفيض المنوفى فى ذلك : اعلم علمك الله من علمه أن النفس والقلب والروح خط واحد يمكنك تصوره إذا تصورت خطا رأسيا يبدأ بنقطة هى الروح ، ويتوسط بنقطة هى القلب ، وينتهى بنقطة هى النفس ، على أن تتصور أن النقطة الأولى المبدئية تتجه ناحية العلو والرفعة والنقطة السفلى تتجه ناحية الجسم وغرائزه وما جبل عليه من الصفات الأرضية . . . فان بالغت فى ذلك وانسجمت مع صفات الجسم كان أعظم مبتغاها الدنيا لا الآخرة ، وأصبح ارتباطها بالجسم وغرائزه أكثر من ارتباطها بطاعة الله وشكره . .

أما القلب فتصوره كنقطة فى وسط الخط الذى فرضناه ، وفى درجة بين حالتين : حالة سماوية روحية وحالة أرضية بهيمية .

ولذلك كان القلب محل النزاع بين النزعات الروحية والنزعات البهيمية ، وفى نقل هذا المرقف يقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى دعائه : ـ يا مقلب القلوب والأحوال حول قلبى إلى أحسن حال »

وفى حالة سمو القلب وصلاح حاله مع الروح يرتفع صاحبه إلى أعلى عليين ، ويستحق بذلك نظر الله ، وقد ورد فى ذلك أثر قدسى « وما وسعتنى أرضى ولا سمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن »

ويمكن التعبير عن القلب بأنه العرش الذى صوره الشيخ حسن رضوان فى كتابه .(٤٩)

وهو المملكة التى يتنازع عليها سلطان الروح وسلطان النفس . . ومعنى ذلك عند هؤلاء العلماء أن الروح خلاف النفس . .

ونتيجة هذا الصراع أن الغالب يسيطر على المغلوب منهما . . فإن تغلبت الروح خضعت النفس لها واستولت الروح على القلب وأصبح الانسان روحانيا لا هدف له إلا المثل العليا . . .

وإن تغلبت النفس أخضعت القلب واستولت عليه وانطوى الروح فى داخله وأصبح الإنسان أرضيا شهوانيا لا هدف له إلا اللذات ، ولا تفكير له إلا فى الشهوة والشر . .

---

(٤٩) روض القلوب المستطاب

وليست هذه النظرية بدعا فقد فكر فيها كثير من الناس ، حتى نظم فيها الفرزدق الشاعر الأموى شعرا قال فيه :

لكل امرىء نفسان نفس كريمة وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسك من نفسيك تشفع للندى إذا قل من أحرارهن شفيعها

« ولعل الفرزدق أتى بهذا المعنى من بعض الآثار الدينية فقد روى أن ابن عباس قال « فى الإنسان نفس وروح بينهما شعاع كشعاع الشمس »[٥٠]

أما مراتب النفس التى تحدث عنها العلماء فهى تدور حول المراتب التالية :ـ

١ ـ مرتبة النفس الأمارة بالسوء

وهى التى يقول الله فيها على لسان امرأة العزيز أو على لسان يوسف ـ عليه السلام ـ على حسب اختلاف المفسرين :ـ

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾[٥١]

وهذه المرتبة يندرج تحتها عامة البشر ، وتظل النفس فى هذه الحالة أمارة للإنسان بالسوء ، موسوسة له بالشر ، مرغبة له فى الباطل حتى يوفقه الله إلى الانتباه واليقظة ، فيلتجىء إلى التوبة ويأخذ نفسه بالاستغفار حتى تقوى بواعث الخير فيه ، وتضعف دوافع الشر عنده ، فينتقل إلى المرتبة الثانية

---

(٥٠) التصوف فى الشعر العربى لعبدالحكيم حسان ص ١٦١

(٥١) يوسف ٥٣

٢ ـ المرتبة الثـــانية

وهى مرتبة النفس اللوامة ، وقد أقسم الله بها فى قوله ـ تعالى ـ :
﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾ (٥٢)
وتأتى هذه المرتبة بعد جهاد شاق ، تنبعث من نتائجه زواجر نفسية تمنع الانسان من الاقتراب إلى الشر فاذا حدث منه تقصير لامته نفسه على ذلك ، ويظل فى هذه المرتبة فى مراقبة ومحاسبة حتى تضعف دوافع الشر ، ويصبح الانسان محبا لفعل الخير وممارسة الصالحات فتصفو نفسه فينتقل الى المرتبة الثالثة ،

٣ ـ النفس الملهمــة

وهذه المرتبة نتيجة حتمية للمرتبة السابقة ، لأن المريد للخير متى انبعثت قوة الخير التى تمكنه من تنقية نفسه وتصفية قلبه يصبح فى مقدوره التمييز بين الخير والشر الخفى الملتبس به ، وتنفجر أمامه عيون الحكمة التى تفيض على لسانه وينتقل بعد ذلك إلى المرتبة التى تليها . .

٤ ـ النفس المطمئنــة

وهى المخاطبة بقوله ـ تعالى ـ

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ﴾ (٥٣)

وهذه المرتبة تؤهل صاحبها للارتفاع عن مواطن الغرور والبعد عن

---

(٥٢) القيامة ١ : ٢

(٥٣) الفجر ٢٧

الانخداع بما يراه من إكرام يحيط به من كل جانب ، كمدح الناس له وإقبالهم عليه ، أو التزلزل حين يرى منهم عكس ذلك كذمهم له أو انتقاصهم من قدره فأنسه بربه لا بالناس ، وهو فى هذه الحالة لايجزع من قضاء ولا يبطر بعطاء ولذلك نرى الآية المتقدمة وردت فى سياق قوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ (٥٤)

٥ ـ النفس الراضـــية

وهى التى تتمتع بمقام الرضا لكل ما يأتى به القدر وما يقضى به الحق فتنبعث لها الأنوار ويفيض الله عليها من لدنه علما ونورا ، ويرضى الانسان فى هذه المرتبة بكل ما يأتى الله به ، وفى هذا الرضا يقول الحكيم ابن خفيف « الرضا سكون القلب إلى أحكام الله والرضا بكل ما اختاره وقضاه »

وفيها تقول رابعة العدوية وقد سئلت : متى يكون العبد راضياً ، قال : « إذا سرته المصيبة كما تسره النعمة »

وفيها يقول القائل : « أصبحت ومالى سرور إلا فى مواقع القدر »

٦ ـ النفس المرضـــية

وهى التى يرضى فيها الله عن الإنسان ، وفى هذه المرتبة والتى قبلها يقول الله ـ تعالى ـ

﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴿٨﴾ ﴾ (٥٥)

---

(٥٤) الفجر ١٥ : ١٦

(٥٥) البينة ٨

٧ ـ النفس الكاملـة

وهى المرتبة التى يصل فيها صاحبها إلى أعلى درجات السلوك ويستحق بها أن يكون خليفة الله فى أرضه مصداقاً لقوله ـ تعالى ـ :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (٣٠) ﴾[٥٦]

ولا يترقى الانسان من مرتبة إلى مرتبة إلا بجهاد شاق يصل به إلى غاية ما يأمله ويتمناه ، مصداقا لقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾[٥٧]

مكان الروح بعد الموت

ويثور سؤال حول مكان الروح بعد مفارقة الجسد ، ويتكفل ابن القيم بالرد على ذلك فيقول ناقلا عن ابن حزم : الأرواح تستقر فى المكان الذى كانت فيه قبل خلق أجسادها . وهو ما قاله الله ـ عز وجل ـ :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾[٥٨]

---

(٥٦) البقرة ٣٠

(٥٧) العنكبوت ٦٩

(٥٨) الأعراف ١٧٢

وقال ـ عز وجل ـ :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴿١١﴾ ﴾ (٥٩)

فيفهم من ذلك أن الله خلق الأرواح جملة ، وبذلك أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » وأخذ الله عهدها وشهادتها له بالربوبية ، وهى مخلوقة مصورة عاقلة قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم ، وقبل أن يدخلها فى الأجساد ، والأجساد يومئذ تراب وماء ثم أقرها الله حيث شاء ، وهو البرزخ الذى ترجع إليه عند الموت ، ثم لا يزال يبعث منها الجملة بعد الجملة فينفخها فى الأجساد المتولدة من المنى . .

فحين يتوفى الله الأرواح ترجع الى البرزخ الذى رآها فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة أسرى به عند سماء الدنيا ، أرواح أهل السعادة عن يمين آدم ، وأرواح أهل الشقاوة عن يساره . . وهذا ما أجمع عليه أهل العلم ، وهو قول جميع أهل الاسلام .

وهو المعنى بقوله ـ تعالى ـ

﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٦٠)

---

(٥٩) الأعراف ١١

(٦٠) الواقعة ٨ : ١٤

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾(٦١)

فلا تزال الأرواح هنالك حتى يتم عدد الأرواح كلها بنفخها فى الأجساد ثم برجوعها الى البرزخ فتقوم الساعة ويعيد الله ـ عز وجل ـ الأرواح الى أجسادها ثانية ، وهى الحياة الثانية ، ويحاسب الخلق فريق فى الجنة وفريق فى السعير .

وينقل ابن القيم كذلك رأى بعض العلماء حول استقرار الروح بعد مفارقة الجسد ، فيذكر قول ابن عبد البر : أرواح الشهداء فى الجنة وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم .(٦٢)

أما الذى يدل على أنها على أفنية قبورها ما رواه زيد بن أسلم عن عائشة ـ رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم »(٦٣)

وما رواه زيد أسلم ـ أيضا عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : « إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه ، وإذا مر بقبر لا يعرفه فسلم رد عليه السلام »(٦٤)

وأما كون أرواح الشهداء والمقربين فى الجنة فيشهد له ما ذكره ابن القيم قال : حدثنا محمد بن الحسين ، حدثنى يحيى بن بسطام الأصغر حدثنى

---

(٦١) الواقعة ٨٨ : ٨٩

(٦٢) الروح لابن القيم ص ١٢١

(٦٣) المرجع السابق ص ٦

(٦٤) المرجع السابق

رجل من آل عاصم الجحدرى قال : رأيت عاصما الجحدرى فى منامى بعد موته بسنتين فقلت : أليس قد مت ؟ قال : بلى ، قلت : فأين أنت ؟ قال : أنا والله فى روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها . .

قال : قلت أجسادكم أم أرواحكم ؟

قال : هيهات ، بليت الأجسام ، وانما تتلاقى الأرواح

قال : قلت : فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟

قال : نعم ، نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت الى طلوع الشمس .

قال : قلت : فكيف ذلك دون الأيام كلها ؟

قال : لفضل يوم الجمعة وعظمته(٦٥)

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾(٦٥)

يشهد بأن أرواح المقربين فى الجنة ، لأن الله ذكر ذلك عقب ذكر خروجها من البدن بالموت . وفى مقابل ذلك تكون أرواح الكفار ـ والعياذ بالله ـ فى النار .

وهناك من الآثار النقلية فى القرآن والسنة ما يدل دلالة قاطعة على أن أرواح المقربين والشهداء فى الجنة فقد قال الله فى حق أصحاب القرية على

---

(٦٥) الواقعة ٨٨ : ٨٩

لسان شهيد منهم عقب استشهاده ودخوله الجنة :

﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾(٦٦)

وقول النبى - صلى الله عليه وسلم - : « لما أصيب اخوانكم - يعنى يوم أحد - جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب مدلاة فى ظل العرش »(٦٨)

قوة الروح بعد انطلاقها

وتتفاوت الأرواح فيما بينها قوة وضعفا ، فالروح العظيمة التى وهبها الله لأنبيائه وأوليائه والصالحين الذين استطاعوا أن يهذبوا أنفسهم ويخلصوها من شهواتها ويرتقوا بها فى مدارج الصعود - لها من قوة التصرف ما ليس لغيرها من الأرواح المكبلة فى أسر الشهوات مع تكبلها فى أسر الجسد . .

وإذا انطلقت الروح من أسر الجسد بعد الموت ، ازدادت قوتها وفعاليتها قال ابن القيم : وقد تواترت الرؤيا من أصناف بنى آدم على فعل الأرواح بعد موتها ما لاتقدر على مثله حال اتصالها بالبدن من هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد والاثنين والعدد القليل . وكم قد رؤى النبى - صلى الله عليه وسلم - ومعه أبو بكر وعمر فى النوم وقد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم مع كثرة عددهم وعدتهم .(٦٨)

ومن العجب أن أرواح المؤمنين المتحابين تتلاقى وبينها أعظم مسافة

---

(٦٦) يس ٢٦ : ٢٧

(٦٧) الروح لابن القيم ص ١٢٨

(٦٨) الروح لابن القيم ص ١٢٨

وأبعدها فتتسالم وتتعارف ، فيعرف بعضها بعضا كأنه جليسه وعشيره . قال عبد الله بن عمرو : إن أرواح المؤمنين تتلاقى على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط . وقد رفع بعضهم هذا الأثر إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - (٦٩)

القــول بتناسخ الأرواح

يزعم بعض الناس ممن لاعلم ولا فهم لهم : أن الروح بعد خروجها من جسد صاحبها قد تحل فى بدن آخر . وربما ارتقت فحلت فى جسم أعظم مما كانت فيه ، وربما هبطت فحلت فى جسم أقل أو أحقر مما كانت فيه ، بل ربما حلت فى جسم حيوان عظيم أو حقير . .

وقد ينظر أصحاب هذا القول الى الحديث الشريف : « لما أصيب اخوانكم - يعنى يوم أحد - جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب مدلاة فى ظل العرش . . . » على أنه يؤيد زعمهم

ولكن فهمهم لهذا الحديث على أنه يدل على تناسخ الأرواح فهم خاطىء لا يصح . لأن هذه منزلة خاصة بأرواح الشهداء تكريما لهم بعد أن أصيبت أجسادهم فى الدنيا وتمزقت فى سبيل الله ، وقد جعل الله هذه الأرواح فى الجنة ولم تهبط الطيور التى جعلها فيها إلى الأرض كما يزعم هؤلاء الذين يقولون بتناسخ الأرواح .

وليس من المعقول أن تحل روح نبى أو ولى فى بدن آخر قد يكون صاحبه

---

(٦٩) الروح لابن القيم ص ١٣٨

كافرا أو زنديقا .. وهذا يقضى أن الروح قد تتناقض أفعالها فتتعرض للمثوبة حينا والعقاب حينا آخر . وهذا يؤدى إلى تعطيل الحكمة من التكاليف الشرعية كما يؤدى إلى الطعن فى الثواب والعقاب ..

ويقول ابن القيم فى ذلك : ان القول بتناسخ الأرواح الذى يقوله أعداء الرسل من الملاحدة وغيرهم الذين ينكرون المعاد باطل . وانهم ليقولن : إن الأرواح تصير بعد مفارقة الأبدان إلى أجناس الحيوان والحشرات والطيور التى تناسبها وتشاكلها فاذا فارقت هذه الأبدان حلت فى أبدان أخرى تناسب أعمالها وأخلاقها وهكذا أبدا . فبهذا معادها عندهم ونعيمها وعذابها لامعاد لها عندهم غير ذلك ..

هذا هو التناسخ الباطل المخالف لما اتفقت عليه الرسل والأنبياء من أولهم إلى آخرهم ، وهو كفر بالله واليوم الآخر .

إنهم يقولون : إن مستقر الأرواح بعد المفارقة ـ أبدان الحيوانات التى تناسبها ، وهو أبطل قول وأخبثه ويليه القول بأن الأرواح تعدم جملة بالموت ، ولا تبقى هناك روح تنعم ولا تعذب .

ومن الناس من يقول : إن الروح لا تعاد إلى الجسد بوجه ولا تتصل به والعذاب والنعيم فى الروح فقط ولكن هذا القول ترده السنة الصحيحة المتواترة من أن النعيم أو العذاب يقع للجسد والروح معا مجتمعين ومنفردين .[٧٠]

---

(٧٠) الروح لابن القيم ص ١٥٢

مستقر الروح فى رحلتها:

للروح فى رحلتها الطويلة أربع دور ـ كما يقول ابن القيم ـ فدارها الأولى بطن الأم .

ودارها الثانية بعد الولادة حيث يكتسب فى الحياة الخير والشر ويمتحن بأسباب السعادة والشقاء .

ودارها الثالثة البرزخ وهو أوسع من دار الدنيا وأرحب .

ودارها الرابعة دار البقاء وهى الجنة أو النار ، ولا دار بعدها والله ينقل الروح فى هذه الدور طبقا بعد طبق حتى تبلغ مستقرها النهائى ، والى هذا يشير معنى قوله ـ تعالى ـ

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩ ﴾ (٧١)

مع العلماء المحدثين :

بعد أن طفنا مع العلماء القدامى فى آرائهم حول الروح ، نجول مع العلماء المحدثين للتعرف على هذا الموضوع .

ـ رأى الشيخ محمد حسنين مخلوف

* يقول الشيخ محمد حسنين مخلوف مفتى الديار المصرية الأسبق ، فى فتوى صدرت عنه حول حقيقة الروح : « ينبغى أن يعلم أن عالم الروح » عالم

---

(٧١) الانشقاق ١٦ : ١٩

البرزخ » يختلف عن عالم المادة اختلافا كثيرا فى أحواله وأطواره . فالروح من أمر الله تعالى يسلكها فى البدن فتوجب له حسا وحركة وعلما وادراكا ولذة وألما ، ويسمى حيا ، ثم تفارقه فى الوقت المقدر أزلا لقطع علائقها به فتبطل هذه الآثار ، ويفنى هيكل البدن ويصير جمادا ، ويسمى عند ذلك ميتا ولكن الروح تبقى فى البرزخ - وهو ما بين الحياة الدنيا والأخرى من يوم الموت الى يوم البعث والنشور - حية مدركة تسمع وتبصر وتسبح فى ملك الله ، حيث أراد الله وقدر ، وتتصل بالأرواح الأخرى وتناجيها وتأنس بها سواء أكانت أرواح أحياء أم أرواح أموات »[٧٢]

* أما الأستاذ محمد شاهين حمزة فيقول : -

« لاتزال الروح سرا غامضا لم يمط عنه اللثام ، وإن كانت أنوار العلوم الحديثة قد أضاءت بعض مناحيها فإن هذا البعض الذى اكتشف منها لم يتجاوز منطقة القشور الخارجية . أما لبابها ، أما غورها ، وكنهها فلا يزال بعيدا بعيدا »[٧٣]

* أما العقاد فيقول فى كتابه « الفلسفة القرآنية » بعنوان مسألة الروح : مسألة الروح أعضل مسائل العلم والفلسفة ، ومذاهب التفكير - منذ فكر الانسان فى حقائق الاشياء - بين جميع أصحاب النحل والآراء فى جميع العصور .

ولايزال العلم بحقيقتها قليلا أو أقل القليل . .

---

(٧٢) الروحية الحديثة فى التراث الاسلامى - جمال الدين حسن حسين ص ٣٨
(٧٣) الروحية الحديثة دعوة إلى الإيمان محمد شاهين حمزة ص ١٦

ومن معجزات القرآن أنه وضعها هذا الوضع الصحيح ، وجعلها أعضل المعضلات التى يتساءل عنها الناس بغير استثناء . .

ويزيد فى تقدير هذه المعجزة أن القرآن لم يستكثر على الفكر الإنسانى أن يخوض فى كل شيء خلقه الله وأن يصل إلى الإيمان بالله من طريق البحث والاستدلال والنظر فى آيات الخلق وعجائب الطبيعة . .

فالعقل يهتدى إلى وجود الله من النظر فى وجود الأشياء ووجود الأحياء ، ولكنه لا يهتدى إلى حقيقة الروح من هذا الطريق ، ولا يذهب فيها مذهباً أبعد ولا أعمق من الإحالة إلى مصدر الموجودات جميعا ، وهى إرادة الله أو أمر الله . . »

فالعلماء المحدثون كالعلماء القدامى قد اتفقوا على أن الروح مما اختص الله نفسه بعلمه . . ومحاولة الخوض فى معرفة كنهها لن تصل إلى نتيجة . والدليل على ذلك واضح مما تراه من أقوال كثيرة لا تكاد تتفق على خط واضح إلا فى أنها من أمر الله . .

إلا أن العلماء المحدثين لا يحرمون البحث فى مسائل الروح . . وقد وصل بعضهم إلى معلومات ، قد تقود الباحثين إلى معرفة بعض الأسرار التى تتصل بالروح . مستدلين فى ذلك ببعض مافهموه من آيات وأحاديث .

فقد اتفق القدامى والمحدثون من العلماء إذن على أن حقيقة الروح شيء اختص الله بعلمه .

ولهذا قال الحق سبحانه وتعالى للسائلين عن حقيقتها : « قل الروح من أمر ربى » وكأنه يقول لهؤلاء السائلين : الزموا حدودكم ، وحدود ما منحتم


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



وغريب أيضا أن ينكر البعض عالم الجن الموجود بيننا على الأرض التى خلق عليها قبل وجود آدم ـ عليه السلام ـ ولا نعترف باتصاله بالإنسان ومبادلته الحديث معه ومشاركته وتعاونه فى تنفيذ أمور تتفاوت فى الضرر أو الخير .

هذا بالرغم من أن الكتب الدينية والأحاديث النبوية نصت عنه وعن ظهوره فى مناسبات كثيرة منها ظهوره لسيدنا ابراهيم ـ عليه السلام ـ حينما هم بذبح ولده تنفيذاً لأمر الله كما ظهر لزوجته .(٧٥)

والأخبار مستفيضة حول ظهور الجن ومخاطبتهم للأنس .. واخبارهم بأشياء مغيبة عنهم ..

إن مايحدث فى جلسات تحضير الأرواح هذه ومايلقيه الوسيط من أنباء يزعم أنه تلقاها من الروح إنما هى من القرين الذى كان ملازما للانسان فى حياته ويعرف كل شيء عنه ، وهذا القرين وهو جنى لديه القدرة على الانتقال من مكان إلى مكان فى سرعة خاطفة لاستنشاق الأخبار المطلوبة من الوسيط والإدلاء بالمعلومات التى يراد منه الافصاح بها ..

أما الروح فستظل كما أخبر عنها البارى جل وعلا

﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾

وسيظل علمنا قليلا ـ كما أخبرنا بذلك الحق ـ سبحانه وتعالى ـ مهما انفتحت أبواب العلم وتعددت منافذه ودنت قطوفه وتحطمت مغاليقه .

---

(٧٥) حقيقة تحضير الأرواح ـ محمد أنور القونى ص ٤٥

ابن سينا وقصيدته فى الروح

وما أجمل أن نختم هذا الموضوع بما قاله ابن سينا ـ وهو الشيخ الرئيس ـ وهو من كبار الفلاسفة المسلمين ـ وقد تناول المعانى التى دارت حول الروح وأنها لا تفنى بفناء البدن ، بل هى خالدة وذلك لأنها ليس بينها وبين الجسم من علاقة توجب فناءها بفنائه إذ هى جوهر روحى مجرد .[٧٦] وقد تناول هذه المعانى فى قالب شعرى جميل ، وقد شبه النفس بالورقاء وهى الحمامة التى يضرب لونها إلى الخضرة فيقول فيها : ـ

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف وهى التى سفرت ولم تترفع
وصلت على كره إليك وربما كرهت فراقك وهى ذات تفجع
أنفت وماألفت فلما واصلت ألفت مجاورة ألخراب البلقع
وأظنها نسيت عهودا بالحمى ومنازلا بفراقها لم تقنع

* * *

حتى اذا قرب المسير إلى الحمى ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق والعلم يرفع كل من لم يرفع
وتعود عالمة بكل خفية فى العالمين فخرقها لم يرقع
فهبوطها إذ كان ضربة لازب لتكون سامقة لما لم تسمع
فلأى شىء أهبطت من شاهق سام إلى قعر الحضيض الأوضع ؟
إن كان أهبطها الإله لحكمة طويت عن الفطن اللبيب الأوزع
أوعاقها الشرك الكثيف وصدها قفص عن الأوج الفسيح الأرفع
فكأنها برق تألق بالحمى ثم أنطوى فكأنه لم يلمع

---

(٧٦) ابن سينا بين الدين والفلسفة د . حمودة غرابة ص ١٦١





ولقد صور القرآن الكريم هذه المعانى أجمل تصوير حين قال :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ
وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ
وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟
ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ﴾ (٧٩)

ففى هاتين الآيتين اعتراف صريح من المفكرين بأن هناك إلها يفزع إليه المخلوق الضعيف الذى لا يملك حولاً ولا قوة حين يحيط به ما لا يستطيع دفعه ولا يمكنه قهره . .

هذه هى الفطرة فلماذا يأبى هؤلاء الكفار هذه الفطرة ؟

إنه الشيطان الذى سول لهم وأملى لهم . هو الذى زين لهم طريق الضلال وصدهم عن سبيل الله . .

قوام الدعوة :

إن سبيل الاسلام واضح ، وقوام دعوته الإيمان بالله الواحد الأحد والايمان برسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر . . لقد قام الاسلام على أسس علمية وأسس عملية . .

---

(٧٩) يونس ٢٢ : ٢٣

أما الأسس العلمية فهى الايمان باللهٔ تعالى وبرسله واليوم الآخر ، والايمان بالرسل يستتبع الايمان بما أنزل عليهم من كتب ، ويستتبع كذلك الايمان بالملائكة الذين نزل بعضهم بهذه الكتب .. وقد جاء القرآن الكريم يقرر ذلك فى آيات كثيرة منها قوله ـ تعالى ـ :

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ (٨٠)

وقوله تعالى ـ

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ (٨١)

وقد جاء فى الحديث الشريف المشهور أن جبريل ـ عليه السلام ـ جاء للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بين أصحابه فسأله عن الاسلام ، وعن الايمان فقال له : ﷺ « الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره حلوه ومره »

معنى الايمان

والايمان يعنى التصديق والإقرار بأن الله لا إله إلا هو ، أى لا معبود بحق إلا هو . وهذا يستدعى التصديق بأنه موجود ، لا أول لوجوده ولا

---

(٨٠) البقرة ١٧٧

(٨١) النساء ١٣٦


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ولا يكون العبد مصدقاً بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، ولا يكون مؤمناً بالله إله العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله ، ولا يكون مؤمناً بأن الله لا إله إلا هو حتى ينفى خصائص الألوهية عن كل موجود سوى الله ـ تعالى ـ ولا يكون مصدقاً بها مَنْ نفى أن الله أرسل الرسل للهداية ، وأنه اجتبى محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفضله على الناس جميعاً ، وأنزل عليه القرآن

﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴿٤٨﴾ ﴾[86]

وأنه جعل رسالته عامة لجميع الأمم وناسخة وخاتمة للرسالات ، وأنه أسرى به ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه ، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه . ولا يكون مؤمناً بهذه الكلمة مصدقاً بها حقاً من نفى عموم خلق الله لكل شيء وعلمه بكل شيء ، وبعثه الأجساد من القبور ليوم النشور

﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾ ﴾[87]

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾[88]

« يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم »[89]

---

(٨٦) المائدة ٤٨

(٨٧) النبأ ٤٠

(٨٨) الحج ٢

(٨٩) الشعراء ٨٨ ، ٨٩

« ولا يكون مصدقاً بهذه الكلمة من زعم أن الله ترك خلقه سُدًى ، لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله .

« فالتصديق بالشهادتين يقتضى الإذعان والاقرار بحقوقها ، وهذه الحقوق هى شرائع الاسلام التى جاء بها سيد الأنام ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى هى تفصيل هذه الكلمة العظيمة « لا إله إلا الله ـ محمد رسول الله » وذلك بتصديق جميع أخباره وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ـ فالمصدق بالشهادة هو الذى يأتى بذلك كله ولا تنال سعادة الدارين إلا بالتصديق بها والقيام بحقها . ولا يحيق الشقاء فى الدنيا والآخرة إلا على من تركها أو ترك حقها »[٩٠]

لم يقتنع المشركون بذلك ـ لأنهم لم يستوعبوا هذه المعانى الرائعة التى تضمنتها دعوة الاسلام التى جاءت لتأخذ بأيديهم من الضلالة الى الهدى ومن الظلام إلى النور .

لقد ارتكست نفوسهم فى الرجس ، وغطت عبادة الأصنام على عيونهم فلا يبصرون وعلى آذانهم فلا يسمعون وعلى عقولهم فلا يفكرون .

الايمان وسيلة السعادة

وهم من أجل ذلك كانوا فى شقاء وبلاء ـ لأن الايمان الذى أشرنا إليه فى العبارات السابقة هو سبب رقى الانسان وسعادته ، ولولاه ما كان فى العالم نظام ، ولا عرف الناس معنى الواجب ولا حدوده ، والواجب هو محور النظام بين الأفراد والجماعات والأمم . إنه ليس للشهوة ما يقمعها ولا

---

(٩٠) أدب الإسلام ج ٣ لعلى محمد حسب الله وآخرين ص ١٦


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ذلك الى غيره من الأفراد ، فيخرج المجتمع الفاضل المتكامل المبتكر المتقدم .

فالايمان يدعو صاحبه إلى الاتصاف بالأخلاق الكريمة والصفات الحسنة .. وممارسة العبادات التى فرضها الاسلام تساعده على تحقيق ذلك . وهذا هو الجانب العملى فى العقيدة .

ففى الصلاة صلة بين الانسان وربه ، وفى صلاة الجماعة تقوية لروابط الأخوة بين المسلمين ، وفيها نظافة وطهارة ونظام وتعاون وتواضع وأداء للواجب . وغير ذلك من صفات الكمال التى يتعودها المسلم من الصلاة .

وفى الصوم صفاء للنفس وتعويد على الصبر والشفقة والعطف على الفقراء ، والشعور بحاجة الغير .

وفى الزكاة والصدقة بذل وعطاء وتقوية للأواصر بين الفقير والغنى وقطع لمادة الحقد والعداوة والأثرة وإشاعة للأمن والاطمئنان وفى الحج فرصة للبحث عما يعود على الأمة الاسلامية بالخير كما يطبع الانسان فى ظله بطابع الحب والصفاء والقرب من الله والتحليق فى جو من الأنس الروحى والاطمئنان النفسى .. وغير ذلك مما يستشعره الحاج فى الأماكن المقدسة التى تربطه بالمعانى الروحية العالية ..

فى نظام الاسلام سعادة وأى سعادة .

وقد ذاق طعمها المسلمون الأوائل فأفنوا أنفسهم فى سبيل تحصيلها والتنعم بها . وتسابقوا الى كلمة الله العليا يعلنونها ، فقابلهم الكفار بالنكير والتذير ، وآذوهم إيذاء شديداً ، ولكن هذا الايذاء لم يحل دون إقبال

المسلمين على الاستظلال بظل هذه الدعوة التى جاءت لتقيم العدل ، وترسى نظام الحرية ، وتأخذ بيد الضعيف ، وتضرب على يد الظالم ، وتنادى بأنه لا سيد ولا مسود ، ولا قوى ولا ضعيف ، بل الناس كلهم إخوة لأب واحد وأم واحدة

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (٩٣)

وأشار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى مضمون هذه الآية الكريمة بقوله :

« كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى »

ولعل هذه المساواة التى أراد الاسلام إذاعتها بين صفوف المسلمين ، كانت من بين الأسباب الرئيسية التى جعلت الكفار يقاومون هذه الدعوة بكل ما أوتوا من قوة . إذ كيف يقبلون دعوة يجلس فيها بلال بن رباح بجوار أمية بن خلف ؟ ويتواضع فى ظلها سادة قريش لمستضعفين من أمثال عمار بن ياسر وخباب بن الأرت وصهيب بن سنان ؟

سخرية الكفار من الدعوة

واتخذ موقف الكفار الانكارى من الدعوة صورا متعددة من بينها السخرية من الدعوة ومبادئها ونبيها والمؤمنين بها . وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك

---

(٩٣) الحجرات ١٣

فى مواضع متعددة منها قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٩٤)

وقد ذكر القرطبى فى تفسيره حول هذه الآيات ماروى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : هؤلاء الكفار هم الوليد بن المغيرة ، وعقبة بن أبى معيط ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد يغوث ، والعاص بن هشام ، وأبو جهل ، والنضر بن الحارث .

كان هؤلاء النفر حين يرون بلالا وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وصهيب بن سنان وأمثالهم من الفقراء الذين آمنوا بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصدقوه وبايعوه . يضحكون سخرية واستهزاء ، واذا مروا بهم يتغامزون ويعيرونهم بالاسلام ويعيبونهم به ، ويقضون وقتهم فى السخرية والضحك حتى ينقلبوا إلى بيوتهم وقد اعتقدوا أنهم قضوا وقتا ممتعا طيبا حيث أتيحت لهم فرصة الضحك والسخرية بأصحاب محمد .

. . . وكان هؤلاء الكفار ينكرون الآخرة والبعث وماقولهم الذى حكاه القرآن فى مواضيع كثيرة :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (٩٥)

---

(٩٤) المطففين ٢٩ : ٣٦

(٩٥) يس ٤٨ ـ تبارك ٢٥ ـ الأنبياء ٣٨

إلا نوع من السخرية والاستبعاد الذى يعطيه معنى الاستفهام .

ويذكر القرطبى فى تفسيره كيف يرد المؤمنون الصاع للكفار صاعين يوم القيامة ، وكيف يسخرون منهم فى الآخرة كما سخروا منهم فى الدنيا . فيقول راويا قول قتادة : ذكر لنا أن كعبا كان يقول إن بين الجنة والنار كوى ، فإذا أراد المؤمن أن ينظر الى عدو كان له فى الدنيا اطلع من بعض الكوى فيراه فى العذاب . . . قال الله ـ تعالى ـ

﴿ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥ ﴾(٩٦)

وقيل : إنه تفتح للكفار أبواب النار من جهة الجنة ، ثم يقال لهم : تعالوا فيقبلون يسبحون فى النار ، والمؤمنون على الأرائك ينظرون إليهم ، حتى إذا انتهى الكفار إلى الأبواب أغلقت دونهم . وهذا مايشير اليه قوله ـ تعالى ـ

﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾(٩٧)

ومن أنواع سخرية الكفار بالمؤمنين ماروى حول أسباب نزول سورة الهمزة

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢
يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ۝٤
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ
عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩ ﴾

---

(٩٦) الصافات ٥٥

(٩٧) البقرة ١٥

قال المفسرون : إنها نزلت فى الأخنس بن شريق وكان يلمز الناس ويعيبهم . وقال بعضهم : نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وكان يغتاب النبى - صلى الله عليه وسلم - من ورائه ويقدح فيه فى وجهه ، وقيل : نزلت فى أُبَىّ بن خلف[98]

والهمزة اللمزة هو المشاء بالنميمة المفسد بين الأحبة الذى يعيب الناس

ومن أسباب رفضهم للدعوة الاسلامية انهم كانوا يستكثرون نزول القرآن على النبى - صلى الله عليه وسلم - قال الوليد بن المغيرة يوما : أينزل القرآن على محمد - ولاينزل علىَّ أنا ، وأنا كبير قريش وسيدها ، وإذا كان لم ينزل على ، فلماذا لم ينزل على أبى مسعود الثقفى سيد ثقيف ، ونحن عظماء القريتين ، أى مكة والطائف ؟ فأنزل الله - تعالى - قوله :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[99]

وهذا مارواه « الحلبى » فى سيرته ، وإن كان القرطبى فى تفسيرة قد ذكر أن هناك أقوالا حول عظيم الطائف . فبعضهم قال : هو أبو مسعود الثقفى ، وبعضهم قال : هو عمير بن عبد ياليل الثقفى ، وبعضهم قال : إنه حبيب بن عمرو الثقفى . وأيا ما كان هو فقد ردت الآية الكريمة على قوله من قال ذلك بالحجة القاطعة والقول الفصل :

---

(٩٨) أسباب النزول للسيوطى ص ١٨٣

(٩٩) الزخرف ٣١ : ٣٢

﴿ « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرية ورحمة ربك خير مما يجمعون »

لقد كان مقياسهم الذى يتفاضلون به هو المال والجاه والولد والرياسة وكثرة المال ـ هذه أسباب العظمة فى نظرهم ـ وأين محمد الفقير اليتيم من كل ذلك ؟ إنه لا يحيط به إلا هؤلاء الفقراء والعبيد الأرقاء ـ ولكن القرآن يرد عليهم ويقرر أن الرحمة والنبوة فوق ذلك كله . وإنها لأعظم من الدنيا ومتاعها الزائل وزخرفها الباطل . .

وكان الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يحمى رسوله ويحفظه من سخريتهم وعدوانهم ويرد عليهم تلك السخرية سهاما نافذة ويحولها إلى معجزة عظيمة تثير عجب الكفار ، وتزيد من حيرتهم . . ومن ذلك ماذكره الرواة ونقله أصحاب السير من أن أبا جهل بن هشام ابتاع من شخص يقال له : الإراشى ـ بكسر الهمزة ـ أجمالا فماطله بأثمانها ، فسأل الرجل عمن ينصفه من أبى جهل فدلته قريش على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لينصفه من أبى جهل ـ استهزاء بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اعتقادا منهم بأنه لن يستطيع انصاف الرجل وأنه لا قدرة له على أبى جهل . فعلوا ذلك سخرية بالرجل وبالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان هذا الرجل قد وقف على حلق قريش حلقة بعد أخرى وهو ينادى : يامعشر قريش ، هل من رجل يعيننى على أبى الحكم بن هشام فإنى غريب وابن سبيل ، وقد غلبنى على حقى ؟
فقالوا له : أترى ذلك الرجل ؟ يعنون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اذهب اليه فهو يعينك عليه .

فجاء الرجل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكر له حاله مع أبى

جهل ، وقال له : لقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يأخذ لى حقى من أبى جهل فأشاروا اليك . فخذ لى حقى منه يرحمك الله .

لقد مَنَّى هؤلاء القرشيون أنفسهم بمشهد من مشاهد التشفى ، وقد ظنوا أن أبا جهل بن هشام سوف يرد محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ مخذولا مصغرا أمام من استنجد به .

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ثقة كاملة واعتزاز بقوة الله ـ أخذ بيد الرجل وانطلق به إلى بيت أبى جهل بن هشام وطرق عليه الباب ـ والمشركون من ورائه منطلقون يترقبون كيف يكيل له أبو جهل الشتائم وكيف يسخر منه . وفى هذا شفاء لنفوسهم وتحقيق لظنهم .

ورد أبو جهل من الداخل : من الطارق ؟

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : محمد . .

فبادر أبو جهل بالخروج من الباب وقد امتقع لونه . وقال : ماتريد يامحمد ؟

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هدوء تام وحزم قاطع : أعط هذا الرجل حقه .

قال أبو جهل ـ وقلبه يرجف ـ : نعم يا أبا القاسم ، لا تبرح حتى أعطيه حقه الذى له . ودخل وعاد إلى الرجل بحقه فدفعه اليه .

وبهت القوم مما رأوا . ورد الله غيظهم فى نحورهم .

وعاد الرجل اليهم وقد أخذوا مجالسهم متعجبين من هول مارأوا كيف يجبن أبو جهل فى مواجهة محمد ؟ وكيف يضيع هذه الفرصة الثمينة فلا يصغره أمام من استنجد به ؟

وقال الرجل لهم : جزى الله محمدا خيرا ، فقد والله أتى لى بحقى
وفى رواية : أنهم كانوا قد أرسلوا رجلا خلف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا له : انظر ماذا يصنع .

فعاد الرجل يقول لهم : رأيت عجبا من العجب ، والله ماهو إلا أن ضرب محمد على أبى جهل بابه فخرج إليه ، فقال له محمد : أعط هذا حقه . فقال أبو جهل لا تبرح حتى أعطيه حقه . . فاعطاه له .

ثم جاء أبو جهل فقالوا له : ويلك . . مارأينا مثل ماصنعت .

قال أبو جهل : ويحكم ، ماهو إلا أن ضرب على بابى وسمعت صوته فملئت رعبا ، ثم خرجت إليه وإن وراءه فحلا من الأبل مارأيت مثله قط لو أبيت أو تأخرت لأكلنى[100]

● ومن صور استهزائهم مارواه البيهقى فى دلائل النبوة قال :
عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله ـ عز وجل ـ

﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾[101]

قال : المستهزئون هم الوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد يغوث الزهرى ، والأسود بن المطلب أبو زمعة ، والعاص بن وائل . وغيرهم
فكان من استهزاء الأسود بن عبد يغوث قوله لأصحابه ـ اذا رأى المسلمين ـ : قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى وقيصر ،

---

(١٠٠) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٥٠٦
(١٠١) الحجر ٩٥

ويقول للنبي ـ صلى الله عليه وسلم : ـ أما جاءك اليوم شيء من السماء يامحمد ؟ يقول ذلك سخرية واستهزاء . .

وكان من استهزاء الأسود بن المطلب أنه كان يتغامز هو وأصحابه بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكلم يوما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكلام شق عليه فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ربه أن يقيه شر هذا الرجل . فوقاه الله شره . وأصيب الأسود بالعمى ، وأصبح عاجزا عن أن يسخر أو يستهزىء . .

وكان من استهزاء العاص بن وائل مايرويه الشيخان وابن إسحاق عن خباب بن الأرت قال : كنت قينا ـ حدادا ـ فى الجاهلية ، فعملت للعاص بن وائل سيوفا فجئته اتقاضاه فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت : لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث .

قال : وإنى لميت ثم مبعوث ؟

قلت : بلى .

قال : دعنى حتى أموت وأبعث فنؤتى مالا وولدا ، فأعطيك هنالك حقك ، ووالله لا تكون أنت وصاحبك ياخباب آثر عند الله منى ، ولا أعظم حظا . فأنزل الله تعالى فيه :

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾(١٠٢)

(١٠٢) مريم ٧٧ : ٨٠

وقد أضاف بعض الرواة الى هؤلاء المستهزئين غيرهم من أمثال . . مالك بن الطلاطلة ، والحكم بن أبي العاص بن أمية ، وأبو لهب .

ذكر ابن الاثير فى ترجمة الحارث بن الغامدى قال :

قال الحارث : قلت لأبي : ماهذه الجماعة ؟ ـ وكان قد رأى جماعة تجتمع على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تؤذيه وتنال منه .

قال : هؤلاء قوم اجتمعوا على صابىء لهم .

قال الحارث : فأشرفنا فاذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو الناس إلى عبادة الله والايمان به وهم يؤذونه ، حتى ارتفع النهار ، وانتبذ عنه الناس ، فأقبلت امرأة تحمل قدحا ومنديلا ، تبكى ، فتناول الرسول القدح ، فشرب ، ثم توضأ ، ثم رفع رأسه اليها ، فقال : يابنية لا تخافى على أبيك غلبة ولا ذلا .

فقلت : من هذه؟ فقالوا : هذه ابنته زينب(١٠٣)

* كان الإيذاء متعدد الوجوه ، فمنه الايذاء بالكلم ، وهو على الرجل الحيى أقسى من وقع السهام . . فحين دعا قومه لينذرهم حين نزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾

قال له أبو لهب ـ وهو أقرب الناس إليه ـ لأنه عمه ـ : تبا لك ألهذا دعوتنا ؟ فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾ (١٠٤)

---

(١٠٣) أسد الغابة جـ ١ ص ٣٨٥

(١٠٤) المسد ١

لم تكن كلمة أبي لهب هينة ، ولكنها قاسية عنيفة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا ردها القرآن الكريم على أبي لهب ووسمه بها أبد الدهر . . .

وكان أبو لهب مولعا بتكذيب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كل مكان . . . أخرج ابن إسحاق عن ربيعة بن عباد الدئلى ، وروى ذلك أيضا ابن الأثير فى ترجمته عنه قال ربيعة :

رأيت أبا لهب بعكاظ وهو يتبع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقول : يأأيها الناس إن هذا قد غوى فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يفر منه وهو على أثره ، ونحن نتبعه ونحن غلمان . قلت : من هذا ؟ قالوا : محمد بن عبد الله . قلت : من هذا الذى يرميه ؟ قالوا : عمه أبو لهب[١٠٥]

وفى رواية ابن إسحاق : إنى لغلام شاب مع أبي بمنى ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول : يابنى فلان : إنى رسول الله اليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تؤمنوا بى ، وتصدقوا بما جئت به وتسمعوا منى حتى أبين عن الله مابعثنى به .

قال : وخلفه رجل أحول له غديرتان عليه حلة عدنية .

فإذا فرغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قوله ومادعا إليه ، قال ذلك الرجل : يابنى فلان إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولاتسمعوا عنه . .[١٠٦]

---

(١٠٥) أسد الغابة جـ ٢ ص ٢١٤

(١٠٦) الرسول لسعيد حوا ص ١٠٦

لم يكن تكذيب أبي لهب ومهاجته للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمرا هينا ، بل كان أمرا صعبا على نفسه عائقا له عن أداء رسالته ، فإذا كان أقرب الناس يهاجمه بهذه القسوة ، ويتبعه مكذبا له فى كل مكان فكيف يستجيب له الغريب ؟ لقد صدق طرفة حين قال :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

* وربما تعدى الايذاء القول الى الفعل . .

فعن أبي شيبة عن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ قال : مارأيت قريشا أرادوا قتل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا يوما ائتمروا به وهم جلوس فى ظل الكعبة ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى عند المقام ، فقام إليه عقبة بن أبي معيط ، فجعل رداءه فى عنقه ، ثم جذبه حتى وجب[١٠٧] لركبتيه ساقطا ، وتصايح الناس فظنوا أنه مقتول فأقبل أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يشتد حتى أخذ بضبعى[١٠٨] رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ورائه ، وهو يقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله »

ثم انصرفوا عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصلى ، فلما قضى صلاته مر بهم ـ وهم جلوس فى ظل الكعبة ـ فقال : يامعشر قريش ، أما والذى نفسى بيده ماأرسلت إليكم إلا بالحق الذى هو من عند الله فمن آمن بى سلم ونال حسن الثواب . ومن كفر عوقب بأشد العقاب . .

وأخرج البيهقى عن عبد الله بن جعفر ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما مات أبو طالب عرض لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سفيه من سفهاء

---

(١٠٧) وجب : سقط

(١٠٨) ضبعه : عضده

قريش فألقى عليه ترابا فرجع الى بيته ، فأتت احدى بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكي ، فجعل يقول : أى بنية لا تبكين فإن الله مانع أباك .

وأخرج البزار والطبرانى عن عبد الله بن مسعود ، قال : بينما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المسجد وأبو جهل بن هشام وشيبة وعتبة ابنا ربيعة وعقبة بن أبي معيط وأمية بن خلف ورجلان آخران كانوا سبعة ، وهم فى الحجر ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى ، فلما سجد أطال السجود .

فقال أبو جهل : أيكم يأتى جزور بنى فلان فيأتينا بفرثها فنضعه على محمد ، فانطلق أشقاهم عقبة بن أبي معيط فأتى به ، فألقاه على كتفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ساجد .

قال ابن مسعود : وأنا قائم لا أستطيع أن أتكلم ليس عندى منعة تمنعنى ، فأنا ذاهب إذ سمعت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فأقبلت . فألقت الروث عن عاتق أبيها . .

ومن ألوان الايذاء . ماقاله المشركون حين رأوا أولاد الرسول صلى الله عليه وسلم ـ الذكور يموتون . . فقالوا عنه إنه أبتر . . ذكر القرطبى فى تفسيره قول الله تعالى . . « إن شانئك هو الأبتر » قال : إن العاص بن وائل وقف يوما مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكلمه ، ثم قال له فى جمع من صناديد قريش : إنك أبتر ـ أى لا ولد لك ، وكان ذلك حين توفى عبد الله ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله جل شأنه هذه الآية . .

وذكر الواحدى . أنهم كانوا يسمون من ليس له ابن أبتر . . وقال راويا عن ابن إسحاق . قال : حدثنى يزيد بن رومان قال : كان العاص بن وائل

السهمى . إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال : دعوة فإنما هو رجل أبتر لا عقب له ، لو هلك انقطع ذكره ، واسترحتم منه ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾[109]

وقال عطاء عن ابن عباس : كان العاص بن وائل . يمر بالنبى صلى الله عليه وسلم ـ ويقول له : إنك الأبتر من الرجال . . فأنزل الله سورة الكوثر وفيها يقول الحق سبحانه وتعالى لنبيه : إن الله قد أعطاك يامحمد خير الدنيا والآخرة فلست أبترا ، وإن شانئك هو الأبتر من خير الدنيا والآخرة . .

وقد انتقم الله تعالى من هؤلاء المستهزئين شر انتقام . فقد روى البيهقى قال : جاء جبريل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبره أن الله قد كفاه المستهزئين .

فأما الوليد فمر برجل من خزاعة يريش نبلا له ، فأصاب أبجله[110] فقطعها . وأما الأسود بن المطلب فعمى . وقيل : نزل تحت سمرة ، فجعل يقول يابنى ألا تمنعون عنى قد قتلت ؟ فجعلوا يقولون له : مانرى شيئا . فيقول : قد هلكت ها هو ذا أطعن بالشوك فى عيينى . فيقولون : مانرى شيئا . فلم يزل كذلك حتى عمى .

وأما الأسود بن عبد يغوث فخرج فى رأسه قروح فمات منها

وأما الحارث بن عنطلة فأخذه الماء الأصفر فى بطنه حتى خرج من فيه

---

(١٠٩) سورة الكوثر

(١١٠) الأبجل : عرق فى باطن الذراع ، وقيل : عرق غليظ فى الرجل

فمات وأما العاص بن وائل فدخل فى رأسه شبرقة ـ شوكة ـ فمات منها
وأما مالك بن الطلاطلة فعصر جبريل بطنه حتى مات

وأما الحكم بن العاص بن أمية ـ وكان ممن يؤذى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويشتمه ويتلصص عليه ، فدعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه فلُبِط[111] مغشيا عليه شهرا ثم أفاق . وبه علة لا تفارقه حتى مات

وأما أبو لهب ، وقد كان يضع الأقذار فى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ كما روت عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ : كنت بين شر جارين ، بين أبى لهب وعقبة بن أبى معيط ، إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابى .

قالت : وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : يابنى عبد مناف أى جوار هذا ؟ ثم يميطه عن بابه .

ومات أبو لهب بداء يعرف بالعدسة ، كانت العرب تتشاءم به ، وتفر ممن ظهر به . فلما أصاب أبا لهب تركه أهله ، حتى مات ومكث مدة لايدفن ، حتى خافوا فحفروا له حفرة فرموه فيها[112]

مزاعمهم فى الملائكة

ومازال هؤلاء القوم يسخرون من كل ماأتى به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويستهزئون به وبأصحابه ـ وينكرون أقواله ـ حتى بلغ بهم الأمر أن زعموا أن الملائكة بنات الله . وهذا ماتشير اليه الآية الكريمة

---

(١١١) لبط : صرع وسقط على الأرض
(١١٢) دلائل النبوة للبيهقى جـ٢ ص ٣١٦

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (١١٣)

قال القرطبى : نزلت هذه الآية فى خزاعة وكنانة ، فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله .

وهم فى ذلك مخطئون عدة مرات فقد أخطأوا فى شركهم بالله ، وأخطأوا فى ادعائهم أن لله ولدا ـ سبحانه ـ وأخطأوا فى وصف الملائكة بأنهم إناث مع أن الله وصفهم بأنهم

﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ (١١٤)

وللملائكة حديث خاص نسوقه فيما يأتى :

---

(١١٣) النحل ٥٧

(١١٤) الأنبياء ٢٦ : ٢٨

عالم الملائكة

- الملائكة في القرآن الكريم .
- فضل الملائكة .
- الحكمة من خلق الملائكة .
- أنواع الملائكة .
- الروح الأمين .
- عداء اليهود لجبريل .
- ملك الموت .
- ما ورد في منكر ونكير .

جاء فى لسان العرب : الملك ـ بفتح اللام ـ واحد الملائكة . والعلاقة بين الملك والرسالة ، أن الملائكة رسل الله إلى خلقه ، وهم سفراؤه إلى أنبيائه ورسله . والعرب يقولون : أَلِكْنى أى أرسلنى (١١٥)

وقال القزوينى : زعموا أن الملك جوهر بسيط ذو حياة ونظر وعقل (١١٦) والملائكة أجسام نورانية . فحكمة الله اقتضت أن يخلق الملائكة من نور والجن من نار ، والإنس من طين ـ وهم جواهر مقدسة عن طلب الشهوة وكدورة الغضب لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وقال الحافظ ابن حجر : الملائكة أجسام لطيفة أعطيت القدرة على التشكل بأشكال مختلفة ، ومسكنها السموات . . . وأبطل قول من قال إن مسكنهم الكواكب ، أو الأنفس الخيرة التى فارقت أجسادها ، وغير ذلك من الأقوال التى لا يوجد فى الأدلة السمعية شىء منها .

قال : وقد جاء فى صفة الملائكة وكثرتهم أحاديث : منها ما أخرجه مسلم عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ مرفوعا « خلقت الملائكة من نور » ومنها ما أخرجه الترمذى وابن ماجة والبزار من حديث أبى ذر مرفوعا : « خلقت الملائكة من نور » ومنها ما أخرجه الترمذى وابن ماجة والبزار من حديث أبى ذر مرفوعا : « أطت السماء وحق لها أن تئط ، مافيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك ساجد » ومنها ما أخرجه الطبرانى من حديث جابر مرفوعا : ماقى

---

(١١٥) راجع لسان العرب مادة « ألك » . و« ملك »

(١١٦) عجائب المخلوقات ص ٥٦

السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد .

وذكر سعيد بن المسيب قال : الملائكة ليسوا ذكورا ولا إناثا ولا يأكلون ولا يشربون ولا يتزاوجون ولا يتوالدون . وفى قصة الملائكة مع إبراهيم وزوجه سارة حين قرب إليهم العجل فلم يأكلو ما يؤيد أنهم لا يأكلون ولا يشربون (١١٧)

الملائكة فى القرآن

ورد ذكر الملائكة فى القرآن الكريم فى ثلاثة وسبعين موضعا ، كما ورد مفردها وهو لفظ « ملك » فى ثلاثة عشر موضعا . وورد المثنى منه فى موضعين فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ ﴾ (١١٨)

وفى قوله ـ تعالى ـ حكاية عن قول إبليس ـ لعنه الله ـ مخاطبا آدم وحواء :

﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (١١٩)

---

(١١٧) فتح البارى لابن حجر جـ ٦ ص ٣٥٣ باب بدء الخلق
(١١٨) البقرة ١٠٣
(١١٩) الأعراف ٢٠

ومن المواضع التى ورد فيها لفظ الملائكة بالجمع قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١٢٠)

ومن المواضع التى ورد فيها لفظ « ملك » مفردا قوله ـ تعالى :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (١٢١)

متى خلقت الملائكة ؟

لعل هذه الآية الكريمة

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

تجيب على هذا السؤال . فإن مضمونها يفيد أن الله أخبر ملائكته بإرادته خلق آدم ، ومعنى ذلك أن الملائكة خلقوا قبل آدم .

وقد قال الملائكة متعجبين : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » ؟

فأجابهم الحق بقوله :

﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

ومضمون هذه المحاورة يفيد أسبقية الملائكة وأنهم شاهدوا أنواعا من

---

(١٢٠) البقرة ٣٠

(١٢١) الأنعام ٨ : ٩

الخلق على الأرض قد أفسدوا ، فظنوا أن آدم وذريته سوف يكونون كذلك .

جاء فى تفسير القرطبى : ان الملائكة قدرأت وعلمت ماكان من إفساد الجن وسفكهم الدماء ، وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورءوس الجبال ، وقد دخله الغرور من ذلك الوقت . . . . . . ومن هنا جاء قول الملائكة : « أتجعل فيها » على جهة الاستفهام المحض من الحق سبحانه وتعالى . هل هذا الخلق الجديد على طريقة من تقدم من الجن أو لا ؟(١٢٢)

فضل الملائكة

وهذه الآية الكريمة تشير إلى فضل الملائكة ، وأن الله خلقهم للتقديس والتسبيح وأنه لا تقع منهم الخطيئة . وقد وصفهم الله فى القرآن بصفات كثيرة تبين فضلهم ، وفيهم يقول الحق ـ سبحانه تعالى ـ :

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴾(١٢٣)

وفيهم يقول :

﴿ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾(١٢٤)

---

(١٢٢) تفسير القرطبى جـ١ ص ٢٧٤ ط دار الكتب
(١٢٣) الأنبياء ١٩ : ٢٠
(١٢٤) الأنبياء ٢٦ : ٢٨

قال القرطبي : وقد اختلف العلماء أيهما أفضل الملائكة أم بنو آدم ؟

فذهب قوم إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة ، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة .

وذهب آخرون إلى أن الملأ الأعلى أفضل . وقد احتج من فضل الملائكة بأنهم « عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » وبأنهم

﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (١٢٥)

وبأن الله قال في حقهم :

﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (١٢٦)

وأشار إلى فضلهم أيضا في قوله لرسوله - صلى الله عليه وسلم -

﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ (١٢٧)

وجاء في صحيح البخاري : يقول الله - عز وجل :

« من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه »

أما الذين فضلوا المؤمنين الصالحين من البشر على الملائكة فقد احتجوا بقوله - تعالى - :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ ﴾ (١٢٨)

---

(١٢٥) التحريم ٦
(١٢٦) النساء ١٧٢
(١٢٧) الأنعام ٥٠
(١٢٨) البينة ٧

- بالهمز من برأ الله الخلق - وبقوله - صلى الله عليه وسلم - « إن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم »[129]

وبما جاء فى أحاديث من أن الله - تعالى - يباهى بأهل عرفات الملائكة ..... ومن المعلوم أنه لا يباهى الا بالأفضل .

والحقيقة أنه لا طريق إلى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة ، ولا القطع بأن الملائكة خير منهم ، لأن سبيل ذلك خبر الله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - وإجماع الأمة ، وليس هناك شيء من ذلك مقطوع به ..

وأما من قال بأن الأنبياء أفضل لأن الله - تعالى - أمر الملائكة بالسجود لآدم فيجاب عن ذلك بأنهم سجدوا تنفيذا لأمر الله تعالى واستجابة لطلبه سبحانه ..

ولا خلاف أن السجود لا يكون إلا لله - تعالى - ، لأن السجود عبادة والعبادة لا تكون إلا لله .

وكان الأمر للملائكة بالسجود لآدم معناه : اسجدوا لى مستقبلين وجه آدم ، وهو كقوله - تعالى -

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾[130]

أى عند دلوك الشمس ، وكقوله :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[131]

---

(١٢٩) أخرجه أبو داود

(١٣٠) الاسراء ٧٨

(١٣١) الحجر ٢٩

أى فقعوا لى عند إتمام خلقه ومواجهتكم إياه ساجدين .

وربما ثار سؤال هنا : إذا لم يكن آدم أفضل من الملائكة فلماذا أمروا بالسجود له ؟

والإجابة عن ذلك تظهر فى أن الملائكة لما ذكروا تسبيحهم بحمد الله وتقديسهم له ، وكأنهم بذلك قد استصغروا شأن آدم ولم يعرفوا خصائص الصنع فيه أمروا بالسجود له تكريما .

وقد فهم بعض العلماء من معنى السجود لأدم تكريمه والإقرار بفضله لأن الله اختاره خليفة فى الأرض وعلمه الأسماء كلها . .(١٣٢)

أما الأصل الذى خلقت منه الملائكة فهو النور قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم »(١٣٣)

أى من طين .

وقال عكرمة :

« خلقت الملائكة من نور العزة »

الحكمة من خلق الملائكة :

خلق الله السموات وعمرها بالملائكة ـ قال بعض الحكماء : إن لم يكن فى

---

(١٣٢) راجع فى ذلك تفسير القرطبى جـ١ ص ٢٨٩
(١٣٣) أخرجه مسلم فى باب الزهد ، وأحمد فى مسنده ٦ / ١٦٨

فضاء الأفلاك وسعة السموات خلائق فكيف يليق بحكمة البارى - جلت قدرته - تركها فارغة مع شرف جوهرها ؟

فإنه لم يترك مقر البحار المالحة المظلمة فارغا حتى خلق فيه أجناس الحيوانات وغيرها ، ولم يترك جو الهواء الرقيق حتى خلق له أنواع الطير ، ولم يترك البرارى اليابسة والآجام والجبال حتى خلق فيها أجناس الهوام والحشرات .

ثم إن الله - سبحانه - خلق الملائكة لتسبيحه وتقديسه وعبادته ، وجعل منهم حفظة لخلقه ، وخزنة لنعمه ، وسفرة بينه وبين أنبيائه ، ووكل إليهم من الأمور التى لا يمكن أن يقوم بها إلا هم ، لما أعطاهم الله من خصائص ومزايا . .

وإلى بعض هذه الحكم الجليلة يشير الحق - سبحانه - فى قوله : -

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ ﴾ (١٣٤)

وفى قوله :

﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (١٣٥)

---

(١٣٤) الرعد ١١ : ١٣
(١٣٥) الأنعام ٦١

وفى قوله :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (١٣٦)

وقوله

﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (١٣٧)

جاء فى كتب التفسير عند قوله ـ تعالى ـ « له معقبات » أن لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ، إذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار . وهؤلاء هم الحفظة الذين يحفظون الإنسان مما يضره .

قال القرطبى : جاء رجل من ـ مراد ـ إلى على بن أبى طالب فقال : احترس فإن ناسا من مراد يريدون قتلك . فقال على : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه فإذا جاء القدر خليا بينه وبين قدر الله ، وإن الأجل حصن حصينة .

قصة فى مناسبة آية البرق :

وفى تفسير قوله ـ تعالى ـ

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ (١٣٨)

---

(١٣٦) ق ١٦ : ١٨

(١٣٧) ق ٢١

(١٣٨) الرعد ١٢ : ١٣

ذكرت هذه القصة ـ نسوقها للذكرى والعظة . . . .

كان رجل من طواغيت العرب ، بعث إليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفرا يدعونه إلى الإسلام ، فقال لهم : أخبرونى عن رب محمد ماهو؟ ومم هو؟ أمن فضة أم من حديد أم من نحاس ؟

فاستعظم القوم مقالته . فقال : أأجيب محمدا إلى رب لا يعرفه ؟ .

فبعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه مرارا وهو يقول مثل هذا . فبينما النفر ينازعونه ويدعونه إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رءوسهم ، فرعدت وأبرقت ورمت بصاعقة . فأحرقت الكافر وهم جلوس .

فرجعوا إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستقبلهم بعض أصحابه ، فقالوا : احترق صاحبكم ؟

فقالوا : من أين علمتم ؟

قالوا : أوحى الله إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله . . »

وهناك قصة أخرى حول هذه الآية :

أقبل عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة العامريان يريدان النبى ـ صلى الله على وسلم ـ وهو فى المسجد جالس فى نفر من أصحابه ، فدخلا المسجد ، فاستشرف الناس لجمال عامر ـ وكان أعور ـ وكان من أجمل الناس .

فقال رجل من أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هذا يارسول الله عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك .

فقال : دعه فإن يرد الله به خيرا يهده .

فأقبل حتى وصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يامحمد مالى إن أسلمت ؟

قال : لك ماللمسلمين وعليك ماعلى المسلمين .

قال : أتجعل لى الأمر من بعدك ؟

قال : ليس ذاك إلىّ ، إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء .

قال : أفتجعلنى على الوبر وأنت على المدر ؟[١٣٩]

قال : لا .

قال : فما تجعل لى ؟

قال : أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها فى سبيل الله .

قال : أو ليس لى أعنة الخيل اليوم ؟ قم معى أكلمك . فقام معه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان عامر قد أومأ إلى أربد : إذا رأيتنى أكلمه فَدُر من خلفه واضربه بالسيف .

فجعل عامر يخاصم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويراجعه . فأخرج أربد من سيفه شبرا ثم حبسه الله ـ تعالى ـ فلم يقدر على سله ويبست يده على سيفه ، وأرسل الله عليه صاعقة فى يوم صاف صاح فأحرقته .

وولى عامر هاربا . وقال : يامحمد دعوت ربك على أربد حتى قتله ، والله لأملأنها عليك خيلا جردا وفرسانا مردا .

فقال ـ عليه السلام ـ يمنعك الله من ذلك وأبناء قَيْلة ـ يعنى الأوس والخزرج .

فنزل عامر بيت امرأة سلولية ، وأصبح وهو يقول : والله لئن

---

(١٣٩) الوبر : البادية ، المدر : الحضر

أصحر[١٤٠] لى محمد وصاحبه ـ يريد ملك الموت ـ لأنفذتها برمحى .

فأرسل الله ملكا فلطمه بجناحه فأوقعه على التراب ، وخرجت على ركبته غدّة عظيمة فى الوقت .

فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول : غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية . ثم ركب فرسه فمات على ظهره .

والشاهد فى هذه القصة أن الملائكة من جند الله يسلطهم الله على من يشاء من عباده ، ويقتص بهم ممن يشاء . وهذه بعض الحكمة من خلقهم .

استطراد لطيف

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فلا بأس من الإفادة من توجيهات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند رؤية الصواعق والرعود فقد ورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الصاعقة لا تأكل ذاكراً لله ـ عز وجل ـ

وذكر أبو هريرة قال : كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا سمع صوت الرعد يقول :

« سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير »

وروى عبدالله بن عباس قال : كنا مع عمر فى سفر فأصابنا رعد وبرد ، فقال لنا كعب : من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته . ثلاثا ـ عوفى مما يكون فى ذلك الرعد ، ففعلنا فعوفينا ـ ثم لقيت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فإذا بردة . قد أصابت

---

(١٤٠) أصحر الرجل : إذا خرج إلى الصحراء

أنفه فأثرت فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين ما هذا ؟ قال : بردة أصابت أنفى فأثرت . فقلت : إن كعبا حين سمع الرعد قال لنا : من قال حين يسمع الرعد سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ـ ثلاثا ـ عوفى مما يكون فى ذلك الرعد فقلنا فعوفينا . . فقال عمر أفلا قلتم لنا حتى نقولها ؟ .

ما قيل فى عدد الملائكة :

ومن المجازفة تحديد عدد الملائكة ، فالله ـ جلا وعلا ـ يقول :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (١٤١)

والحديث الشريف يقول : « أطت السماء وحق لها أن تئط مافيها قدر شبر إلا وفيه ملك راكع أو ساجد »

وقد ورد فى حديث الإسراء أن البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه بعد ذلك .

وفى معنى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

قال القرطبى : أى ما يدرى عدد ملائكة ربك الذين خلقهم لتعذيب أهل النار إلا هو . وهذا جواب لأبى جهل حين قال : أما لرب محمد من الجنود إلا تسعة عشر ؟ وذلك حين نزل قوله تعالى فى شأن جهنم

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١٤٢)

---

(١٤١) المدثر ٣١

(١٤٢) المدثر ٣٠

وعن ابن عباس أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم كان يقسم غنائم حنين ، فأتاه جبريل فجلس عنده ، فأتى ملك فقال : إن ربك يأمرك بكذا وكذا . فخشى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يكون شيطانا ـ فقال : يا جبريل ، أتعرفه ؟

فقال : هو ملك وما كل ملائكة ربك أعرف .

وقال الأوزاعى : قال موسى : يارب من فى السماء ؟

قال : ملائكتى .

قال : كم عدتهم يارب ؟

قال : اثنى عشر سبطا .

قال : كم عدة كل سبط ؟

قال : عدد التراب . .

وقد قيل : ما من ذرة من ذرات العالم إلا وقد وكل بها ملك أو ملائكة ، وما من قطرة إلا ومعها ملك ينزل بها من السحاب ويدعها فى المكان الذى قدر الله ـ تعالى ـ

« هذا حال الذرات والقطرات ، فما ظنك بالأفلاك والكواكب والهواء والغيوم والرياح والأمطار والجبال والقفار والبحار والعيون والأنهار والمعادن والنبات والحيوان ؟ »(١٤٣)

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن الوحى الإلهى له ملائكة ينزلون به ، وملائكة يشيعون بعض الآيات والسور التى كانت تنزل ، حتى قيل إن

---

(١٤٣) عجائب المخلوقات ص ٥٦

بعض الآيات كان يشيعها سبعون ألف ملك وبعضها يشيعها أربعون ألف ملك . . .

إن عددهم يفوق الحصر حقا وإنهم ليقفون صفوفا مسبحين الحق - سبحانه وتعالى - كما أخبروا عن أنفسهم فى قوله - تعالى

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

وفى تفسيرها ورد عن ابن عباس قوله : مافى السموات موضع شبر إلا وعليه ملك يصلى ويسبح ، وقالت عائشة - رضى الله عنها - : قال النبى صلى الله عليه وسلم - مافى السماء موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم .

حول أصناف الملائكة

وقد ورد فى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والأخبار الصحيحة - ما يفيد وجود أصناف من الملائكة ، لكل صنف منهم دور معلوم ومقام معلوم فمن هذه الأصناف :

حملة العرش

وفى حق حملة العرش يقول الله - تعالى -

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (١٤٥)

---

(١٤٤) الصافات ١٦٥ : ١٦٦

(١٤٥) الحاقة ١٧

واختلف العلماء حول تفسير العدد . فقال ابن عباس : ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله .

وقال ابن زيد : هم ثمانية أملاك .

وأورد القرطبى قول النبى - صلى الله عليه وسلم - :

« إن حملة العرش اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله تعالى بأربعة آخرين فكانوا ثمانية »[١٤٦]

وقال تعالى

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾

فقوله « يومئذ » أى يوم القيامة .

وقال العباس بن عبدالملك : هم ثمانية أملاك . وفى الحديث : « إن لكل ملك منهم أربعة أوجه ، وجه رجل ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر ، وكل وجه منها يسأل الله الرزق لذلك الجنس .

وقال القزوينى[١٤٧] : حملة العرش هم أعز الملائكة وأكرمهم على الله تعالى - تتقرب إليهم سائر الملائكة ويسلمون عليهم بالغدو والرواح لمكانتهم عند الله تعالى ، وهم يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا . .

وهذا ما تشير إليه تلك الآيات الكريمة

---

(١٤٦) أورده القرطبى عن الثعلبى وأخرجه الماوردى عن أبى هريرة رضى الله عنه
(١٤٧) عجائب المخلوقات ص ٥٦

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ (١٤٨)

وحملة العرش يتلذذون بتسبيح الله تعالى وهم الذين قال الله فى حقهم :

﴿ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۚ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (١٤٩)

وقد ورد عن النبى - صلى الله عليه وسلم أنه قال - فيما أخرجه أبو داود - : « أذن لى أن أحدث عن ملك من حملة العرش رجلاه فى الأرض السفلى وعلى قرنه العرش ، وبين شحمة أذنه وعاتقة خفقان الطير سبعمائة سنة ، يقول ذلك الملك : سبحانك حيث كنت »

وروى الامام أحمد عن العباس بن عبد المطلب قال : كنا جلوسا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالبطحاء فمرت سحابة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - : « أتدرون ما هذا ؟ »

قال : قلنا السحاب . قال : « والمزن » قلنا : والمزن . قال : « والعنان »

---

(١٤٨) غافر ٧ : ٩
(١٤٩) الزمر ٧٥

قال : فسكتنا . فقال : « هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ »
قال : قلنا : الله ورسوله أعلم .

قال : « بينهما مسيرة خمسمائة ، سنة ، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، والله فوق ذلك وليس يخفى عليه من أعمال بنى آدم شيء »[150]

ومعنى « فوقهم » فى قوله تعالى :

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾

أى فوق رءوسهم . قال السدى :

العرش تحمله الملائكة فوق رءوسهم ـ وقدرة الله تحمل هؤلاء الحملة

الروح الأمين

قال ـ تعالى :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾[151]

قيل هو جبريل ـ عليه السلام ـ لأنه هو الذى كان ينزل بالقرآن على قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويرى القزوينى : أن الروح الأمين ليس هو جبريل ، وإنما هو ملك يقوم صفا والملائكة كلهم صفا لكرامته عند الله ـ

---

(١٥٠) عالم الملائكة ص ٥٠ وأخرجه أحمد فى مسنده ١ / ٢٠٦ وغيره
(١٥١) الشعراء ١٩٣ : ١٩٤

تعالى وعظمته ، وإنما سمى روحا ـ لأن كل نفس من أنفاسه يصير روحا لحيوان ، وقد وكله الله تعالى بإدارة الأفلاك وحركات الكواكب ، وبما تحت فلك القمر من العناصر والمعادن والنبات والحيوان ، وهو أكبر من الفلك وأقوى منه وأعظم وأشرف ، وأعلى من الجسمانيات ، وهو قادر على تسكين الأفلاك ، كما هو قادر على تحريكها(١٥٢)

لقد نظر القزوينى فى فهمه هذا إلى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ ﴾(١٥٣)

وقد أشار القرطبى فى تفسيره إلى أقوال : العلماء فى المقصود بالروح فى هذه الآية . وذكر فى ذلك كثيرا من الأقوال : ـ

● أحدهما أنه ملك من الملائكة ـ قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : ما خلق الله مخلوقا بعد العرش أعظم منه . فإذا كان يوم القيامة قام هو وحده صفا وقامت الملائكة كلهم صفا ، فيكون عظم خلقه مثل صفوفهم ـ وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قول يشبهه ـ فقد قال : الروح ملك أعظم من السموات السبع ومن الأرضين السبع ومن الجبال . .

يجىء يوم القيامة وحده صفا وسائر الملائكة صفا .

● ثانيها : أنه جبريل ـ عليه السلام ـ وجاء هذا الوصف واضحا له فى الآية التى ذكرناها آنفا :

---

(١٥٢) عجائب المخلوقات ص ٥٧

(١٥٣) النبأ ٣٨ : ٣٩

« نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين »

روى : أنه عن يمين العرش نهر من نور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبع . يدخل جبريل كل يوم سحرا فيغتسل فيه فيزداد نورا على نور وجمالا على جمال وعظما على عظمه . .

● ثالثا : روى عن ابن عباس أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : الروح فى هذه الآية :

أى قوله تعالى

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ ﴾

جند من جنود الله ـ تعالى ـ ليسوا من الملائكة ، لهم رءوس وأرجل يأكلون الطعام . فهم خلق على صورة بنى آدم كالناس وليسوا بالناس

● رابعها : أنهم أشراف الملائكة .

● خامسها : أنهم حفظة على الملائكة

● سادسها : المقصود بالروح أرواح بنى آدم تقوم صفا فتقوم الملائكة صفا ، وذلك بين النفختين ، قبل أن ترد الأرواح إلى الأجساد .

عظماء الملائكة :

ذكر العلماء أن عظماء الملائكة أربعة وهم : جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وهو « ملك الموت »

وقد جاء اسم جبريل وميكائيل فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ـ

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ (١٥٤)

قال تعالى :

وقد وصف جبريل فى القرآن بعدة صفات ، فهو الروح الأمين ، وهو الروح القدس ، وهو شديد القوى وهو ذو مرة ، وهو مطاع ، وهو أمين ، وهذه بعض الآيات التى وردت فيها صفاته : ـ

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (١٥٥)

وقال تعالى :

﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ (١٥٦)

وقال تعالى :

﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ (١٥٧)

وقال تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ (١٥٨)

---

(١٥٤) البقرة ٩٧ : ٩٨

(١٥٥) الشعراء ١٩٣ : ١٩٤

(١٥٦) البقرة ٨٧ : ٢٥٣

(١٥٧) النجم ٥ ، ٦

(١٥٨) التكوير ١٩ : ٢١

وقد وصف جبريل ـ عليه السلام ـ بالقوة ، لأن الله أيده بها ، وقد بلغ من شدة قوته أنه استطاع أن يرفع على جناحه مدائن قوم لوط حتى بلغ بها عنان السماء ، وحتى سمعت الملائكة صياح الديكة ونباح الكلاب ، ثم قلبها بمن فيها وما فيها فجعل عاليها سافلها .

عداء اليهود لجبريل

صرح القرآن الكريم بعداوة اليهود لجبريل ، وقد بدءوا هم بالعداوة بشقاوتهم التى كتبها الله عليهم ـ وقد سبقت الاشارة فى حديثنا عن الروح أن اليهود قالوا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : من أخبرك بهذا القول أى فى شأن الروح ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : جبريل . فقالوا : هذا عدونا .

قال ابن جرير الطبرى : أجمع أهل العلم بالتأويل أن قوله ـ تعالى ـ ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾

نزل جوابا لليهود من بنى إسرائيل ، حين زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل ولىٌّ لهم »

ثم اختلفوا فى السبب الذى من أجله قالوا ذلك .

● فقال بعضهم : إنما كان السبب من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أمر نبوته ـ

وذكر ابن كثير هذه المناظرة فقال :

حضرت عصابة من اليهود إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : يا أبا القاسم ، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لايعلمهن إلا نبى . فقال

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : سلوا عما شئتم ، ولكن اجعلوا لى ـ عهد الله وما أخذ يعقوب على بنيه ، لئن أنا حدثتكم شيئا فعرفتموه أن تبايعونى على الاسلام .

فقالوا : ذلك لك .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : سلونى عما شئتم .

فقالوا : أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة .

وأخبرنا بهذا النبى الأمى فى النوم . ووليه من الملائكة

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم أن تتبعونى فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق .

فقال : ناشدتكم بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن اسرائيل (يعقوب) مرض مرضا شديدا فطال سقمه منه ، فنذر لله نذرا لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه ، وكان ذلك لحوم الابل وألبانها .

فقالوا : اللهم نعم . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اللهم اشهد عليهم .

قال : ناشدتكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن هذا النبى الأمى تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟

قالوا : اللهم نعم .

قال : اللهم اشهد

قالوا : أنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة ؟ فعندها نكون معك أو نفارقك .

قال : فإن وليي جبريل ، ولم يبعث الله نبيا قط الا وجبريل وليه .

قالوا : فعندها نفارقك ، لو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك .

قال : فما منعكم أن تصدقوه ؟

قالوا : إنه عدونا . فأنزل الله عز وجل الآية :

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾(١٥٩)

وقال بعضهم : بل كان قول اليهود ذلك من أجل مناظرة جرت بين عمر بن الخطاب وبينهم فى أمر النبى - صلى الله عليه وسلم -

وأورد ابن كثير روايات فى ذلك منها عن الشعبى قال : نزل عمر الروحاء ، فرأى رجالا يبتدرون أحجارا يصلون إليها . فقال : ما هؤلاء ؟

قالوا : يزعمون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صلى ههنا .

قال : فكره ذلك ، وقال : إنما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أدركته الصلاة فصلاها ثم ارتحل ، فتركه - ثم أنشأ يحدثهم فقال : كنت أشهد اليهود يوم مدراسهم - كنيستهم - فأعجب من التوراة كيف تصدق الفرقان ، ومن الفرقان كيف يصدق التوراة . فبينما أنا عندهم ذات يوم ، فقالوا : يابن الخطاب ، ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك .

قلت : ولم ذلك ؟

---

(١٥٩) رواه الإمام أحمد فى مسنده من عدة طرق ورواه الترمذى والنسائى وغيرهما .

قالوا : إنك تغشانا وتأتينا .

قلت : إنى آتيكم فأعجب من الفرقان كيف يصدق التوراة ، ومن التوراة كيف تصدق الفرقان . .

قال : ومر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : يابن الخطاب ، ذاك صاحبكم فالحق به .

قال : فقلت لهم عند ذلك : نشدتكم بالله الذى لا إله إلا هو وبما استرعاكم من حقه واستودعكم من كتابه ، أتعلمون أنه رسول الله ؟

قال : فسكتوا . فقال عالمهم وكبيرهم : إنه قد استحلفكم بالله فأجيبوه .

فقالوا : أنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت .

قال : أما إذ نشدتنا بما نشدتنا به فإنا نعلم أنه رسول الله .

قال : قلت : ويحكم فأنى هلكتم ؟

قالوا : إنا لم نهلك .

قلت : كيف ذاك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدقونه ؟

قالوا : إن لنا عدوا من الملائكة وسلما من الملائكة ، وإنه قرن بنبوته عدونا من الملائكة .

قال : قلت : ومن عدوكم ؟ ومن سلمكم ؟

قالوا : عدونا جبريل ، وسلمنا ميكائيل .

قال : قلت : وفيم عاديتم جبريل ؟ وفيم سالمتم ميكائيل ؟

قالوا : إن جبريل ملك الفظاظة والغلظة والاعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا وإنما ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفيف ونحو هذا .

قال : قلت : وما منزلتهما من ربهما - عز وجل - ؟

قالوا : أحدهما عن يمينه والأخر عن يساره .

قال : قلت : فوالذى لا إله إلا هو إنهما والذى بينهما لعدو لمن عاداهما وسلم لمن سالمهما ، ما ينبغى لجبريل أن يسالم عدو ميكائيل ، وما ينبغى لميكائيل أن يسالم عدو جبريل .

قال : ثم قمت فاتبعت النبى - صلى الله عليه وسلم - فلحقته وهو خارج من خوخة لبنى فلان . أى طريق ضيق بين بناءين - فقال : يابن الخطاب ، الا أقرأ عليك آيات نزلن قبل ؟ فقرأ علىَّ :

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾

قال : قلت : بأبى وأمى يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك . فأسمعُ اللطيف الخبير قد سبقنى إليك بالخبر[١٦٠]

رؤية النبى جبريل على صفته

وقد رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - جبريل على صفته التى خلقه الله عليها ، فقد روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله - صلى

---

(١٦٠) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٨٨ ط دار الشعب

الله عليه وسلم ـ رأى جبريل له ستمائة جناح .

وقد سبقت الاشارة إلى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ طلب من جبريل أن يراه على صورته الحقيقية ، فرآه فغشى عليه .

وحين فتر الوحى واهتم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رآه بين السماء والأرض . قال فيما يرويه البخارى ـ : فبينما أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى قِبل السماء فإذا الملك الذى قد جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فرعبت منه حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهلى فقلت : دثرونى دثرونى . فأنزل الله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾

وقيل إن بعض أصحابه صلى الله عليه وسلم رآه على حقيقته . ذكر ابن سعد فى ترجمة حمزة بن عبد المطلب أن حمزة سأل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يريه جبريل فى صورته ـ فقال :

إنك لاتستطيع أن تراه .

قال : بلى

قال : فاقعد مكانك

قال : فنزل جبريل على خشبة فى الكعبة كان المشركون يضعون ثيابهم عليها إذا طافوا بالبيت . فقال : ارفع طرفك فانظر ، فنظر فإذا قدماه مثل الزبرجد الأخضر فخر مغشيا عليه(١٦١)

وقد وصف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جبريل لورقة بن نوفل حين سأله عنه .

---

(١٦١) الطبقات الكبرى جـ٣ قسم ١ ص ٦

فقد قال ورقة : يا محمد أخبرني عن هذا الذي يأتيك ـ يعني جبريل عليه السلام ـ فقال : يأتيني من السماء جناحاه من لؤلؤ وباطن قدميه أخضر[162] .

ولكن هذا الوصف في صورة مبسطة . وإلا فصورته الحقيقة تسد الأفق .

ولذلك كان يأتي جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم ـ في غير الصورة الحقيقية التي خلقه الله عليها ، وكان كثيرا ما يأتي في صورة دحية بن خليفة الكلبي . وقد سبق الحديث في ذلك .

وصف إسرافيل

وإسرافيل ـ عليه السلام ـ هو مبلغ الأوامر ونافخ ، الأرواح في الأجساد . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وأصغى بالأذن حتى يؤمر فينفخ ؟

والقرن هو الصور الذي ينفخ فيه إسرافيل ، وإليه الاشارة في قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[163]

قال القزويني : وهو ـ أي إسرافيل ـ شاخص ببصره نحو العرش ينظر

---

(١٦٢) أسد الغابة جـ ٥ ص ٤٤٧

(١٦٣) الزمر ٦٨

متى يؤمر فينفخ ، فإذا نفخ صعق من فى السموات والأرض إلا من شاء الله .

قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : قلت لكعب الأحبار ـ رضى الله عنه ـ : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « يا رب جبريل وميكائيل وإسرافيل » أما جبريل وميكائيل فسمعت بهما فى القرآن ، وأما إسرافيل فأخبرنى عنه .

فقال كعب : إنه ملك عظيم الشأن له أربعة أجنحة ، أحدها يسد به المشرق والآخر يسد به المغرب ، والثالث ينزل به من السماء إلى الأرض ، والرابع التثم به من عظمة الله ـ تعالى ـ قدماه فى الأرض السابعة ، ورأسه ينتهى إلى أركان قوائم العرش . .

فسبحان الخالق البارىء المصور(١٦٤)

وقد مر بنا أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لجبريل : إنى أحب أن أراك على صورتك التى صورك الله فيها . .

فقال : إنك لاتطيق ذلك .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أرنى . فواعده جبريل ـ عليه السلام ـ بالبقيع فى ليلة مقمرة ، فأتاه فنظر إليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا هو قد سد الأفق فوقع مغشيا عليه . فلما أفاق ، عاد جبريل ـ عليه السلام ـ إلى

---

(١٦٤) عجائب المخلوقات ص ٥٧

صورته التي يأتيه عليها فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ما ظننت أن أحدا من خلق الله ـ تعالى ـ هكذا .

فقال له جبريل : كيف لو رأيت إسرافيل وان العرش لعلى كاهله وان رجليه قد مرقتا تحت تخوم الأرض السفلى وإنه ليتصاغر من عظمة الله ـ تعالى ـ حتى يصير كالوصع(١٦٥) ـ الوصع العصفور الصغير ـ

روى الطبرانى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : بينما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه جبريل إذ انشق أفق السماء فأقبل إسرافيل يدنو من الأرض فإذا ملك قد مثل أمام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا محمد إن الله يأمرك أن تختار بين نبى عبد أو ملك نبى ؟

فأشار جبريل إلىَّ بيده أن تواضع ، فعرفت أنه لى ناصح . فقلت : عبد نبى

فعرج ذلك الملك إلى السماء ، فقلت : يا جبريل قد كنت أردت أن أسألك عن هذا فرأيت من حالك ما شغلنى عن المسألة . فمن هذا يا جبريل ؟

قال : هذا إسرافيل ـ عليه السلام ـ خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافا قدميه لايرفع طرفه ، بينه وبين الرب سبعون نورا ، ما منها من نور يكاد يدنو منه إلا احترق . . . . بين يديه لوح ، فإذا أذن الله فى شىء من السماء أو فى الأرض ارتفع ذلك اللوح فضرب جبهته فينظر ، فإن كان من عملى

---

(١٦٥) حياة الحيوان للدميرى جـ٢ ص ٦٩٩

أمرنى به ، وإن كان من عمل ميكائيل أمره به ، وان كان من عمل ملك الموت أمره به .

قلت : يا جبريل ، وعلى أى شيء أنت ؟

قال : على الريح والجنود

قلت : وعلى أى شيء ميكائيل ؟

قال : على النبات والقطر .

قلت : وعلى أى شيء ملك الموت ؟

قال : على قبض النفس ، وما ظننت أن إسرافيل نزل إلا لقيام الساعة ، وما الذى رأيت منى إلا خوفا من قيام الساعة . .(١٦٦)

ميكائيل :

أما ميكائيل ـ عليه السلام ـ فهو موكل بالأرزاق للأجساد والحكمة والمعرفة للنفوس .

ذكر القزوينى عن كعب الأحبار قال : فى السماء السابعة البحر المسجور ، وعليه من الملائكة ما شاء الله ، وميكائيل قائم على البحر المسجور ، لايعرف وصفه وعدد أجنحته إلا الله ـ تعالى ـ ولو أنه أشرف على أهل السموات والأرض لاحترقوا من نوره ، وله أعوان موكلون على جميع العالم من شأنهم إحداث قوة النهوض فى الأركان والكائنات وغيرها من الأمور التى بها الوصول إلى الغايات وبلوغ الكمال فى الكائنات بأمر من الله ـ عز وجل (١٦٧) .

---

(١٦٦) عالم الملائكة ص ٣٦

(١٦٧) عجائب المخلوقات ص ٥٨

روى الأمام أحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لجبريل : ما لي لم أر ميكائيل ضاحكا قط ؟

فقال : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار[168]

عزرائيل

وهو ملك الموت ، الذى يفرق الأرواح من الأجساد .

قال كعب الأحبار : عزرائيل في سماء الدنيا ورجلاه في تخوم الأرضين ورأسه في السماء العليا ، ووجهه مقابل للوح المحفوظ ، وله أعوان يعينونه على أداء مهمته ، وإلى ذلك يشير الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[169]

وبقوله :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾[170]

ذكروا أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ سأل ملك الموت فقال له : ماذا تصنع إذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ، ووقع الوباء بأرض ، والتقى الزحفان بأخرى ؟

---

(١٦٨) مسند أحمد ٢ / ٢٣١ وأخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان
(١٦٩) الأنعام ٦١
(١٧٠) النساء ٩٧

فقال : أدعو الأرواح بإذن الله - تعالى - فتكون بين اصبعى هاتين .

سليمان يتمنى رؤية ملك الموت

وروى القزوينى عن وهب بن منبه أن سليمان بن داود - عليهما السلام - تمنى أن يرى ملك الموت ليتخذه صديقاً ، فلم يشعر سليمان حتى أتاه كأنه خرج من تحت سريره . فقال له سليمان : من أنت ؟

فقال : ملك الموت .

فصعق سليمان - عليه السلام - فلما رأى ملك الموت ذلك قال : اللهم إن عبدك سليمان تمنانى ونزل به ما ترى ، اللهم إنى أسألك أن تقويه على رؤيتى . فأوحى الله - تعالى - أن ضع يدك على صدره ..

ففعل ذلك فأفاق سليمان - عليه السلام - وقال : يا ملك الموت إنى أراك عظيم الخلق . أوَ كُلُّ الملائكة مثلك ؟

فقال : والذى بعثك بالحق نبياً إن منهم لمن هو أعظم من ذلك ، ومن يستطيع أن يطبق على ما بين السماء والأرض - بإذن الله . .

فقال له سليمان - عليه السلام -: لقد وصفت أمراً عظيماً .

فقال له : كيف لو رأيتنى على صورتى التى أقبض فيها أرواح الكفار ؟

فصار ملك الموت صديقاً لسليمان يزوره كل خميس ويقعد معه إلى أن تزول الشمس . فقال له سليمان - عليه السلام - يوماً : ما لى أراك لا تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا ؟

فقال عزرائيل : ليس المسئول بأعلم من السائل . إنما هى كُتُب فيها

أسماء المقبوضين تلقى إلىّ ليلة الصك ـ يعنى ليلة النصف من شعبان ـ إلى مثلها من السنة القابلة .

فأما أهل التوحيد فأقبض أرواحهم بيمينى فى حريرة بيضاء مغموسة فى المسك وترفع إلى عليين ، وأما أهل الكفر فأقبض أرواحهم بشمالى فى سربال من قطران وتنزل إلى سجين ، وأمرهم إلى عالم الغيب والشهادة فينبئهم بما كانوا يعملون .

ومن القصص التى تحتوى على عبرة ما يرويه القزوينى أيضاً عن الأعمش عن خيثمة قال :

دخل ملك الموت على سليمان ـ عليهما السلام ـ فجعل ينظر إلى أحد جلسائه ويديم النظر إليه . فلما خرج ملك الموت قال الرجل : يا نبى الله من كان هذا ؟

قال : انه ملك الموت .

قال : رأيته ينظر إلىّ كأنه يريدنى ، أريد أن تخلصنى منه بأن تأمر الريح لتحملنى إلى أقصى بلاد الهند .

فأمر سليمان الريح بذلك ففعلت . فلما عاد ملك الموت إلى سليمان ـ عليه السلام ـ قال له : رأيتك تديم النظر إلى بعض جلسائى .

قال : كنت أعجب منه لأنى أمرت أن أقبض روحه بأقصى بلاد الهند فى ساعة قريبة ورأيته عندك .

وقال وهب : قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ، فقالت الملائكة لملك الموت : لمن كنت أشد رحمة ممن قبضت أرواحهم ؟

فقال : أمرت بقبض روح امرأة فى فلاة من الأرض ، فأتيتها وقد ولدت مولوداً فرحمتها لغربتها ورحمت ولدها لصغره وكونه فى فلاة لا أحد بها .

فقالت الملائكة : الجبار الذى قبضت الآن روحه هو ذلك المولود .

فقال ملك الموت : سبحان اللطيف بعباده .

قال العلماء : واسم ملك الموت عزرائيل ومعناه بالعربية عبد الجبار ، ويحكى أن تكليفه بهذه المهمة الشاقة كان لأنه لم يرحم الأرض حين عاذت بالله منه حين جاء ليقبض منها قبضة .

وقصة ذلك كما حكاها ابن مسعود فى قصة خلق آدم : بعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تأخذ منى شيئاً ، فرجع ولم يأخذ وقال : يارب قد عاذت بك فأعذتها ، فبعث ميكائيل فعاذت بالله منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل ، فبعث الله ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره . فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد . فقال الله تعالى له :

« أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك وعاذت بى » ؟

فقال : رأيت أمرك أوجب من قولها . . . فوكل إليه الحق سبحانه وتعالى ـ قبض أرواح ولد آدم(١٧١) .

النبى يخبر عن مهمة ملك الموت

روى الامام أحمد عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى جنازة رجل من الأنصار ، فأنتهينا إلى القبر ولمّا يلحد ،

---

(١٧١) تفسير القرطبى جـ١ ص ٢٨٠

فجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير ، وفى يده عود ينكت به فى الأرض ، فرفع رأسه فقال : « استعيذوا بالله من عذاب القبر » مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال : « ان العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء ، بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وخيوط من خيوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مد البصر ، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة ، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان .

قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها ، فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : فلان ابن فلان ـ بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه ـ فيستفتحون له فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها ، حتى ينتهى إلى السماء السابعة ، فيقول الله :

« اكتبوا كتاب عبدى فى عليين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى »

قال : فتعاد روحه إلى جسده ، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟

فيقول : ربى الله .

فيقولان له : ما دينك ؟

فيقول : ديني الاسلام .

فيقولان : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟

فيقول : هو رسول الله .

فيقولان له : وما علمك ؟

فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت .

فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدى ، فافرشوا له من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة . قال : فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول :

أبشر بالذى يسرك ، هذا يومك الذى كنت توعد .

فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يأتى بالخير .

فيقول : أنا عملك الصالح .

فيقول : رب أقم الساعة حتى آتى إلى أهلى وأحبابى .

قال ـ أى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « وان العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء غلاظ شداد معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب .

قال : فتفرق فى جسده فينتزعها بقوة وشدة ، فيأخذها . . فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن

ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟

فيقولون :

فلان ابن فلان ، بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا ، حتى ينتهى به الى السماء الدنيا فيستفتح له . فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ (١٧٢)

فيقول الله - عز وجل - :

« اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى »

فتطرح روحه طرحاً . ثم قرأ :

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (١٧٣)

فتعاد روحه فى جسده . ويأتيه ملكان ، فيجلسانه ، فيقولون له : من ربك ؟

فيقول : لا أدرى .

فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟

فيقول : لا أدرى .

---

(١٧٢) الأعراف ٤٠

(١٧٣) الحج ٣١

فينادى مناد من السماء : أن كذب ، فافرشوا له من النار ، وافتحوا له باباً الى النار ـ فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب ، منتن الريح . فيقول : أبشر بالذى يسوؤك ، هذا يومك الذى كنت توعد .

فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يجىء بالشر .

فيقول : أنا عملك الخبيث .

فيقول : رب لا تقم الساعة(١٧٤)

النبى يوصى ملك الموت بأصحابه

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رءوفاً بأصحابه ، فكان إذا عاين محتضراً منهم يوصى به ملك الموت خيراً ، وكان ملك الموت يستجيب له . . أخرج الطبرانى فى الكبير قال :

روى ابن أبى حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : نظر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يا ملك الموت ارفق بصاحبى فإنه مؤمن »

فقال ملك الموت :

يا محمد ، طب نفساً وقر عيناً فإنى بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما فى الأرض بيت مدر ولا شعر فى بر ولا بحر إلا وأنا أتفحصهم فى كل يوم خمس مرات ، حتى انى أعْرَف بصغيرهم وكبيرهم من أنفسهم ، والله يا محمد لو

---

(١٧٤) مسند الإمام أحمد ٤ / ٢٨٧

أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها(١٧٥)

بين موسى وملك الموت ـ عليهما السلام

أخرج البخارى فى كتاب بدء الخلق فى خبر مسند الى أبى هريرة رضى الله عنه ـ قال : أرسل ملك الموت إلى موسى ـ عليهما السلام ـ فلما جاءه صكَّه . فرجع إلى ربه فقال : أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت . قال : ارجع إليه ، فقل له : يضع يده على متن ثور ، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة .

قال موسى : أى رب ، ثم ماذا ؟

قال : ثم الموت .

قال : إذن فالآن .

قال : فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية حجر .

قال أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ : فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم :

« لو كنت ثمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر »(١٧٦)

الملائكة الكروبيون

وهم الملائكة العاكفون فى حظيرة القدس لا التفات لهم إلى غير الله

---

(١٧٥) عالم الملائكة ص ٣٩ وورود هذا الخبر فى أسد الغابة جـ ٢ ص ١٣٢ فى ترجمة خزرج أبى الحارث

(١٧٦) وأخرجه البخارى أيضاً فى كتاب الجنائز ومسلم فى باب فضائل موسى وفى كتاب الأحاديث القدسية جـ ٢ ص ١٨ برقم ٣٠٨

تعالى ، لاستغراقهم بجمال حضرة الربوبية ـ يسبحون الليل والنهار لا يفترقون . جاء في الخبر : أن لله تعالى أرضاً بيضاء مسيرة الشمس فيها ثلاثون يوماً محشوة خلقاً من خلق الله ، لا يعلمون أن الله تعالى يُعْصَى طرفة عين . قالوا : يا رسول الله : أمن ولد آدم هم ؟

قال : لا يعلمون أن الله ـ تعالى ـ خلق آدم .

قيل : يا رسول الله ، أنّ غفل عنهم إبليس ؟

قال : لا يعلمون أن الله ـ تعالى ـ خلق إبليس ، ثم تلا قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾[١٧٧]

ذكر هذا الخبر القزويني في عجائب المخلوقات[١٧٨] .

وقد فهم بعض العلماء من قوله ـ تعالى لإبليس ـ

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝٧٥ ﴾[١٧٩]

أن العالين هم الكروبيون . وهم أعلى الملائكة وذكر ابن منظور في لسان العرب قال : الملائكة الكروبيون هم أقرب الملائكة إلى حملة العرش . واسمهم مشتق من العلو والارتفاع . نسبة إلى كَرَب النخل وهو أصول السعف .

ملائكة السموات السبع

قال القزويني ناقلاً عن كعب الأحبار : هم ملائكة مداومون على التسبيح

---

(١٧٧) النحل ٨

(١٧٨) عجائب المخلوقات ص ٥٩

(١٧٩) ص ٧٥

والتهليل فى القيام والقعود ، والركوع والسجود ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون حتى تقوم الساعة ، فإذا قامت الساعة يقولون : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك .

وروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن للملائكة صوراً مختلفة ولكل جنس منهم ملك موكل عليهم ، فمنهم من هم على صورة العُقاب والموكل عليهم اسمه « ميخائيل » ، ومنهم من هم على صورة النسر ، والموكل عليهم اسمه « صاعديائيل » ومنهم من هم على صورة الخيل والموكل عليهم اسمه « صلصائيل » ومنهم من هم على صورة الحور العين والموكل عليهم اسمه « كلكائيل » ومنهم من هم على صورة الآدميين ، والموكل عليهم اسمه « روفائيل »

ولكل طائفة من هؤلاء سماء يقيمون فيها .

ويلاحظ أن نهاية كل اسم من أسماء الملائكة ياءولام . فذلك نسبة الى الله ـ جل وعلا ـ لان « إيل » اسم الله .

جاء فى تفسير ابن كثير عن ابن عباس : إنما قوله جبريل كقوله عبد الله وعبد الرحمن وقيل : جبر : عبد ، وإيل : الله . وقال محمد بن اسحاق عن الزهرى عن على بن الحسين : أتدرون ما اسم جبرائيل من أسمائكم ؟

قلنا : لا . قال : اسمه عبد الله .

قال : فتدرون ما اسم ميكائيل من أسمائكم ؟

قلنا : لا . قال : اسمه عبيد الله . وكل اسم مرجعه إلى « إيل » فهو الى الله(١٨٠) .

---

(١٨٠) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٩٠

قال وهب : وفوق السموات السبع حجب فيها ملائكة لا يعرف بعضهم بعضاً لكثرتهم يسبحون الله ـ تعالى ـ بلغات مختلفة كالرعد القاصف .(١٨١)

الحفظـــــة :

قال ـ تعالى ـ

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾(١٨٢)

وقال ـ تعالى ـ

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾(١٨٣)

وقال ـ تعالى ـ

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ ﴾(١٨٤)

فهذه الايات الكريمة تشير الى الملائكة الحفظة الذين وكل الله إليهم حفظ خلقه .

إنهم ملائكة يحفظون أعمال العباد ويحفظونهم من الآفات .

قال القرطبي : لكل انسان ملكان بالليل وملكان بالنهار ، يكتب أحدهما الخير والآخر الشر ، وإذا مشى الانسان يكون أحدهما بين يديه والآخر وراءه ، وإذا جلس يكون أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله لقوله تعالى :

﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾(١٨٥) .

---

(١٨١) عجائب المخلوقات ص ٦٠

(١٨٢) الأعراف ٦١

(١٨٣) الانفطار ١٠ : ١١

(١٨٤) الرعد ١١

(١٨٥) ق ١٧

وقيل : إن لكل انسان خمسة من الملائكة : اثنان بالليل ، واثنان بالنهار ، والخامس لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً ، وقال عمر بن الخطاب :

ومن الناس من يعيش شقيا   جاهل القلب غافل اليقظة
فإذا كان ذا وفاء ورأى   حذر الموت واتقى الحفظة
إنما الناس راحل ومقيم   فالذى بان للمقيم عظة[١٨٦]

وفى تفسير قوله ـ تعالى ـ :

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾

قال كعب فيما يرويه القرطبى : « لولا أن الله وكل بكم ملائكة يذبون عنكم فى مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن ـ وخصهم بأن قال « من أمر الله » لأنهم غير معاينين ، أى ليس ممن تشاهدونه أنتم . وفى الكلام تقديم وتأخير نبه إليه بعض النحويين والبلغاء ، فقالوا : التقدير « له معقبات من أمر الله يحفظونه »[١٨٦] .

دخل عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله ، أخبرنى عن العبد كم معه من ملك ؟

قال : « ملك عن اليمين يكتب الحسنات ، وآخر عن الشمال يكتب السيئات والذى على اليمين أمير على الذى على الشمال . فإذا عمل العبد حسنة كتبت عشراً ، وإذا عمل سيئة قال الذى على الشمال للذى على اليمين : أأكتب ؟ قال : لا لعله يستغفر الله تعالى ويتوب ـ فإذا قال ثلاثاً .

قال : نعم ، اكتب أراحنا الله منه ، فبئس العبد هو ، ما أقل مراقبته لله

---

(١٨٦) تفسير القرطبى سورة الأنعام ص ٢٤٤٢ ط دار الشعبب ـ معنى ـ بان ـ رحل

عز وجل ـ وما أقل استحياءه منا . . ويوضح هذا قوله : ـ تعالى ـ :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ⑱ ﴾[187]

وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول ـ تعالى ـ

« له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله »

وملك قابض على ناصيتك فإذا تواضعت لله رفعك وإذا تجبرت على الله قصمك .

وملكان على شفتيك وليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد ﷺ وآله . وملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية فى فيك وملكان على عينيك .

فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى يتداولون ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، لأن ملائكة الليل ليسوا ملائكة النهار . فهؤلاء عشرون ملكاً على كل آدمى ، وإبليس مع ابن آدم بالنهار وولده بالليل »[188]

وقال بعضهم : المعقبات أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر .

قال القزوينى : وللكفار أيضاً حفظة ، لأن آية الحفظة نزلت فى شأن الكفار وهى قوله ـ تعالى ـ

﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ⑨ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⑫ ﴾[189]

وفى الخبر : ان الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فإذا

---

(١٨٧) ق ١٨

(١٨٨) تفسير القرطبى ـ سورة الرعد ـ ص ٣٥٢٢ ط دار الشعب وقال : ذكره الثعلبى

(١٨٩) الانفطار ٩ : ١٢

تاب أو استغفر لم يكتبه عليه وإلا كتبه . . وفى رواية أخرى : فإذا كتبه عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمين عليه : ألق هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشرة ، وأرفع تسع حسنات ، فيفعل صاحب الشمال .

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إن الله وكل بعبده ملكين يكتبان عليه ، فإذا مات قالا : يارب ، قبضت عبدك فلاناً ، فإلى أين نذهب ؟ قال الله ـ تعالى ـ : سمائى مملوءة من ملائكتى يعبدوننى ، وأرضى مملوءة من خلقى يطيعوننى ، اذهبا إلى قبر عبدى فسبّحانى وكبرانى وهللانى واكتبا ذلك فى حسنات عبدى الى يوم القيامة(١٩٠) .

وجاء فى تفسير قوله ـ تعالى ـ

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

ما روى عن أبى هريرة وأنس ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « ما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا فيرى الله فى أول الصحيفة خيراً وفى آخرها خيراً إلا قال الله ـ تعالى ـ لملائكته : اشهدوا أنى قد غفرت لعبدى ما بين طرفى الصحيفة » ومن أجل هذا أورد القرطبى نصيحة لعلى بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ قال فيها : « إن لله ملائكة معهم صحف بيض فأملوا فى أولها وفى آخرها خيراً يغفر لكم ما بين ذلك » . .

---

(١٩٠) عجائب المخلوقات ص ٦٠

إن مهمة هؤلاء الحافظين دقيقة ، وإنهم ليتناولون فى كتابتهم كل صغيرة وكبيرة حتى الهم بالحسنة ، ولا يفارقون صاحبهم إلا عند الحدث أو الجماع .

سئل سفيان : كيف تعلم الملائكة أن العبد قد هم بحسنة أو سيئة ؟

قال : إذا هم العبد بحسنة وجدوا منه ريح المسك ، وإذا هم بسيئة وجدوا منه ريح النتن .

إن الانسان يواجه يوم القيامة بصحيفة أعماله كاملة غير منقوصة . لقد سجلها كاتباه بدقة وأمانة . يشهد لذلك قوله تعالى

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (١٩١)

ويرى القزوينى أن المعقبات غير الحفظة ، ويقول : إنهم الملائكة الذين ينزلون بالبركات ويصعدون بأرواح بنى آدم وأعمالهم بالليل والنهار ، فإذا واظب الانسان على الصلوات فى أول أوقاتها ، فصلى الفجر ، وأتاه ملائكة النهار فوجدوه مصلياً ، وفارقه ملائكة الليل وتركوه مصلياً ، وهكذا إذا صلى المغرب ، وما بين الصلاتين من الذنوب تكفرها الصلاة ، وإذا كان كذلك فلا يرفعون له غير الحسنات .

ومن الآثار الواردة التى تؤكد ذلك ما جاء فى الحديث القدسى : يقول الله ـ تعالى ـ : ابن آدم ، ما أنصفتنى ، أتحبب إليك بالنِّعم وتبتعد

---

(١٩١) الكهف ٤٩

أنت بالمعاصي ، خيرى إليك نازل وشرك الى صاعد ، ولايزال ملك كريم يأتيني عنك فى كل يوم وليلة بعمل قبيح ، ياابن آدم لو سمعت وصفك من غيرك وأنت لا تعلم من الموصوف لأسرعت إلى مقته[١٩٢] »

ما ورد فى منكر ونكير

ومنكر ونكير هما ملكا الحساب فى القبر ، ويتميزان بالغلظة والشدة ، وقد وردت الاشارة إليهما فى الحديث الذى رواه الامام أحمد عن البراء بن عازب ـ رضى الله عنه ـ

ويؤيده ما رواه البخارى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه ، فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل ـ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ؟

فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له : انظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله ـ تعالى ـ به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً »

قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له فى قبره أربعون ذراعاً .

وقال مسلم : سبعون ذراعاً ، ويملأ عليه خضرا الى يوم يبعثون .

وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟

فيقول : لا أدرى ، كنت أقول ما يقول الناس .

فيقال : لا دريت ولا تليت ، ويضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين .

---

(١٩٢) عجائب المخلوقات ص ٦٠

وفى وصف الملكين أورد القرطبى فى كتابه التذكرة عن أبى حامد الغزالى قوله : قد روى عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : يا رسول الله ما أول ما يلقى الميت إذا دخل قبره ؟

قال :ياابن مسعود ، ما سألنى عنه أحد إلا أنت . فأول ما يناديه ملك اسمه رومان يجوس خلال المقابر فيقول : يا عبد الله اكتب عملك . فيقول : ليس معى دواة ولا قرطاس ـ

فيقول : هيهات كفنك قرطاسك ومدادك ريقك وقلمك إصبعك .

فيقطع له قطعة من كفنه ، ثم يجعل العبد يكتب وإن كان غير كاتب فى الدنيا ، فيذكر حينئذ حسناته وسيئاته كيوم واحد ، ثم يطوى الملك القطعة ويعلقها فى عنقه . ثم تلا قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ (١٩٣)

فإذا فرغ من ذلك دخل عليه فتّانا القبر ، وهما ملكان شديدان ، يخرقان الأرض بأنيابهما ، لهما شعور مسدولة يجرانها على الأرض كلامهما كالرعد القاصف ، وأعينهما كالبرق الخاطف ، ونَفَسُهُما كالريح العاصف ، بيد كل منهما مقمع من حديد ، لو ضرب به أعظم جبل لجعله دكاً ، فإذا أبصرتهما النفس ارتعدت وولت هاربة فتدخل فى منخر الميت فيحيا الميت من الصدر ويكون كهيأته عند الغرغرة ، ولا يقدر على حراك غير أن يسمع وينظر ، فيقعدانه فيبتدثانه بعنف وينهرانه بجفاء فيقولان له :

---

(١٩٣) الاسراء ١٣

من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ وما قبلتك ؟

فمن وفقه الله وثبته بالقول الثابت قال :

ومن وكلكما عليَّ ؟ ومن أرسلكما إليَّ ؟

وهذا لا يقوله إلا العلماء الأخيار .

فيقول أحدهما للآخر : صدق ، كُفِى شرنا ، ثم يضربان عليه القبر كالقبة العظيمة ، ويفتحان له باباً الى الجنة من تلقاء يمينه ثم يفرشان له من حريرها وريحانها ، ويدخل عليه من نسيمها وروحها ، ويأتيه عمله فى صورة أحب الأشخاص إليه . . ودونه فى المنزلة المؤمن العامل الخير ليس له حظ من العلم ، يلج عليه عمله فى أحسن صورة ، طيب الريح حسن الثياب ، فيقول له : أما تعرفنى ؟

فيقول : من أنت الذى منَّ الله علىَّ بك فى غربتى ؟

فيقول : أنا عملك الصالح ، فلا تحزن ولا توجل . فعما قليل يلج عليك منكر ونكير يسألانك فلا تدهش . ثم يلقنه حجته . .

ومن الناس من يحجم فى مسألته ، فإن كانت عقيدته مختلفة امتنع أن يقول : الله ربى ، وأخذ غيرها من الألفاظ ، فيضربانه ضربة يشتعل منها قبره ناراً ، ثم تطفأ عنه أياماً ، ثم تشتعل عليه . هذا دأبه ما بقيت الدنيا .

ومن الناس من يعتاص عليه ويعسر أن يقول : الاسلام دينى لشك كان يتوهمه أو فتنة تقع به عند الموت ، فيضربانه ضربة واحدة فيشتعل عليه قبره ناراً كالأول . .

وأما الفاجر فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : لا أدرى . فيقولان له : لا دريت ولا عرفت فيضربانه بتلك المقامع [١٩٤] .

---

(١٩٤) التذكرة للقرطبى ص ١٢٧

لقد وردت أحاديث كثيرة بروايات مختلفة فى شأن منكر ونكير ، وهذا يتطلب من المؤمن الاستعداد لهذا الموقف العسير الذى يتعرض فيه الانسان للفتنة . ونحن نرجو أن يجعلنا الله ممن ورد فيهم قوله ـ تعالى ـ :

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (١٩٥)

الملائكة السياحون

أما السياحون فهم صنف من الملائكة يسيحون فى الأرض يتتبعون مجالس الذكر والعلم ، فإذا رأوا مجلساً منها اجتمعوا عليه وجلسوا فيه وسجلوا أسماء أصحابه . . روى أبو سعيد الخدرى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « إن لله تعالى ملائكة يسيحون فى الأرض فضلاً عن كتّاب الناس ، فإذا وجدوا قوماً .
يذكرون الله ـ تعالى ـ ينادون : هلموا إلى بغيتكم ، . فإذا انصرفوا يقول الله تعالى ـ على أى شىء تركتم عبادى يصنعون ؟ فيقولون : تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويقدسونك ، فيقول الله ـ تعالى ـ : وهل رأونى ؟

فيقولون : لا

فيقول : كيف لو رأونى ؟

فيقولون : لو رأوك لكانوا أشد تسبيحا وتحميدا وتمجيدا .

فيقول لهم : من أى شىء يتعوذون ؟

فيقولون : من النار .

فيقول : وهل رأوها ؟

---

(١٩٥) ابراهيم ٢٧

فيقولون : لا

فيقول : كيف لو رأوها ؟

فيقلولون : لو رأوها لكانوا أشد هربا منها وأشد تعوذا .

فيقول : أى شيء يطلبون ؟

فيقولون : الجنة .

فيقول : وهل رأوها ؟

فيقولون : لا

فيقول : كيف لو رأوها ؟

فيقولون : لو رأوها لكانوا أشد طلبا لها .

فيقول الحق سبحانه وتعالى : أشهدكم أنى قد غفرت لهم .

فيقولون : كان فلان لم يشهدهم إنما جاء لحاجة .

فيقول : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم . (١٩٦)

ومن الآثار الواردة فى ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغوننى عن أمتى السلام »

وقوله : إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغوننى الصلاة علىّ من أمتى . فاستغفر لهم .

وقوله : إن لله ملائكة سياحين فى الهواء بأيديهم قراطيس من نور وأقلام من نور لا يكتبون إلا الصلاة علىّ وعلى أهل بيتى . (١٩٧) ومن هؤلاء السياحين الملائكة الذين يكلفهم الله القيام عند أبواب المساجد وفى الطرقات اليها ، وفى المساجد يشهدون المصلين ، وقارئى القرآن . ومقدمى أعمال البر للناس .

---

(١٩٦) البخارى كتاب الدعوات ، والترمذى فى الدعوات ، وعجائب المخلوقات ص ٦١

(١٩٧) أورد الأبشيهى فى المستطرف هذه الآثار فى فضل الصلاة على النبى

ومن الآثار الواردة فى ذلك :

روى البخارى عن أبى هريرة قال . قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول ، ومثل الأول كمثل الذى يهدى بدنة ، ثم كالذى يهدى بقرة ، ثم كبشا . ثم دجاجة ، ثم بيضة ، فإذا صعد الإمام طووا صحفهم وجلسوا يستمعون الذكر »(١٩٨)

والمقصود بالذكر الخطبة .

وروى البخارى أيضا عن رفاعة بن رافع الزرقى قال : « كنا يوما نصلى وراء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما رفع رأسه من الركعة قال : سمع الله لمن حمده . قال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه .

فلما انصرف رسول الله قال : من المتكلم ؟

قال الرجل : أنا .

قال : رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها قبل الآخر(١٩٩)

أما اهتمام الملائكة السياحين بسماع القرآن وحضور مجالسه والاعجاب بحسن الأداء وجمال القراءة فيقدمه لنا هذا الخبر :

بينما أسيد بن حضير ـ رضى الله عنه ـ فى ليلة يقرأ فى مربده إذ جالت فرسه فقرأ ، ثم جالت أخرى ، فقرأ ، ثم جالت أيضا .

فخشى أسيد أن تطأ فرسه ابنه يحيى ، فقام اليها ، فاذا به يرى مثل الظلة فوق رأسه . فيها أمثال السرج عرجت فى الجو حتى غابت عن نظره . .

---

(١٩٨) رواه البخارى فى كتاب الجمعة

(١٩٩) أورده البخارى فى كتاب الأذان ، ومسلم فى المساجد

قال أسيد : فغدوت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت : يارسول الله ، بينما أنا البارحة من جوف الليل اقرأ فى مِرْبدى اذ جالت فرسى .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اقرأ ابن حضير »

قال : فقرأت ، ثم جالت أيضا .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اقرأ ابن حضير »

قال : فقرأت : ثم جالت أيضا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرأ ابن حضير »

قال : فانصرفت ، وكان يحيى قريبا منها ، خشيت أن تطأه ، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج خرجته فى الجو حتى ماأراها

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : تلك الملائكة كانت تستمع لك[٢٠٠] وقد روى أن من الملائكة مَنْ يصوب للقارىء المخطىء خطأه فى التلاوة .

روى السيوطى فى الجامع الصغير والجامع الكبير من حديث أنس مرفوعا عن النبى ـ ﷺ ـ : « إن ملكا موكلاً بالقرآن ، فمن قرأ شيئا منه لم يقومه قومه الملك ورفعه »

وليس من الضرورى أن يسمع القارىء التصويب . فان هدف الملك أن يرفع التلاوة الى الله صحيحة .

ويؤيد هذا الحديث مارواه السيوطى أيضا : « إن ملكا موكلا بالقرآن فمن قرأه من أعجمى أو عربي فلم يقومه قومه الملك ثم رفعه قواما »[٢٠١] إن هذا يعنى أن الله مع المؤمن يضاعف عمله ويزكيه ، ويرفعه اليه كاملا

---

(٢٠٠) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن

(٢٠١) عالم الملائكة ص ٦١

غير منقوص . وهذه رحمة الله الواسعة التى تضاعف الحسنات وتغض النظر عن المفوات .

وقد مر بنا كيف أن الملائكة تستغفر للمؤمنين ، بل إنهم يستغفرون لجميع من فى الأرض رحمة بهم واشفاقا عليهم .

قال تعالى

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾(٢٠٢)

وإذا دعا المؤمن ربه أمنت الملائكة على دعائه ، وقد ورد فى الأثر : إذا أمن الامام فأمنوا فان من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه »(٢٠٣)

مهام الملائكة الأخرى :

بعد هذه الجولة التى عرفنا فيها بعض أصناف الملائكة . وأدركنا بعض المهام الجليلة الموكولة اليهم نشير الى بعض الاختصاصات الأخرى للملائكة :

● فهناك ملائكة مختصون بالجبال يشهد لذلك الحديث التالى :

روى البخارى من حديث عروة أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ حدثته أنها قالت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك مالقيت ، وكان أشد مالقيت منهم يوم

---

(٢٠٢) الشورى ٥

(٢٠٣) أورده البخارى فى كتاب الأذان ، ومسلم فى الصلاة ، وفى عالم الملائكة ص ٦٣

العقبة ، اذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى الى ما أردت . فانطلقت وأنا مهموم ، على وجهى ، فلم استفق الا وأنا بقرن الثعالب . فرفعت رأسى فاذا أنا بسحابة قد ظلتنى فاذا فيها جبريل ، فنادانى :

فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وماردُّوا عليك ، وقد بعث الله اليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم .

فنادانى ملك الجبال ، فسلم علىَّ ، ثم قال : يامحمد ان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين - أى الجبلين - فعلت فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً (٢٠٤)

● ومنهم الموكلون بالريح - يصرفونها على حسب ما يريد الله - عز وجل - وكل شىء عنده بمقدار .

أخرج ابن عساكر عن قبيصة بن ذؤيب قال : « ما يخرج من الريح شىء إلا عليها خُزَّان يعلمون قدرها وسيرها ووزنها وكيلها »

وأخرج الدار قطنى . أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما أنزل الله من السماء كَفاً من ماء إلا بمكيال ، ولا كفاً من ريح إلا بمكيال ولكل من ذلك خزان يصرفونه إلا يوم نوح فإن الماء طغى على الخزان بأمر الله فلم يكن للخزان عليه سلطان » قال الله تعالى :

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾ (٢٠٥)

---

(٢٠٤) البخارى فى بدء الخلق - باب الملائكة - فتح البارى جـ ٦ ص ٣٦٠
(٢٠٥) الحاقة ١١

ويوم عاد ، فإن الريح عتت على الخزان . قال الله تعالى :

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ (٢٠٦)

ومنهم الموكلون بالبحار والسحب والأمطار .

فلا يتم مد أو جزر إلا بإذن ملك البحار ، ولا تنزل قطرة من مطر ولا يساق سحاب إلى جهة من الجهات إلا بواسطة الملك الموكل بذلك - على حسب ما يأمر به الحق سبحانه وتعالى ومن الآثار الواردة فى ذلك .

ما ذكر من أن رجلاً سمع صوتاً ينبعث من سحابة أن أسق حديقة فلان . . قال فتبعتها فإذا هى تصب ماءها فيها . قال : فجئت صاحبها فسألته : فقال : إنه يقسم ريعها أثلاثاً ، ثلثاً يتصدق به ، وثلثاً ينفقه ، وثلثاً يرده عليها .

ولم يكن ذلك الصوت المنبعث من السحابة إلا صوت ملك قيضه الله لذلك . فما من قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقرها فى موضعها من الأرض .

ومنهم الموكلون بالشمس ، يصرفون شئونها ، ويرعونها ويبردونها . وفى هذه الآثار بيان لعمل الملائكة نحوها :

عن أبى أمامة الباهلى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم ولولا ذلك ما أصابت شيئاً إلا أحرقته »

وعن عكرمة : « ما طلعت الشمس حتى يناديها سبعون ألف ملك : اطلعى ، فتقول : كيف أطلع وأنا أُعْبَدُ من دون الله ؟ فيدفعها ملكان حتى تطلع »

---

(٢٠٦) الحاقة ٦ وهذان الحديثان من عالم الملائكة ص ٤٤

وعن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ « إن الشمس إذا طلعت يقف معها ملكان موكلان بها يجريان معها ما جرت[٢٠٧] .

● ويستتبع وجود ملائكة للشمس ضرورة وجود ملائكة للظل .

● كما يوجد ملائكة موكلون بالرعد والبرق وبالنبات والرزق وقد مر بنا أن ميكائيل هو الموكل بأرزاق العباد ، وقد وضع الله فى يده مقاليد النبات والأمطار لأنها سبب الرزق . .

والحق سبحانه ـ وتعالى ـ بيده كل شيء ولكنه سبب أسباباً ووزع أقداراً ، قال تعالى :

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ
(١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ
إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ
لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ
(٢٢) ﴾ (٢٠٨)

إن الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله ، وقد وزع الله بعلمه وحكمته وقدرته عليهم أعمالهم ، فما من ملك منهم إلا وله مهمة يقوم بها . . حتى فى العبادة نفسها . . منهم القائم أبداً ، ومنهم الراكع أبداً ، ومنهم الساجد أبداً . . وصدق الله إذ يقول حاكياً عنهم . .

---

(٢٠٧) هذه الآثار من كتاب عالم الملائكة ص ٤٥ وهى معزوة فيه إلى مصادرها
(٢٠٨) الحجر ١٩ : ٢٢

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ (٢٠٩)

ومنهم من يتولى أمر النعيم ، وزعيمهم فى ذلك رضوان خازن الجنة ومنهم من يتولى أمر العذاب ، وزعيمهم فى ذلك مالك خازن النار .

ملائكة تصلح الانسان

قال القزوينى :

● ومن الملائكة ملائكة موكلون بالكائنات لإصلاحها ودفع الفساد عنها ، وقد وكل بكل فرد من أفرادها من الملائكة ما شاء الله ـ تعالى ـ

روى أبو أمامة رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « وكل الله بالمؤمن ملائكة يذبون عنه مالا يقدر عليه .

من ذلك الموكلون بالبصر يذبون عنه كما يذب الذباب عن قصعة العسل فى اليوم الصائف .

وغير ذلك من الموكلين ببدن بنى آدم . . . فهم مشتغلون بك وأنت فى النوم ، أو تتردد فى الغفلة

« **وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها** »

وهكذا حال جميع الكائنات(٢١٠) ، فسبحان الحكيم القدير العليم الخبير . وكل هذا يقتضى شكر المنعم على نعمته ، وذلك بعبادته حق عبادته .

لا يعصون الله ما أمرهم

---

(٢٠٩) الصافات ١٦٤ : ١٦٦

(٢١٠) انظر عجائب المخلوقات ص ٦٢

جبل الله الملائكة على الطاعة فهم مخلوقون من نور ، وفى ذلك يقول الله تعالى

﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ ﴾ (٢١١)

إن لذتهم فى امتثال أمر الله كما أن سرور أهل الجنة فى الكون فى الجنة .

ومع أن منهم من وكل الله إليهم أمر العذاب ـ كما قال تعالى ـ

« عليها ملائكة غلاظ شداد »

إلا أنهم لا يصيبهم من العذاب شيء . . إن النار التى وكلوا بإشعالها وايقادها وتسليطها على المذنبين والعصاة لا تصيبهم بشيء ، وإنما تكون عليهم برداً وسلاماً . كما أصبحت نار النمروذ على إبراهيم برداً وسلاماً .

إنهم ليست لديهم القدرة على المعصية . فتكوين أجسامهم يأباها . .

وإذا كان تكوين الملائكة يأبى المعصية لأنهم خلقوا لطاعة الله ، فما حقيقة الأمر بالنسبة لهاروت وماروت ؟

إن لهما قصة يتطلب المقام ذكرها هنا . . . فمن هاروت وماروت ؟

هاروت وماروت ملكان يعذبان ببابل . . وقد سبق أن أوردنا قصتهما ولكنا نوجزها هنا للذكرى ، وللمناسبة التى تفرضها . .

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ لما خرج آدم ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الجنة عرياناً نظرت إليه الملائكة وقالت : إلهنا ، هذا آدم بديع فطرتك أَقِلْه ولا تخذله .

فمر بملأ من الملائكة فوبخوه على نقضه عهد ربه ، وكان ممن وبخه هاروت وماروت .

---

(٢١١) التحريم ٦

فابتلاهما الله تعالى حتى عصيا ومُنِعا من الصعود إلى السماء . فلما كان أيام إدريس ـ عليه السلام ـ صارا إليه وذكرا له قصتهما ، ثم قالا له : هل لك أن تدعو لنا حتى يتجاوز عنا ربنا ؟

فقال ادريس ـ عليه السلام ـ : كيف لى العلم بالتجاوز عنكما ؟

قالا : ادع لنا ، فإن رأيتنا فهو الاستجابة ، وإن لم ترنا هلكنا فتوضأ ادريس ـ عليه السلام ـ وصلى ودعا الله ـ تعالى ـ ثم التفت فلم يرهما ، فعلم أن العقوبة حلت بهما . ونقلا الى أرض بابل ، ثم خُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا ، فهما مسلسلان معذبان فى بئر بأرض بابل منكسين الى يوم القيامة .

ووردت رواية أخرى فى ذلك . عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

أشرفت الملائكة على أهل الدنيا فرأوهم يعصون الله فقالوا : ياربنا ما أقل معرفة هؤلاء بعظمتك .

فقال الله ـ تعالى ـ :

لو كنتم فى حالهم لعصيتمونى

قالوا : كيف يكون هذا ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟

فقال : اختاروا مَلَكين ، فاختاروا هاروت وماروت ، ثم أهبطا الى الأرض وركبت فيهما شهوات بنى آدم . وتسلطت عليهما امرأة فاتنة حتى واقعا المعصية ، فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فنظر أحدهما الى صاحبه فقال له :

ما تقول ؟

فقال : أقول : إن عذاب الدنيا ينقطع وعذاب الآخرة لا ينقطع . فاختارا عذاب الدنيا .

فهما اللذان ذكرهما الله ـ تعالى فى قوله ـ ناعيا على اليهود جهلهم وكفرهم وضلالهم ـ :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٢١٢)

وفى رواية أخرى : أن الله قال لهما : انى أرسل رسولاً الى الناس وليس بينى وبينكما رسول ، انزلا ولا تشركا بى شيئاً ولا تقتلا ولا تسرقا .

قال كعب : فما لبثا فترة حتى واقعا المعصية وأتيا ما حرم الله عليهما(٢١٣) .

فالمعصية التى لحقت بهاروت وماروت إذن ، لم تحدث حال كونهما

---

(٢١٢) البقرة ١٠٢

(٢١٣) عجائب المخلوقات ص ٦١

ملكين ، بل بعد أن تحولا إلى رجلين .

وهذا يؤكد عصمة الملائكة وأنها خلقا للطاعة وتنفيذ أوامر الله مصداقاً لقوله - تعالى - :

﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢١٤)

ومن العلماء من يرى أن هاروت وماروت كانا ملكين - بكسر اللام - وهناك قراءة بذلك . وهذه القراءة تذهب عن الملائكة أى شبهة فى المعصية .

معنى أن الملائكة رسل :

وصف الله الملائكة بأنهم رسل فى مواضع متعددة .

قال - تعالى -

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ (٢١٥)

وقال - تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ (٢١٦)

وقال - تعالى -

---

(٢١٤) الأنبياء ٢٦ : ٢٧

(٢١٥) فاطر ١

(٢١٦) الشورى ٥١

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢١٧)

ورسالة الملائكة مقصورة على الأنبياء ، تبلغهم أوامر ربهم ليبلغوها بدورهم الى عباده . . فهم سفرة ـ جمع سفير ـ يترددون بين السماء والأرض يبلغون الأوامر والأحكام .

وقال السدى : انهم رسل الى العباد أيضاً بالرحمة والنقمة .

وقد وصفت الآية الأولى الملائكة بأنهم ذوو أجنحة . وهم يتفاوتون فى عدد الأجنحة . وقد سبقت الاشارة الى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى جبريل وله ستمائة جناح .

جاء ذلك فى صحيح مسلم عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ وفى غيره من كتب السنن . . . وعن الزهرى أن جبريل ـ عليه السلام قال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يا محمد لو رأيت إسرافيل إن له لاثنى عشر ألف جناح ، منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب وإن العرش لعلى كاهله ، وانه فى بعض الأحايين ليتضاءل لعظمة الله حتى يعود مثل الوصع حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته .

وذكر بعض العلماء أن زيادة الأجنحة هى ما يشير اليه قوله ـ تعالى « يزيد فى الخلق ما يشاء »

وقيل الزيادة مقصود بها الحسن فى الخلق وقيل الزيادة فى الملائكة وقيل الزيادة فى الخلق عموماً . .

وتشير الآيات الأخرى الى نزول الملائكة بالقرآن الكريم وغيره من أنواع

---

(٢١٧) عبس ١١ : ١٦

الوحى الأخرى ، التى جاء بها الرسل الى أقوامهم ، يبلغون بها عن ربهم ، كالتوراة والانجيل والزبور وصحف إبراهيم وغيرها .

هل يرى أحد من البشر غير الأنبياء الملائكة ؟

سبق أن ذكرنا أن حمزة بن عبد المطلب طلب من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يريه جبريل عليه السلام ـ فقال له : انك لن تقدر على ذلك .

فلما رآه غشى عليه . .

ولكن هذا الخبر ورد فى أنه طلب أن يراه على حقيقته ، ورؤيا الملك على حقيقته لا يقدر عليها أحد من البشر حتى الأنبياء أنفسهم .

وقد أراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرى جبريل على صورته الحقيقية فتجلى له فى ستمائة جناح سادا الأفق فغشى عليه .

ولكنه كان يأتيه بالوحى فى صورة غير صورته التى خلقه الله عليها . . وكان أحياناً يأتيه فى صورة رجل حسن الهيئة جميل المنظر ، وكان يأتيه أحياناً فى صورة دحية بن خليفة الكلبى .

وقد رأت السيدة عائشة جبريل فى هذه الصورة ، كما رآه غيرها من الصحابة ، وروى ابن الأثير فى ترجمة حارثة بن النعمان هذا الخبر :

قال : روى ابن عباس أن حارثة بن النعمان مر على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه جبريل ـ عليه السلام ـ يناجيه فلم يسلم .

فقال جبريل : ما منعه أن يسلم ؟

فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما منعك أن تسلم حين مررت ؟

قال : رأيت معك انساناً تناجيه فكرهت أن أقطع حديثك .

قال : أو قد رأيته ؟

قال : نعم .

قال : إن ذاك جبريل . . وقال جبريل : أما انه لو سلم لرددت عليه ،

ثم قال : أما إنه لمن الثمانين .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما الثمانون ؟

قال : يفر الناس عنك غير ثمانين يكونون معك ، رزقهم ورزق أولادهم على الله وهم فى الجنة . فأخبر حارثة بذلك(٢١٨)

وقد روى هذا الخبر بطريقة أخرى عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن حارثة بن النعمان قال : مررت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه جبريل ، فسلمت عليه وجزت .

فلما رجعت قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هل رأيت الذى كان معى ؟

قلت : نعم .

قال : فإنه جبريل وقد رد عليك السلام

والمقصود بالثمانين : الثمانون رجلاً الذين ثبتوا مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم حنين .

وروى ابن سعد فى طبقاته ان حارثة رأى جبريل مرتين . يوم الصورين حين خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى بنى قريظة . . رآه فى صورة دحية الكلبى .

وفى هذه المرة التى ذكرها ابن الأثير(٢١٩)

وروى مسلم فى صحيحه عن سعد بن أبى وقاص أنه رأى عن يمين

---

(٢١٨) أسد الغابة جـ ١ ص ٤٢٩

(٢١٩) الطبقات الكبرى جـ ٣ قسم ٢ ص ٥٢

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض - قال : ما رأيتهما قبل ولا بعد - يعني جبريل وميكائيل - عليهما السلام - يقاتلان كأشد القتال(٢٢٠)

والاخبار في ذلك مستفيضة .

الملائكة تنصر النبي ﷺ والمؤمنين

ولاشك في أن الملائكة كانت مع النبي - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين في معاركه تنصره . وقد قص القرآن الكريم علينا ذلك .

ففي معركة بدر قال الله - تعالى -

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (٢٢١)

---

(٢٢٠) تنوير الحلك في رؤية النبي والملك للسيوطي ص ٦

(٢٢١) الأنفال ٩ : ١٢

وفى موضع آخر يقول الله - تعالى -

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (٢٢٢)

قال ابن كثير فى تفسيره : نزلت الملائكة يوم بدر مسومين - أى معلّمين بعلامات مميزة .

قيل كانوا مسومين بالعمائم الصفر .

وقيل - عن على - كانت سيما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض ، وكانت سيماهم أيضاً فى نواصى خيولهم .

ولقد رآهم بعض الصحابة وسمعوا أصواتهم .

قال القرطبى فى تفسيره : كان الملك يسير أمام الصف فى صورة الرجل ، ويقول : سيروا فإن الله ناصركم ، ويظن المسلمون أنه منهم .

وقاتلت الملائكة فى ذلك اليوم فكان المسلمون يرون رءوساً تسقط عن الأعناق من غير ضارب يرونه ، وسمع بعضهم قائلاً - يسمع قوله ولا يرى شخصه - يقول : أقدم حيزوم - وحيزوم اسم فرس من خيل الملائكة - أما

---

(٢٢٢) آل عمران ١٢٣ : ١٢٦

فى أحد فقد مر بنا الحديث الذى رواه سعد بن أبى وقاص الذى ذكر فيه أنه رأى جبريل وميكائيل ـ عليهما السلام ـ يقاتلان عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وقد علق النووى على هذا الحديث بقوله : فيه بيان إكرامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإنزال الملائكة تقاتل معه ، وبيان أن قتالهم لم يختص بيوم بدر .

وجاءت الملائكة تنصر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين يوم الأحزاب وفى ذلك يقول الله ـ تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ (٢٢٣)

قال أهل التفسير : الجنود الذين أرسلهم هم الملائكة . قلعوا الأوتاد ، وقطعوا أطناب الخيام ، وأطفأوا النيران ، وأكفأوا القدور ، وجالوا الخيل بعضها فى بعض ، فكان ذلك مع الريح الشديدة التى أرسلها الله سبباً فى اضطراب صفوف الأحزاب وهزيمتهم ثم ولوا الأدبار وكفى الله المؤمنين القتال .

وفى غزوة حنين يقول الله ـ تعالى ـ

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ

---

(٢٢٣) الأحزاب ٩

بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢٢٤)

قال القرطبى فى تفسير هاتين الآيتين : أنزل الله الملائكة يقوون المؤمنين بما يلقون فى قلوبهم من الخواطر والتثبيت ، ويضعفون الكافرين بتخويفهم من حيث لا يرونهم من غير قتال ، لأن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر . هذا قول القرطبى ، وفيه نظر .. وقد روى القرطبى نفسه ما يناقض هذا الرأى .. فقد روى أن رجلاً من بنى نصر قال للمؤمنين بعد القتال : أين الخيل البلق والرجال الذين كانوا عليها بيض ؟

ما كان قتلنا إلا بأيديهم (٢٢٥)

وهذا الخبر يرد على قوله السابق من أن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر كما يرد عليه أيضاً حديث سعد بن أبى وقاص السابق وتعليق الامام النووى عليه .

الملائكة تصلى على النبى ﷺ وعلى المؤمنين

قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (٢٢٦)

---

(٢٢٤) التوبة ٢٥ ، ٢٦
(٢٢٥) تفسير القرطبى سورة التوبة ص ٢٩٤٠
(٢٢٦) الأحزاب ٥٦

وصلاة الله رحمته ورضوانه

وصلاة الملائكة دعاء له واستغفار

وصلاة المؤمنين دعاء وتعظيم لأمره

وهذا تكريم للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخصيصة من خصائصه . .

ولما نزلت هذه الآية الكريمة قال المهاجرون والأنصار ـ فيما يروى عن ابن عباس ـ هذا لك يارسول الله خاصة وليس لنا فيه شيء . فأنزل الله ـ سبحانه ـ :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (٢٢٧)

وهذه نعمة من الله تعالى على هذه الأمة من أكبر النعم ، ودليل على فضيلتها على سائر الأمم وقد قال تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (٢٢٨)

وقد مر أن الصلاة من الله على عباده رحمة لهم وبركة عليهم ، ومن الملائكة استغفار لهم . والملائكة يستغفرون للمؤمنين ، وقد ذكر ذلك فى آيات كثيرة سبق ذكرها .

سأل بنو إسرائيل موسى ـ عليه السلام ـ أيصلى ربك ـ عز وجل ـ ؟ فأعظم موسى ذلك . فأوحى الله إليه : إن صلاتى بأن رحمتى سبقت غضبى . فصلاته سبحانه وتعالى إنما هى رحمته السابغة ، وفضله الواسع ، ونعمه الكثيرة التى لا تحصى ، وتجاوزه عن المسىء حين يتوب ، والمذنب

---

(٢٢٧) الأحزاب ٤٣

(٢٢٨) آل عمران ١١٠

حين يستغفر ، والمدبر عن بابه حين يقبل ويتوب .

ولئن كانت الملائكة تصلى على المؤمنين وتستغفر لهم . فإنها تلعن العاصى السادر فى عصيانه ، الممعن فى كفرانه ، المصر على شقاقه وعدوانه . قال - تعالى - :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ (٢٢٩)

حب الملائكة للنبى والمؤمنين

لقد ثبت من حديث الاسراء أن الملائكة كانت تتشوق لرؤية النبى - صلى الله عليه وسلم - وكانت ترحب به حينما يستفتح جبريل - عليه السلام - وهو معه أبواب السماء وكان جبريل يثنى على النبى - صلى الله عليه وسلم - بما هو أهله .

وحين نفر البراق عندما هم النبى - صلى الله عليه وسلم - بركوبه قال جبريل : يا برقة لا تنفرى من محمد فوالله ما ركبك ملك مقرب ولا نبى مرسل أفضل من محمد - صلى الله عليه وسلم - ولا أكرم على الله منه(٢٣٠)

وإن الملائكة لتسارع الى نصرة النبى - صلى الله عليه وسلم - فى مواقفه وتواليه مع الله - سبحانه وتعالى - وقد جاء ذلك فى قوله - تعالى -

﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ (٢٣١)

---

(٢٢٩) البقرة ١٦١

(٢٣٠) تفسير القرطبى سورة الاسراء ص ٣٨٢٣ ط دار الشعب

(٢٣١) التحريم ٤

وكذلك تناصر الملائكة المؤمنين وتحرسهم وتسدد خطاهم وترشدهم وهذه عناية من الله بأمر المؤمن الذى يهىء الله له من ملائكته الكرام من يحرسه ، ويشد أزره ، ويعينه على ما هو مقبل عليه من أمور البر والخير .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من سأل القضاء وكل إلى نفسه ومن جُبر عليه نزل إليه ملك فسدده[٢٣٢] »

وهكذا شأن بقية المؤمنين الذين يستعينون بالله فى أعمالهم يبعث الله إليهم من ملائكته من يسددهم ..

ونحن نرجو الله أن يجعلنا من الذين تشملهم عنايته وتوفيقه إنه نعم المولى ونعم النصير ..

ولنستأنف رحلتنا بتوفيق الله مع السيرة المباركة الطيبة ..

التَّحَـــدِّى

طريق الايمان شاق

لم يكن طريق الايمان ممهداً مفروشاً بالورود والرياحين ، ولكنه كان صعباً شاقاً ، تكتنفه الوهاد والأشواك ، وتعترضه الأغوار والعقبات ، وحتى الذى هيأ الله له من الناس عقلاً ذكياً ، وروحاً تواقاً ، وقلباً متطلعاً إلى النور لم يصل إلى غايته إلا بعد محن واختبارات .

هذه قاعدة غالبة تدل على نفاسة الايمان وعظم جوهره ، وعلى أنه ليس شيئاً هيناً فى مقدور أى انسان أن يناله بأيسر جهد ويحصله من أقصر طريق . بل على المتقدم للايمان أن يتعرض لامتحان دقيق واختبار صعب يجتازه بنجاح ، وهذا الاختبار هو الذى يجعله يحرص على ما ناله بسببه من سعادة وفلاح قال تعالى :

---

(٢٣٢) أخرجه أحمد فى مسنده ٣ / ١١٨ وابن ماجه والترمذى

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ (٢٣٣)

وكما لم يسلم المؤمنون من فتنة الاختبار لم يسلم الأنبياء كذلك من ضراوة هذا الامتحان .

لقد وجد الأنبياء جميعاً فى طريقهم كثيراً من الصعاب والمشقات التى اعترضتهم . وجدوا السفهاء من الكفار والمشركين يصدون أتباعهم عن الانقياد لأمر الله ـ مرة بالتهديد والوعيد ، وأخرى بالاغراء والإغواء ، وثالثة بالإرهاب والتشديد ، وكان للأنبياء أنفسهم نصيب كبير من هذا الأذى . . وقد أعانهم الله على تحمله والانتصار عليه بقوة العزيمة وخوارق العادات والمعجزات التى أيدهم الله بها .

مكث نوح ـ عليه السلام ـ فى قومه يدعوهم الى الله وحده ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ولم يكف عن دعوته إلا بعد أن قال الله ـ تعالى ـ له فيما يحكيه القرآن :

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٣٦ ﴾ (٢٣٤)

آذوه إيذاء شديداً واعترضوا طريق المؤمنين به وفتنوهم وقالوا له : كما حكى لنا القرآن الكريم

---

(٢٣٣) العنكبوت ١ : ٣
(٢٣٤) هود ٣٦

﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢٣٥)

لم يجد نوح ـ عليه السلام ـ بدا بعد هذا العمر الطويل الذى قضاه فيهم دون جدوى ، سالكا معهم كل وسائل الهداية والارشاد دون فائدة .. لم يجد بداً من أن يلجأ الى الله بالشكوى قائلاً :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ (٢٣٦)

وما زال يوجه نظرهم الى بدائع خلق الله وعظائم نعمه لعلهم يهتدون ، ولكنهم ما ازدادوا إلا عناداً .. فدعا عليهم قائلاً :

﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢٣٧)

---

(٢٣٥) هود ٢٨
(٢٣٦) نوح ٥ : ١٢
(٢٣٧) نوح ٢٦

وإذا قرأنا هذه الآيات الكريمة التى أنزلها الله فى قصة نوح مع قومه وجدناها تسجل فى دقة بالغة وأسلوب حكيم ما تعرض له نوح ـ عليه السلام ـ من أذى ، وما لقيه من عنت ، مع أنه جاء لهداية قومه ، وانقاذهم من الضلال ، والوصول بهم الى طريق الصواب والسداد . .

وما تعرض له نوح ـ عليه السلام ـ تعرض له كل نبى جاء بعده . .
جاء هود فقال له قومه

﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٢٣٨)

وقال له قومه متهمين إياه بالجنون :

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (٢٣٩)

وصبر هود على أذاهم حتى تحقق له أنهم لن يؤمنوا فأهلكهم الله بالريح كما قال سبحانه .

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ (٢٤٠)

---

(٢٣٨) الأعراف ٦٦ ، ٦٧
(٢٣٩) هود ٥٥
(٢٤٠) الحاقة ٦ : ٨

وتواتر الأنبياء والرسل للأقوام الذين لم يستجيبوا لنور الايمان ، فقد أرسل الله الى ثمود أخاهم صالحا فآذوه ، وعقروا الناقة التى أرسلها الله لهم آية ، وكذبوا وعتو عتواً كبيراً . .

وأرسل الله إبراهيم فلقى من قومه أذى شديداً ، وقالوا كما حكى القرآن الكريم :

﴿ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) ﴾ (٢٤١)

ولقى لوط من قومه الأذى الشديد وهموا بالاعتداء على ملائكة الله فاهلكهم الله .

ولقى شعيب من قومه ما لقى من أذى وتعنيف ، وقد جاء ليدعوهم الى الله ويهديهم الى الصراط المستقيم . هددوه بالطرد هو ومن معه وقالوا لأتباعه : لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذن لخاسرون .

وجاء موسى برسالته فلم يلق هو ومن آمن به من فرعون إلا الأذى الشديد ، حتى ضج بنو إسرائيل بالشكوى وقالوا لموسى كما حكى لنا القرآن الكريم .

﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) ﴾

---

(٢٤١) الأنبياء ٦٩ : ٧١

(٢٤٢) الأعراف ١٢٩

وقد تعرض موسى لمحنة أخرى أشد من محنته مع فرعون الذى أغرقه الله جزاء بغيه وطغيانه ، فقد امتحن بقوم تمردوا عليه بعد إذ نجاهم الله من بطش فرعون ، والتووا عليه وغيروا وبدلوا حتى مسخ الله منهم من مسخ وأهلك من أهلك ..

ولم ينج عيسى - عليه السلام - من أذى قومه ، كما لم ينج أتباعه من الايذاء والتعذيب .. لقد تعرض المؤمنون عبر الأزمان لضروب من المحن والابتلاء . وكانوا بحلاوة الايمان يصبرون على تلك المحن حتى يعينهم الله على اجتيازها ، أو يستشهدون فى سبيل عقيدتهم التى آمنوا بها .

وكان الاسلام الذى جاء به خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم - والذى استعرضنا فى ايجاز بعض ما لقيه هو وأتباعه من أذى - هو قمة المثل العليا ، لأنه يعلم الناس كيف يحيون ، وكيف يتذوقون لذة الحياة ، وكيف يستشعرون معنى آدميتهم وقيمة انسانيتهم .

إنه يتسامى بهم الى درجة عالية يباهى الله بهم ملائكته فى سماواته العلا ، انه يحقق فيهم معنى الخلافة التى أقرها الله فى الأرض ، فى آدم وذريته انه يأخذ بأيديهم ليرتفعوا فوق مستوى شهواتهم التى تردهم الى الدرك الأسفل ، وتلقى بهم فى حضيض الحيوانية والرذيلة ، وتبتعد بهم عن طريق الاعتدال وسواء السبيل . فالانسان انسان متى عرف حدود انسانيته وتمسك بمعناها ، ولكنه حيوان حين يكون كل همه فى الحياة التهالك المزرى على اللذات والشهوات . وهنا يتحقق فيه معنى قوله - تعالى -

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ ﴾ (٢٤٣)

---

(٢٤٣) الأعراف ١٧٩

ومعنى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ (٢٤٤)

الدين يعلم الناس كيف يعيشون إخوة متحابين متسامحين لا يعتدى بعضهم على بعض ، ولا يظلم أحدهم الآخر ، إنه يقيم الفضائل فيهم مقام القانون ، فلا مروءة ولا صدق ولا شجاعة ولا نبل ولا أمانة ولا أى خليقة من الخلائق الرفيعة إلا وهى مستمدة من الدين وتعاليمه . . إن الفضائل كلها مستقاة من ذلك المعين الصافى والمنبع الثَّرّ الفياض بكل معانى العظمة والسمو والشموخ .

وليس الدين بمحقق للمؤمن سعادته فى الدنيا فحسب ، ولكنه يحقق له سعادة أبدية خالدة فى الآخرة لا تفنى ، لأنه التزم بتعاليمه السمحة ، وسار على مبادئه الكريمة ، وآثر رضوان الله على رضا نفسه .

إنه أتعب نفسه فى الدنيا وحملها على سبيل المشقة فى التزام الطاعة ومداومة العبادة ، فأسهر ليلها وأظمأ نهارها ، فكان على الله حقاً أن يجزيه على ذلك أوفى الجزاء ، وينيله أعظم الثواب .

فما بال الانسان المؤمن لا يستعذب المشقة فى سبيل تحقق هذه الغاية الكريمة ؟

وما باله لا يستلذ المتاعب من أجل الوصول الى أكرم النتائج ؟

إن رضوان الله أنبل هدف فى الوجود ، ومعرفته أسمى ما يحرص عليه العاقل من غايات . فلتكن كذلك عقيدة المؤمن عليها يحيا وعليها يموت .

---

(٢٤٤) محمد ١٢

إن الانسان الذى يتعشق بشراً مثله ، أو يمشى فى ركاب انسان آخر فى سبيل مغنم مادي يحرص على أن يرضيه بشتى الوسائل ولو أغضب فى ذلك كافة الناس . وبعض الناس يركب الأخطار ويقتحم المشقات ويخاطر بحياته أحياناً فى سبيل ربح يعود عليه من تجارة يعمل فيها أو سلعة يروجها . وكل ذلك مغنم مادى رخيص . فكيف بمن يجمع خيرى الدنيا والآخرة فى يده ؟ ألا يحق له أن يستلذ المخاطر ويستهين بما يقاسى من متاعب ؟

ذلك هو الدين الذى يحقق سعادة الدنيا والآخرة ، وهو الاسلام الذى جاء به الأنبياء جيعاً ودعوا إليه أقوامهم ، ولقوا فى سبيل تبليغه والدعوة إليه ما لقوا ، ولقى من آمن به من الناس الأذى الذى استعرضنا فيما سبق ألواناً منه ، وذلك هو الدين الذى شرح الله له صدور قوم آمنوا به حتى من قبل أن يرسل الله لهم رسوله ﷺ لقد كان رسولهم العقل الذكى والبصيرة الملهمة والروح التواق فجالوا بأنظارهم فى ملكوت السموات والأرض وأعملوا عقولهم فى جمال هذا الكون باحثين ومتأملين ومتعطشين لمعرفة رب الوجود ، ولم يسلم أيضاً هؤلاء من عذاب الشوق وعقبات الطريق ، واعتبروا أنفسهم غرباء بين قوم لا يألفونهم ، وهذا أقسى أنواع العذاب .

المشقة - إذن - هى منهاج الوصول ، وهى ضريبة الايمان ، .وبدونها لا يحقق الانسان ربحا فإن خلص الانسان من ضريبة المشقة حين يؤمن ، فلن يخلص بعد ذلك من ضريبة التكاليف الشرعية التى تربطه بربه وتوثق صلته به ، وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ يقول : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات »

أجل ، ولله در الشاعر العربي الحكيم إذ يقول :

بصرت بالراحة العظمى فلم أرها تنال إلا على جسر من التعب

أمثلة من التعذيب

لقى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأذى فى سبيل تبليغ رسالة ربه ما لا يستطيع أحد احتماله . وقد سبق أن عرضنا لألوان من ذلك .

فقد عارضه المشركون بما استطاعوا أن يعارضوه به فلم تلن له قناة ، ولم يهن له عزم . . قالوا عنه إنه ساحر ، وقالوا عنه إنه شاعر ، وقالوا عنه إنه مجنون ، وقالوا عنه كل مايمكن أن يقوله موتور حاقد كاذب مُفْترٍ . .

وكان الله يرد عنه هذه السهام المشرعة ، والقذائف الموجهة . . ومنحه الله قوة الارادة على مواجهتها بشجاعة وحزم فارتد أصحابها مدحورين مقهورين .

● حدث عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطوف بالبيت ، ويده فى يد أبى بكر وفى الحِجْر ثلاثة نفر جلوس :

عقبة بن أبى معيط ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، فمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فلما حاذاهم أسمعوه بعض مايكره ، فعرف ذلك فى وجه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدنوت منه حتى وسطته ـ أى جعلته وسطا ـ فكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينى وبين أبى بكر وأدخل أصابعه فى أصابعى وطفنا جميعا ـ فلما حاذاهم قال أبو جهل : والله لا نصالحك مابل بحر صوفة وأنت تنهى أن نعبد ماكان يعبد آباؤنا .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أنا ذلك .

ثم مشى عنهم فصنعوا به فى الشوط الثالث مثل ذلك .

حتى اذا كان الشوط الرابع ناهضوه ، وقاموا له - صلى الله عليه وسلم - ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه ، فدفعت فى صدره فوقع على الأرض ، ودفع أبو بكر أمية بن خلف ، ودفع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عقبة بن أبى معيط .

ثم انفرجوا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو واقف . ثم قال : أما والله لاتنتهون حتى يحل بكم عقابه أى ينزل عليكم عاجلا .

قال عثمان : والله مامنهم رجل إلا وقد أخذته الرعدة .

فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول بئس القوم أنتم لنبيكم ، ثم انصرف الى بيته وتبعناه حتى وصل إلى باب بيته ، ثم أقبل علينا بوجهه فقال : أبشروا ، فإن الله - عز وجل - مظهر دينه ومتمم كلمته وناصر نبيه ، إن هؤلاءالذين ترون ممن يقتلهم الله على أيديكم عاجلا .

ثم انصرفنا إلى بيوتنا . فوالله لقد ذبحهم الله بأيدينا يوم بدر(٢٤٥)

● ومماحدث به الحلبى فى سيرته قال : ذكر أن أباجهل بن هشام قال يوما لقريش : يامعشر قريش ، إن محمدا قد أتى ماترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم ، إنى أعاهد الله لأجلسن له - يعنى النبى - صلى الله عليه وسلم - غدا بحجر لا أطيق حمله إلا بصعوبة ، فاذا سجد فى صلاته ضربت به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف مابدالهم .

قالوا : والله لانسلمك أبدا ، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا - كما وصف - ثم جلس لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينتظره ، وغدا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

---

(٢٤٥) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٤٧٢

كما كان يغدو للصلاة ، وكانت قبلته إلى بيت المقدس ، فكان يصلى إلى الركن اليمانى والحجر الأسود ، ويجعل الكعبة بينه وبين الشام .

وقريش جلوس فى أنديتهم وهم ينتظرون ماأبو جهل فاعل .

فلما سجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه حتى اذا دنا منه رجع منهزما ممتقعا لونه ، وقد يبست يداه على حجره حتى قذفه من يده ـ بعد أن عالجوا فكه من يده فلم يقدروا إلا بعد لأى ـ تعب ـ . .

وقامت اليه رجال من قريش وقالوا : مالك ياأبا الحكم ؟

قال : قمت لأفعل ماقلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى فحل من الأبل والله مارأيت مثله قط ، هم بأن يأكلنى .

فلما ذكر ذلك للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « ذاك جبريل لو دنا لأخذه » ذكر بعض المفسرين ـ فى سبب نزول قوله تعالى :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٢٤٦)

أن الآية الأولى نزلت فى أبى جهل لما حمل الحجر ليرضخ به رأس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما رفعه تسمرت يداه إلى عنقه ، ولزق الحجر بيده ، فلما عاد إلى اصحابه أخبرهم فلم يفكوا الحجر من يده الابعد تعب شديد . . .

---

(٢٤٦) يس ٨ ، ٩

وأن الآية الثانية نزلت فى رجل آخر لما رأى ماوقع لأبى جهل قال : أنا ألقى الحجر عليه ، فذهب إليه ، فلما قرب منه غشي بصره ، فجعل يسمع صوته ولايراه . فرجع إليهم فأخبرهم بذلك .[٢٤٧]

وقال السيوطى فى أسباب النزول : -

أخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقرأ فى الصلاة فيجهر بالقراءة ، حتى تأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه ، واذا بأيديهم مجموعة إلى أعناقهم ، واذا بهم عمى لايبصرون ، فجاءوا إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : ننشدك الله والرحم يامحمد ، فدعا حتى ذهب ذلك عنهم ، فنزلت أول يس :

﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [٢٤٨]

قال : فلم يؤمن من ذلك النفر أحد .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال : قال أبو جهل لئن رأيت محمدا لأفعلن ولأفعلن فأنزل الله :

---

(٢٤٧) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٤٦٤

(٢٤٨) يس ١ : ١٠

« إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا .... الخ »

فكانوا يقولون : هذا محمد ، فيقول : أين هو؟ أين هو؟ ولا يبصر[٢٤٩] لقد كان الله يؤيده ويدفع عنه ، وكيف لا ، وقد قال له :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[٢٥٠]

● لقد قالت ابنة الحكم بن أبى العاص يوما لأبيها : مارأيت قوما كانوا أسوأ رأيا وأعجز فى أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منكم .. فقال لها : لاتلومينا يابنية ، إنى لا أحدثك إلا مارأيت . لقد أجمعنا ليلة على اغتياله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما رآيناه يصلى ليلا جئنا خلفه ، فسمعنا صوتا ظننا أنه مابقى بتهامة جبل إلا تفتت علينا وانه يقع علينا ، فماعقلنا حتى قضى صلاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورجع إلى أهله ، ثم تواعدنا ليلة أخرى ، فلما جاء نهضنا إليه ، فرأينا كأن الصفا والمروة التصقتا إحداهما على الأخرى ، فحالتا بيننا وبينه .

● وقد كانوا يحاولون نهيه عن الصلاة عند الكعبة ، وقد ألح عليه أبو جهل فى ذلك فنزل قوله تعالى : ـ

﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ﴿٩﴾ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴿١٦﴾ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾[٢٥١]

---

(٢٤٩) أسباب النزول للسيوطى ص ١٤٥

(٢٥٠) المائدة ٦٧

(٢٥١) العلق ٩ : ١٩

إن أبا جهل لم يكتف بنهى الرسول عن الصلاة ، بل هدده بناديه وأهله ، ولقد قال له يوما : لقد علمت يامحمد بأنى أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم . فنزل قوله تعالى ساخرا منه ، ومبكتا له :

﴿ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٢٥٢)

وقد كانت هذه الآيات الكريمة تنزل عليهم كالصواعق فتزلزل أركانهم وتهدم كيانهم وتصيبهم بالذهول حتى لايدرى أحدهم مايقول .

إنهم يدركون ـ على الرغم من تكذيبهم لماينزل ـ أن هذا القول له أثره الشديد فى النفوس ـ إن له صولة لم يعهدوها فى أى قول آخر ، وله سحره الذى يأخذ بمجامع قلوب الناس فيرددونه وهم به معجبون . .

● حين نزلت سورة المسد . أقبلت حمالة الحطب الى المسجد ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبوبكر وعمر فيه ، وفى يدها حجر . فأخذ الله على بصرها فلم تر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكنها رأت أبابكر وعمر .

فأقبلت على أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ فقالت : أين صاحبك ؟

قال : وماتصنعين به ؟

قالت : بلغنى أنه هجانى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر ـ الحجر ـ فمه .

فقال عمر رضى الله عنه : ـ ويحك إنه ليس بشاعر .

فقالت : إنى لا أكلمك ياابن الخطاب ـ وذلك لما تعلمه من شدته ـ ثم

---

(٢٥٢) الدخان ٤٧ : ٤٩

أقبلت على أبي بكر لما تعلمه من لينه وتواضعه ، فقالت : والثواقب - أي النجوم - إنه لشاعر وإني لشاعرة ، فكلانا هجاني لأهجونه . وانصرفت .

فقيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنها لم تر‌ك . فقال ﷺ : جعل الله بيني وبينها حجاب .

● وقد قال صاحب الهمزية في ذلك : -

وأعدت حمالة الحطب الفهر وجاءت كأنها الورقاء

ثم جاءت غضبى تقول : أفي مثلي من أحمد يقال الهجاء

وتولت ومارأته ومن أين ترى الشمس مقلة عمياء ؟

أمثلة من الأذى الموجه للمؤمنين : -

وحدث من الأذى للنبي - صلى الله عليه وسلم - أكثر من ذلك بكثير . ولكنه كان قمة شماء في الصبر وقوة الاحتمال .

ولقد ضاق بهم ذرعا ذات يوم فدعا عليهم فقال : اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف ، اللهم عليك بأبي الحكم بن هشام وعتبة بن ربيعة وعقبة بن أبي معيط وأمية بن خلف . .

وهابت قريش دعوته ، وقد كانوا يضحكون منه ويسخرون بعد أن كان أحدهم قد ألقى عليه وهو ساجد فرث جزور .

وقد استجاب الله دعاءه ، فأصابتهم سنة أكلوا فيها الجيف والجلود والعظام ، وصار الواحد منهم يرى مابينه وبين السماء كالدخان من الجوع . .

فجاءوا إليه تائبين مستغفرين ، فدعا الله فرفع عنهم العذاب ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ

أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ
جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ
قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (٢٥٣)

قال السيوطى فى أسباب النزول :

أخرج البخارى عن ابن مسعود قال : إن قريشا لما استعصوا على النبى - صلى الله عليه وسلم - دعا عليهم بسنين كسنى يوسف فأصابهم قحط حتى أكلوا العظام . . فقيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يارسول الله استسق لمضر فانها قد هلكت فاستسقى فسقوا . فنزلت : « إنكم عائدون » فكما أصابتهم الرفاهية عادوا الى حالهم ، فأنزل الله قوله

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢٥٤) يعنى يوم بدر (٢٥٥)

ولقد لقى أصحابه من العذاب على أيدى هؤلاء المشركين مايفوق الوصف ، وماتقشعر منه الأبدان وتتفطر من هوله الأفئدة .

ذكر الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية قال :

أورد البخارى عن خباب بن الأرت قال : أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو متوسد برده فى ظل الكعبة - ولقد لقينا من المشركين شدة شديدة - فقلت : يارسول الله ، ألا تدعو الله لنا ؟

فقعد محمرا وجهه فقال : « إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم وعصب مايصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع

---

(٢٥٣) الدخان ١٠ : ١٥

(٢٥٤) الدخان ١٦

(٢٥٥) أسباب النزول للسيوطى ص ١٥١

المنشار على مفرق رأس أحدهم فيشق فلا يصرفه ذلك عن دينه ، وليظهرن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف الا الله .

لم يكن النبى ﷺ - حين يدعو إلى الاسلام نهّازاً يطلب سلطة أوجاها،بأن يجمع حوله الأنصار واعداًلهم بأن يحيل الدنيا من حولهم نعيماً وارفا وظلا ممدوداً . ولكنه كان يطلب منهم نصر دين الله باذلين فى سبيله مهجهم وأرواحهم ولهم الجنة فى الأخرة ورضوان الله . . .

وكان يطلب منهم أن يوطنوا أنفسهم على البذل وتحمل العذاب والمشقة حتى يظهر أمر الله .

ولذلك حين شكا إليه خباب مايلقاه هو وأصحابه من الأذى ، لم يواسه بكلمة بل ذكره بما كان يلقاه المؤمنون السابقون على أيدى الكفار والمعاندين ، ومن العجيب أن ذلك لم يصرف خباباً ومن أسلم من المؤمنين عن هذا الدين الذى يطلب منه فى سبيله بذل نفسه وتحمل أقسى ما يحتمله من عذاب ، بل جعلهم يزدادون تمسكا بدينهم ، وإصرارا على عقيدتهم .

لم يستثن الكفار أحدا من الايذاء . . .

فقد آذوا أبا بكر إيذاء شديدا كما آذوا غيره . . . .

ومما وقع لأبى بكر من الأذى أنه كان أول خطيب فى الاسلام دعا إلى الله ورسوله وثار عليه المشركون ، وضربوه ضربا شديدا ووطئوه بأرجلهم حتى أوشك أن يموت . . . وضربه عتبة بن ربيعة بقسوة حتى سقط مغشيا عليه وحملوه فى ثوب إلى منزله وهم لايشكون فى موته . . .

أما ابن مسعود رضى الله عنه - فقد جهر بالقرآن فى الكعبة - وقرأ سورة الرحمن ، فمازال المشركون يضربونه وهو مستمر فى القراءة لايقطعها ، حتى أدموا وجهه . فقال له أصحابه : هذا الذى خشينا عليك منه .

فقال : والله مارأيت أعداء الله أهون عليَّ مثل اليوم ، ولو شئتم لآتينهم بمثلها غدا .

قالوا : كفى ذلك لقد أسمعتهم مايكرهون .

وقد قدمٌ بلال مثلا فى الصبر والاحتساب . كان مملوكا لأمية بن خلف . فحين بلغه إسلامه جعل فى عنقه حبلا ودفعه إلى الصبيان يلعبون به ، ويطوفون به فى شعاب مكة ، وبلال يردد : أحد أحد ، مشيرا بذلك إلى إصراره على التوحيد . . .

وكانوا يلقونه فى حر الظهيرة على الرمل اذا اشتدت حرارته ، بحيث لو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت ، ثم تطرح فوق صدره صخرة عظيمة ، ويقول له أمية بن خلف لاتزال كذلك حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى .

ولايزيد بلال على أن يقول : أحد أحد .

قال الحلبى : كان بلال مولَّدا من مولَّدى مكة ، وكان من جملة مائة مملوك لعبد الله بن جدعان . فلما بعث الله النبى ﷺ - أمر بهم سيدهم فأخرجوا من مكة خوفا من إسلامهم ، فأخرجوا إلا بلالا ، فقد كان يرعى غنم سيده وأسلم بلال وكتم إسلامه حينا - ولكنه ضاق بالأصنام ذرعا ، فبصق يوما عليهن وقال : خاب وخسر من عبدكن -

فشعرت به قريش ، فشكوه إلى سيده . . . .

فأعطاهم عبد الله بن جدعان مائة من الابل ينحرونها للأصنام وأغراهم بتعذيب بلال .

وقد باعه عبد الله بن جدعان لأمية بن خلف أو وهبه له ،

وقد اشتراه أبو بكر من أمية وأعتقه .

أبو بكر يشترى الأرقاء ويعتقهم

وكان أبو بكر يشترى الأرقاء الذين أسلموا ، ويعتقهم .

ومن الذين اشتراهم ـ حمامة أم بلال ، وعامر بن فهيرة ، وأبى فكيهة ـ وكان عبداً لصفوان بن أمية ، أسلم حين أسلم بلال ـ وزنيرة ـ التى عذبوها فى الله حتى عميت ـ وقد قال لها أبو جهل يوما : إن اللات والعزى فعلا بك ما ترين .

فقالت : كلا والله ماتملك اللات والعزى نفعا ولاضرا ، هذا أمر السماء وربى قادر على أن يرد علىَّ بصرى .

فأصبحت تلك الليلة ، وقد رد الله عليها بصرها .

فقالت قريش : إن هذا من سحر محمد ـ فاشتراها أبو بكر هى وابنتها وأعتقها

كان جملة العبيد والارقاء الذين اشتراهم أبو بكر وأعتقهم تسعة .

وهذا لون من الجهاد بالمال فى سبيل الله .

صبر المعذبين على الأذى

ذكر القسطلانى فى المواهب اللدنية قال :

أقبل كفار قريش على من آمن يعذبونهم ويؤذونهم حتى إن عدو الله أبا جهل مر بسمية أم عمار بن ياسر وهى تُعَذب فطعنها فقتلها ورمى ابنها عبد الله فسقط .

وقد روى ابن سعد فى طبقاته أن سمية أول شهداء الاسلام . . . وبلغ النبى ﷺ ـ ما يتعرض له ياسر وأبناؤه وزوجه من أذى فقال مواسيالهم : صبرا آل ياسر فموعدكم الجنة . ودعا لهم قائلا : اللهم لاتعذب من آل ياسر أحدا بالنار .

وظل آل ياسر فى العذاب ، حتى فرج الله عن عمار ، وكان يعذب حتى لايدرى مايقول ، وكان يُرى فى ظهره أثر كالمخيط . فسئل ، فقال : هذا ما كانت تعذبنى قريش فى رمضاء مكة .

وروى أن النبى ﷺ ـ مر وهم يحرقونه بالنار فقال : يانار كونى بردا وسلاما على عمار كما كنت على إبراهيم[٢٥٦] .

ولم يزل أمر الايذاء يشتد على المسلمين لافرق بين كبيرهم وصغيرهم ، حتى أذن الرسول لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة .

الهجرة الى الحبشة

لقد خشى المسلمون على أنفسهم الفتنة ، وكان العذاب عليهم قاسيا لايحتمل .... حدث خباب عن نفسه قال : لقد رأيتنى يوما وقد أوقدوا لى نارا ووضعوها على ظهرى فما أطفاها إلا ودك ظهرى ـ أى دهنه ـ

وكان خباب حدادا ، وكان قد سبى فى الجاهلية فاشترته أم أنمار ، وحين أسلم كانت مولاته تأخذ الحديدة وقد أحمتها فى النار فتضعها على رأسه ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ ـ فقال : اللهم انصر خبابا .

فاشتكت مولاته رأسها فكانت تعوى مع الكلاب . فقيل لها : اكتوى ، فكان خباب يأخذ الحديدة وقد أحماها فيكوى رأسها ..

وهكذا أراد الله أن يكون عقابها بمثل ما فعلت بخباب ، وكان خباب هو الذى يتولى بنفسه أمر كيِّها ... واحدة بواحدة والبادى أظلم ...

وكذلك اشتد الأمر بالمسلمين ، ورأى النبى ﷺ ـ ما أصاب أصحابه من البلاء والأذى . وهو لايقدر أن يمنع عنهم ماينالهم من الأذى والظلم ... فقال لهم ـ فيما يرويه ابن هشام ـ : لوخرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها مَلِكا

---

(٢٥٦) المواهب اللدنية للقسطلانى جـ ١ ص ٢٦٨

لايظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه .

فخرج فى الهجرة الأولى بضعة عشر نفرا منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ .

وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ومعه زوجته سهلة بنت سهيل والزبير بن العوام . ومصعب بن عمير . وعبد الرحمن بن عوف . وأبو سلمة الأسدى ومعه امرأته أم سلمة بنت أمية بن المغيرة . وعثمان بن مظعون ، وعامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبى حنتمة . ، وسهيل بن وهب بن ربيعة .
ويقال : إن النبى - ﷺ - أمر عليهم عثمان بن مظعون . . كان هذا هو الفوج الأول من المهاجرين إلى الحبشة . .

ثم لم يلبث أن لحق بهم بعض أصحاب رسول الله - ﷺ - فخرج جعفر بن أبى طالب وغيره - منهم من خرج وحده ، ومنهم من خرج ومعه أهله ، حتى بلغت عدة هؤلاء المهاجرين ثلاثة وثمانين رجلا .
ولم يكن فراق هؤلاء المهاجرين لوطنهم سهلا ، ولكن فراق الوطن والأهل والمال يهون إذا كان ذلك فى سبيل الله .

وأحسن النجاشى استقبال المسلمين ، فى دياره . حتى اطمأنوا عن أنفسهم ودينهم ، وأقبلوا على عبادتهم يمارسونها فى حرية كاملة . .

وقد أكرم الله النجاشى لذلك حتى قالت عائشة - رضى الله عنها - فى ذلك : « كنا نتحدث أنه لايزال على قبر النجاشى نور[٢٥٧] »

وكانت طريقة هؤلاء فى الهجرة سرًا حتى لايحس بهم المشركون فيرجعوهم . فقد خرجوا خفية حتى وصلوا إلى ساحل البحر ، وهناك

---

(٢٥٧) الروض الأنف للسهيلى جـ ٢ ص ٨٦

استاجروا سفينة لنقلهم وأحست قريش بهم فخرجت فى أثرهم ، فجاءت وقد ركبوا البحر فلم تدركهم .

أبو بكر يعدل عن الهجرة إلى الحبشة

وكان الصديق ـ رضي الله عنه ـ قدهَمَّ بالهجرة مع من هاجر ، فخرج حتى إذا بلغ برك الغماد ـ وهو موضع وراء مكة بخمسة أميال ـ لقيه الحارث بن الدُّغِنة وهو سيد قبيلة « القارة » وهى قبيلة مشهورة بقوة الرمى . فقال له : أين تريد يا أبا بكر؟

قال : أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض فأعبد ربى . .

قال ابن الدغِنة : إن مثلك يا أبا بكر لايخرج ، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعتق الأرقاء وأنت فى جوارى فارجع فاعبد ربك ببلدك .

فرجع أبو بكر مع ابن الدغنة .

وطاف ابن الدغنة فى أشراف قريش وقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ، وهو فى جوارى . . .

فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، ولم ترد عليه جواره ، ولكنهم قالوا له : مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره ، فليصل فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذنا بذلك ، ولايستعلن حتى لايفتن أبناءنا وعبيدنا . . . فقال ابن الدغنة ذلك لأبى بكر .

ومكث أبو بكر يعبد ربه فى داره ، يصلى فيها ويقرأ القرآن ، وكان رجلا بكاء لايملك عينيه إذا قرأ القرآن . فكان كثير من رجال قريش يزدحمن عليه ليسمعن منه القرآن فأفزع ذلك القرشيين .

فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقالوا له :

إنا قد أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره ، فأعلن الصلاة والقراءة ، وإنا قد خشينا أن يفتن رجالنا وعبيدنا بهذا . إن أحب أن يقتصر على عبادة ربه فى داره فعل . وإن رأى أن يعلن بذلك فاسأله أن يرد عليك جوارك . فإنا كرهنا أن نخفر ذمتك ونبطل عهدك .

فجاء ابن الدغنة إلى أبى بكر فقال له :

قد علمت الذى قد عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن تُرجع إلىّ ذمتى ، فإنى لا أحب أن تسمْع العرب أنى قد أخفرت .

فقال له أبو بكر : فإنى أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله تعالى .

وحين رد أبو بكر جوار ابن الدغنة ، وتسامع الناس بذلك ، لقيه بعض السفهاء وهو فى طريقه إلى الكعبة فرمى على رأسه ترابا .

ومر به بعض كبراء قريش . فقال له أبو بكر : أما ترى ما صنع هذا السفيه ؟

فقال له : أنت صنعت ذلك بنفسك . .

فقال أبوبكر : رب ما أحلمك . قالها ثلاثا . .

قال الحلبى فى سيرته : ولك أن تتأمل فيما وصف به ابن الدغنة أبا بكر ، إنها الأوصاف الفاضلة والسمات الكريمة والأخلاق السامية ولم يستطع القرشيون أن يطعنوا فى هذه الصفات ولكنهم مع ذلك تناسوها أمام حقدهم الشديد وعداوتهم المستعرة لما رأوا من صدق مولاته لرسول الله ﷺ وعظيم محبته له (٢٥٨) .

---

(٢٥٨) السيرة الحلبية جـ١ ص ٤٨٥

قريش تفكر فى إعادة المهاجرين

وحين رأت قريش أن المسلمين قد اطمأن بهم المقام فى أرض الحبشة ، وأنهم أصابوا بها مستقرا آمنا . ائتمروا فيما بينهم على أن يعيدوهم بأى سبيل .

واجتمع رأيهم على أن يبعثوا منهم رجلين قويين من ذوى الرأى والمكيدة إلى النجاشى ملك الحبشة . واختاروا لهذه المهمة عبدالله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص .

ولننصت إلى أم المؤمنين أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ وقد كانت إحدى المهاجرات مع زوجها أبى سلمة وهى تقص علينا قصة هذه المؤامرة الفاشلة . .

قالت ـ رضى الله عنها : « لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا خير جار : النجاشى أمنًا على ديننا ، وعبدنا الله ـ لانُؤذَى ولانسمع شيئاً نكرهه . فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا فيما بينهم على أن يبعثوا إلى النجاشى فى شأننا فبعثوا إليه رجلين جلدين حملوا معهم الهدايا الكثيرة مما يستطرف من متاع مكة . وكان من أعجب ما يأتيه منها الأُدم ، فجمعوا له أُدما كثيرا ، ولم يتركوا أحدا من بطارقته إلا حملوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبدالله بن أبى ربيعة وعمرو ابن العاص ، وأمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فى أمر هؤلاء .

ثم قَدِّماَ إلى النجاشى هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم .

قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشى ونحن عنده بخير دار عند خير جار ، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما

النجاشي ، وقالا لكل بطريق منهم : إنه قد لجأ إلى بلد الملك من غلمان سفهاء من قومنا ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينكم وجاءوا بدين مبتدع ، لانعرفه نحن ولاأنتم ، وقد بَعَثَنا أشرافُ قومهم ، إلى الملك ليردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولايكلمهم ، فإن قومهم أعرف بهم ، وأعلم بما عابوا عليهم .

فقالوا لهما : نعم .

ثم إنهما قدما هداياهم إلى النجاشى فقبلها منهما ، ثم كلماه . فقالا له : أيها الملك العظيم إنه قد لجأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لانعرفه نحن ، ولاأنت ، وقد بَعَثَنا إليك فى شأنهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعرف بهم وأعلم بما عابوا عليهم .

قالت أم سلمة : فقالت بطارقته حوله : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما ، ليردوهم إلى بلادهم وقومهم .

قالت : فغضب النجاشى ، ثم قال : لا والله لا أسلمهم ، ولا يهان قوم جاورونى ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاورونى .

النجاشى يجاور المسلمين

قالت ـ أم سلمة رضى الله عنها ـ ثم أرسل ـ النجاشى ـ إلى أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدعاهم .

فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، قال بعضهم لبعض : ماتقولون للرجل إذا جئتموه ؟

قالوا : نقول والله ماعلمنا ، وما أمرنا به نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كائنا فى ذلك ماهو كائن ، فلما جاءوا ، وقد دعا النجاشي اساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ـ سألهم ، فقال : لهم :

ماهذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى ديني ولافى دين أحد من هذه الملل ؟

فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب فقال له :

أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم . وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لانشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

قالت أم سلمة : فعدد عليه أمور الإسلام ، ثم قال جعفر : فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ماجاء به من عند الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً ، فحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ـ فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله ـ تعالى ـ وأن نستحل ماكنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا

علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لانظلم عندك أيها الملك .

قالت أم سلمة : فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به نبيكم من شيء .

فقال له جعفر : نعم

فقال له النجاشي : فاقرأه علي .

قالت : فقرأ عليه صدرا من سورة « كهيعص » - مريم -

قالت : فبكى - والله - النجاشي - حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم .

ثم قال النجاشي : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، فانطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ، ولايُكادون .

قالت أم سلمة - رضى الله عنها : فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم .

فقال له عبدالله بن أبي ربيعة - وكان أقل كيدا لنا : لاتفعل ، فإن لهم أرحاما ، وإن كانوا قد خالفونا .

قال عمرو : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد .

قالت أم سلمة - رضى الله عنها : ثم غدا عليه من الغد ، فقال له : أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما . فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه . .

فأرسل إليهم النجاشي ليسألهم عن ذلك .

قالت : ولم ينزل بنا مثلها قط - ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟

قالوا : نقول ـ والله ـ ماقال الله وماجاءنا به نبينا وليكن مايكون .

قالت : فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟

قالت : فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

قالت : فضرب النجاشى بيده إلى الأرض فأخذ منها عودا ، ثم قال : والله ماعدا عيسى بن مريم ماقال هذا العود :

فتعالت أصوات بطارقتة حوله حين قال ماقال .

فقال : وإن غضبتم والله . . ثم قال للمسلمين اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى ـ والشيوم : الآمنون ـ من سبّكم غرم . . . قالها ثلاثا .

ثم قال : ما أحب أن لى جبلا من ذهب وأنى أذيت رجلا منكم .

والتفت إلى بطارقته فقال لهم : ردوا عليهما ـ أى على عمرو وصاحبه ـ هداياهم فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد علىَّ ملكى ، فآخذ الرشوة فيه ، وماأطاع الناس فىَّ فأطيع الناس فيه .

قالت : فخرجا من عنده مقبوحين ، مردوداً عليهما ماجاءا به . وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار .

فشل عمرو فى مهمته

لقد فشل عمرو بن العاص وصاحبه فى مهمتهما وقد عز ذلك على عمرو فيما يبدو ، ولكنها كانت فرصة لأن يراجع فيها نفسه على أى حال .

وقد اختارت قريش عمراً لما كانت تعرفه فيه من سعة الحيلة وإحكام التدبير . ولكنه مع ذلك لم يستطع مع إيمان النجاشى أن يفعل شيئاً يكيد به المسلمين الذين هاجروا فرارا بدينهم إلى الله . .

وقد أسلم عمرو فيها بعد وحسن اسلامه ، وأبلى فى جهاد أعداء الإسلام بلاء حسنا ، وسبحان مقلب القلوب ومغير الأحوال . .

وكذلك أسلم صاحبه عبدالله بن أبي ربيعة المخزومى ، وحسن إسلامه وولاه النبى - صلى الله عليه وسلم - الجند ومخاليفها ، فلما حوصر عثمان جاء لينصره فوقع عن راحلته قرب مكة فمات - رضى الله عنه -

وهكذا أصبح أعداء الإسلام بالأمس من أعظم أنصاره بعد ذلك . .

إسلام حمزة

ولنترك المسلمين فى الحبشة مطمئنين على دينهم يجاورون فيها هذا الملك العادل الذى أحبه النبى - صلى الله عليه وسلم - ودعا له ، ولنعد إلى مكة لنرقب كيف كان حال من بقى فيها مع النبى - صلى الله عليه وسلم -

وكان حمزة بن عبدالمطلب قد أسلم - وهو الملقب بسيد الشهداء ، وأسد الله - كان خير أعمام النبى - صلى الله عليه وسلم - وأخاه من الرضاع . أرضعتهما معا ثويبة جارية أبى لهب . وإن كان حمزة أسن من النبى - صلى الله عليه وسلم - بسنتين ، وهذا يعنى أنها أرضعتهما فى زمانين مختلفين .

وكان حمزة من أقوى شباب قريش وأنضرهم وأشدهم شكيمة . .

أسلم سنة ست من النبوة - وكانت الهجرة إلى الحبشة سنة خمس - وسبب إسلامه - كما جاء فى المواهب اللدنية - أن أبا جهل أذى النبى - صلى الله عليه وسلم - وبالغ فى إيذائه وشتمة .

وكان حمزة غائبا فى رحلة صيد فلما عاد أخبرته مولاة ابن جدعان قالت له : لو رأيت ماحدث لابن أخيك من أبى الحكم بن هشام .

وقيل : بل أخبرته صفية أخته .

فغضب حمزة غضبا شديداً ، ولم يخلع ملابس الصيد ، بل عمد إلى

الكعبة فورا فوجد أبا جهل فعلا رأسه بقوسه فشجه شجة منكرة . وقال له : أتشتم محمداً وأنا على دينه ؟ فرد عليَّ ذلك إن استطعت .

فقام رجال من بنى مخزوم لنصرة أبى جهل .

فقال أبوجهل : دعوا أبا عمارة فانى والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا ـ وروى ابن أبى حاتم قال : قال حمزة دينى دين محمد ، إن كنتم صادقين فامنعونى . فتعجب القوم من ذلك فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢٥٩)

لقد أنف القرشيون أن يقول حمزة ذلك أو أن يقروا بنصره وهو على دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقد أعمتهم الحمية عن أن يروا الحق الواضح والرشد الناجح .

وإن كان غالب المفسرين يقولون : إن الآية السابقة نزلت فى شأن قريش حين أنفت أن يدخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة معتمرا عام الحديبية .

وبإسلام حمزة ـ رضى الله عنه ـ كفت قريش عن أذاها قليلا ـ وعز بإسلامه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

كان إسلام حمزة مفاجئا ، حتى لقد فاجأ به نفسه قبل أن يفاجىء به قريشا ـ كان ثورة عاطفية أثارتها العصبية وصلة الرحم .

---

(٢٥٩) الفتح ٢٦

ولذلك فإنه حين رجع إلى بيته أخذ يحدث نفسه ـ كما يقول الزرقانى ـ ويقول مخاطبا لها : أنت سيد قريش كيف تترك دين آبائك ؟ فأخذ يدفع وساوس الشيطان عن نفسه .

ثم قال : اللهم إن كان هذا رشدا فاجعل تصديقه فى قلبى ، وإلا فاجعل لى مما وقعت فيه مخرجا . وبات بليلة لم يبت مثلها من وسوسة الشيطان حتى أصبح .

فغدا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : يابن أخى إنى قد وقعت فى أمر لا أعرف المخرج منه ، وإقامة مثلى على ما لا أدرى أهو رشد أم لاـغىٌّ شديد ، فحدثنى حديثاً فقد اشتهيت يابن أخى أن تحدثنى . .

فأقبل ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكره ووعظه وخوفه وبشره . فالقى الله فى قلبه الإيمان بما قاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال حمزة : أشهد انك لصادق ، فأظهر دينك ، فوالله ما أحب أن لى ما أظلته السماء وأنا على دينى الأول . وقال حمزة معتزا باسلامه :

حمدت الله حين هدى فؤادى ... إلى الإسلام والدين الحنيف

لدين جاء من رب عزيز ... خبير بالعباد بهم لطيف

إذا تليت رسائله علينا ... تحدر دمع ذى اللب الحصيف

رسائل جاء أحمد من هداها ... بآيات مبينة الحروف

وأحمد مصطفى فينا مطاع ... فلا تغشوه بالقول العنيف

فلا والله نسلمه لقوم ... ولما نقض فيهم بالسيوف

وأسقط فى يد قريش حين رأت حمزة ـ رضى الله عنه ـ يسلم ـ ورأوا أن ذلك أول بوادر الاختراق فى صفوفهم . . ولئن سكتوا على ذلك ليوشكن أمر

هذا الدين يزداد استعلاء ، وأمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يزداد ظهورا وارتفاعا . .

فعولوا على أن يسلكوا طريقا آخر فى مقاومته ، ولا بأس عليهم إذا استعانوا بمن هم أقدم منهم معرفة فى مقاومة مثل هذه الدعوة . .

فأرسلوا ـ كما سبقت الاشارة ـ من يسأل اليهود ـ وهم ذوو خبرة فى نظر قريش ـ عن وسائل يستعينون بها فى إيقاف زحف هذه الدعوة ، فأشاروا عليهم بأن يتحدوا النبى سائلين إياه عن أمور مغيبة لايعرفها الا نبى يوحى إليه . .

فعادوا وسألوه عن ذى القرنين وأهل الكهف والروح ، وقد عرضنا أحاديث خاصة عن ذلك ،

وقد كانت إجابة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ موافقة لما جاء فى الكتب السابقة . وقد أدى ذلك إلى خذلان اليهود كما أدى إلى كبت القرشيين ، واظهار أمر المسلمين .

ولكن ظهور الحق لم يزد الباطل الا شراسة فى المقاومة ، ولم يزد المشركين الا إمعانا فى التحدي ومقابلة من بقى من المسلمين فى مكة بالإيذاء الشديد . . .

إسلام عمر

وكأن الله قد أراد أن يفت فى عضد المشركين ـ وأن يذيقهم كأس الغيظ ويجرعهم مرارة الخذلان ، فهدى الله عمر الفاروق إلى دينه الحنيف ـ فكان وقع هذا على نفوس أهل الكفر عنيفا .

أسلم عمر بعد حمزة بثلاثة أشهر فى رأى بعض الرواة ، ولكن بعضهم يقولون : إنه أسلم بعده بثلاثة أيام .

وكان إسلام عمر إستجابة لدعوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين رأى استشراء الكفر واستبداد أهله ـ فقال : اللهم أعز الاسلام بأحد العمرين . .

والعمران هما : عمرو بن هشام ـ وهو أبو جهل ـ وعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ

وأخرج أبو نعيم عن ابن عمر هذا الحديث ولفظه : قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اللهم أعز الاسلام بأحب العمرين إليك »

وفى رواية أخرجها الحاكم أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قصر دعوته على عمر خاصة فقال : اللهم أيد الأسلام بعمر بن الخطاب ـ

وفى رواية : اللهم أعز عمر بالاسلام . .

وقال الزرقانى فى تعليل هذه الدعوة : لأن الاسلام يعز صاحبه ولا يعز بأحد[٢٦١]

كان المسلمون فى مكة حين أسلم عمر ـ رضى الله عنه ـ بضعة وأربعين رجلا ، ولكنهم باسلام عمر وحمزة أصبحوا وكأنهم أضعاف هذا العدد مرات ومرات .

وقد وردت روايات كثيرة فى قصة إسلام عمر ـ رضى الله عنه ـ ذكرنا بعضها فيما سبق[٢٦٢] . . ولكن لانرى بأسا من ذكرها هنا كما جاءت على لسان عمر نفسه . .

عمر يقص قصة اسلامه بنفسه

ولنترك الفاروق ـ رضى الله عنه ـ يقص لنا قصة إسلامه :

---

(٢٦١) شرح المواهب اللدنية جـ١ ص ٢٧٣

(٢٦٢) المرجع السابق

قال أسلم مولى عمر - رضى الله عنه - قال لنا عمر : أتحبون أن أعلمكم كيف كان إسلامى ؟

قلنا : نعم

قال : كنت من أشد الناس على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فبينما أنا فى يوم حار شديد الحر بالهاجرة فى بعض طرق مكة إذ لقينى رجل من قريش ، فقال : أين تذهب ؟

انك تزعم أنك أشدنا على محمد وقد دخل عليك أمره فى بيتك ؟

قلت : وما ذاك ؟

قال : أختك قد صبأت .

فرجعت مغضبا ، وقد كان - صلى الله عليه وسلم - يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة ، فيكونان معه ويصيبان من طعامه ، وقد ضم إلى زوج أختى رجلين .

فجئت حتى قرعت الباب ، فقيل : من هذا ؟

قلت : ابن الخطاب .

قال : وكان القوم جلوسا يقرءون صحيفة معهم ، فلما سمعوا صوتى تبادروا واختفوا ونسوا الصحيفة من أيديهم .

فقامت المرأة - يعنى أخته - ففتحت لى - فدخلت عليها ، فقلت : يا عدوة نفسها ، قد بلغنى عنك أنك صبأت . ثم ضربتها . فسال الدم ، فلما رأت الدم بكت وغضبت ، وقالت : أتضربنى يا عدو الله على أن أوحد الله ،

لقد أسلمنا على رغم أنفك يابن الخطاب فما كنت فاعلا فافعل فقد أسلمت .

وفى رواية أخرى : فلما جئت الباب سمعت همهمة ، فقلت : ما هذا ؟ فقال ختنه : ما عدا حديثا كنا نتحدثه .

قال : فما زال الكلام بيننا حتى أخذت برأس ختنى فضربته وأدميته ، فقامت إلىَّ أختى ، فأخذت برأسى ، وقالت : قد كان ذلك على رغم أنفك .

قال : فاستحييت حين رأيت الدماء . .

قال : ورأيت الكتاب فى ناحية البيت ، فقلت : ما هذا الكتاب ؟ أعطنيه .

فقالت : لا أعطيكه ، لست من أهله وهذا لايمسه إلا المطهرون .

قال : فلم أزل بها حتى أعطتنيه .

وقيل : لم تعطه الصحيفة إلا بعد أن اغتسل وتطهر ـ

وتناول عمر الصحيفة وأخذ يقرأ .

قال عمر : فإذا ـ فى الصحيفة ـ « بسم الله الرحمن الرحيم » فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ، ورميت الصحيفة من يدى ، ثم رجعت إلى نفسى فأخذتها فإذا فيها :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣ ﴾ (٢٦٣)

إلى قوله ـ تعالى ـ « ان كنتم مؤمنين »

---

(٢٦٣) الحديد ١ ـ ٣

فقلت : أشهد أن لااله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .
وفى رواية أخرى . أن الآيات التى قرأها : «بسم الله الرحمن الرحيم .

﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ (٢٦٤)

فلما قرأ البسملة قال : هذه أسماء طيبة طاهرة . .
ولما قرأ الآيات : عظمت فى صدرة وقال : أمن هذا فرت قريش ؟ ثم أسلم .
وفرح القوم باسلام عمر ، وخرج من كان مختبئا فى الدار وكبروا وقالوا : أبشر يابن الخطاب ، فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا يوم الاثنين فقال : اللهم أعز ، دينك بأحب الرجلين إليك : إما أبو جهل بن هشام ، وإما عمر بن الخطاب ، وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لك فأبشر .
قال عمر : قلت : أخبرونى أين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ؟
فلما عرفوا الصدق منى قالوا : فى بيت بأسفل الصفا . فخرجت ، حتى قرعت الباب عليهم . فقالوا : من هذا ؟

---

(٢٦٤) طه ١ : ٨

قلت : ابن الخطاب .

قال : وقد علموا من شدتى على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما يعلمون باسلامى ، فما اجترأ أحد منهم بفتح الباب . حتى قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : افتحوا له إن يرد الله به خيرا يهده .

ففتحوا لى الباب ، فأخذ رجلان بعضدى ، حتى أتيا بى إلى النبى - صلى الله عليه وسلم فقال : خلوا عنه ، ثم أخذ بمجامع قميصى ، ثم جذبنى إليه ، ثم قال : أسلم يابن الخطاب ، اللهم اهده ، فقلت : أشهد أن لا اله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله .

فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بفجاج مكة . . .

عمر يعلن إسلامه :

وليس مثل عمر - رضى الله عنه - يستخفى باسلامه كبقية المسلمين ، ولكنه أراد أن يعلن عن نفسه ، وأن يعرف القرشيون جميعا أنه أسلم . إن المسلمين أخفوا إسلامهم خوفا من الأذى أو خوفا من الفتنة ، ولكن ابن الخطاب من أى شىء يخاف ؟

أيخاف من الأذى ؟ ومن الذى يجرؤ على إيذائه ؟

أم يخاف من الفتنة ؟ وهو لم يؤمن إلا بعد أن ملأ الايمان قلبه وكيانه وروحه . لقد نطق بالشهادتين عن اقتناع كامل ويقين تام ، وما فى الأرض قوة يمكن أن تزحزحه عن هذه العقيدة . .

فليعلن عن نفسه إذن . .

واسمع اليه أيضا يتحدث عن ذلك فيما يرويه البيهقى :

قال : فخرجت حتى جئت خالى ، وكان شريفا ، فقرعت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟

قلت : ابن الخطاب .

قال : فخرج الىّ .

فقلت : هل علمت أنى قد أسلمت ؟

قال : أوفعلت ؟

قلت : نعم .

قال : لاتفعل .

قلت : قد فعلت .

قال عمر : فدخل وأغلق الباب دونى ـ وفى رواية أنه أغلق الباب وقال : بئس ما جئتنى به .

قال عمر ـ رضى الله عنه ـ : فقلت : ما هذا شيء فذهبت الى رجل من عظماء قريش فناديته ، فخرج إلى ، فقلت مثل مقالتى لخالى ، وقال مثل ما قال ، ودخل ، وأجاف الباب دونى . أى أغلق الباب دونى ، ولم يكتف عمر بذلك ، لقد خشى أن لايفشى هذان الرجلان خبر إسلامه أمام الناس وربما أخفيا ذلك فعلا ، لأنهما حريصان على ألا يذيع مثل هذا الخبر فيفتح الطريق لغير عمر أن يسلم . وعمر ليس بالمرء المهين الذى لايقتدى به غيره . إن إسلامه لو فشا لوجد من المترددين الذى يخشون الخروج على طاعة هؤلاء الكبراء من يسرع إلى الاقتداء به ، وقطع عوامل التردد فى نفسه . .

ولذلك فقد عول عمر على أن يسلك طريقا آخر فى الإعلان عن إسلامه . .

وقد أشار العقاد الى ذلك فى عبقرية عمر قال :

« أبى من اللحظة الأولى إلا أن يواجه الخطر الأكبر فى سبيل دينه ، والا أن

يقبض على الثور من قرنيه كما يقول الغربيون فى أمثالهم ، وأن يتحدى قريشا بحقه مذ آمن بأنهم على باطل ، فسأل أناسا : أى أهل مكة أنقل للحديث ؟

قيل له : جميل بن معمر الجمحى .

فذهب اليه فصرح له باسلامه ، ولم يكذب الرجل الظن به ، فما هو الا أن سمعها حتى خرج وعمر وراءه إلى أندية قريش حول الكعبة يصرخ بأعلى صوته على باب المسجد : يا معشر قريش ، ألا إن عمر بن الخطاب قد صبا .

وعمر يقول من خلفه : كذب ، ولكنى أسلمت وشهدت أن لا اله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله »

ولقد ملأ اليقين نفس عمر ، واستولى الايمان على قلبه تماما ، واستيقظت مشاعر الحب لهذا الدين فى قلبه حتى ملأت كيانه كله ..

ولم يعد الخوف من قريش يشغله ، لقد هانت قريش كلها فى نظره ... بل الذى يشغله الآن كيف عُذِّب المسلمون ولم يعذب هو؟ لقد أراد أن يذوق حلاوة الأذى فى سبيل الله ..

لقد طالما عُذِّب المسلمون فى سبيل الله .. وما كان يرى أحدا من هؤلاء المعذبين يتراجع عن إسلامه رغم الأذى .. فما سبب ذلك ؟

لقد عذب بيده « زنِّيرة » وضربها ضربا عنيفا على إسلامها .. كان يضربها حتى يتعب من شدة الضرب ويقول : ما تركت ضربك إلا ملالة . وذهب بصرها من التعذيب ، فأرجفت قريش أن اللات والعزى أعمتها ، ولكنها كذبت قولهم وقالت : وما تغنى اللات والعزى عن نفسها شيئا ، إنما ذلك من السماء وان الله لقادر على أن يرد بصرى ، وصدقها الله ـ سبحانه

وتعالى ـ ورد بصرها ـ وقد سبق أن أشرنا الى هذه القصة ـ وفيها أن الذى كان يعذبها أبو جهل ولا مانع من أن يكون كلاهما قد اشترك فى تعذيبها . . لقد كان الكفار يستهزئون بالمسلمين أن ضموا بين صفوفهم « زنيرة » وأمثالها من المستضعفين ، وكانوا يقولون : لو كان هذا الدين خيرا ما سبقتنا اليه زنيرة . . وقد سجل القرآن الكريم عليهم هذا القول ، فنزل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ (٢٦٥)

ذكر ذلك الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية .

لقد أراد عمر أن يذوق لذة هذا التعذيب . . قال العقاد : « فما شغله أمر بعد إعلان الدين إلا أن يخرج ليضربه أناس كما كان يضرب أناسا فى سبيل ذلك الدين . قام الى الناس يضربونه ويضربهم ، فقام خاله يسأل :

ما هذه الجماعة ؟ قيل له : إن إبن الخطاب قد صبأ .

فقام خاله على الحجر فنادى : ألا إنى قد أجرت ابن أختى .

فانكشف الناس عنه . فكان لايزال يرى مسلما يضرب ولا يضربه أحد .

وثقل عليه ألا يصيبه ما يصيب المسلمين ، فذهب الى خاله وقد اجتمع الناس فى الحجر وناداه : اسمع يا خال ، جوارك مردود عليك .

قال خاله : ـ وهو به ربما يستهدف له أدرى : لاتفعل يابن أختى .

فأصر على رد جواره ، وطاب له بعد ذلك أنه اقتص من نفسه للأبرياء الذين ضربهم وهو يجهل دينهم ، فلا تمضى تلك الضربات بغير قصاص ،

---

(٢٦٥) الأحقاف ١١

وان كفّر عنها بالتوبة واعزاز الدين الذى أذاهم من أجله »(٢٦٦)

بل إنه انتقل خطوة أوسع ـ قال فى نفسه : ما بالى كنت أضرب الناس على الايمان ولا أضربهم الآن على الكفر ؟

إنه لن يكون مؤمنا حقا حتى تكون غيرته على دينه الجديد كغيرته على ذلك الدين الذى عز عليه أن يهجره الناس فآذاهم لذلك .

وتحرش بالمشركين ، ولم تلبث أن نشبت معركة بينه وبينهم ووثب على أدناهم منه واجرئهم عليه ، وكان هو « عتبة بن ربيعة » وهو صنديد من صناديد الكفر ومن أكبر المناوئين لدعوة الاسلام ، وصرعه عمر وبرك عليه وأخذ يضربه وأدخل إصبعيه فى عينيه لأنهما ـ كما يقول العقاد ـ عمياوان عن الحق لايبصران النور .

وتكاثر عليه المشركون فلا يدنو منهم أحد إلا صرعه . حتى أحجموا عنه ، وفتر من طول الصراع ، فجلس ، وهم قائمون ولكنهم لايملكون إلا شتمه وثلبه . فقال لهم : افعلوا ما بدا لكم ، فوالله لو كنا ثلثمائة رجل لتركتموها لنا أو تركناها لكم ـ يقصد مكة ـ افعلوا ما بدا لكم ـ . . وأدرك أنه فعل شيئا يرضى ضميره فى سبيل هذا الدين الذى اعتنقه وشيكا وأدرك أنه الحق .

لقد رضى ، وقد أدرك انه عُذِّب كما عُذِّب غيره ، وعَذَّب غيرِه على كفره كما عذَّب غيره لايمانه . .

إنه الانتصاف من النفس ، وما أجدر عمر بذلك

ولكن الخطوة الكبرى لم تأت بعد . .

إنه الآن ينطلق إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سائلا : ألسنا على الحق يا رسول الله ؟

---

(٢٦٦) عبقرية عمر ص ٩٦ ط وزارة التعليم ، دلائل النبوة للبيهقي جـ٢ ص ٢١٨

ويجيبه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بلى ، إننا على الحق إن متنا وإن حيينا .

ويقول عمر : ففيم إذن الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لنخرجن . هذا هو عمر الذى أعزه الاسلام . لابد أن ينتفع به الاسلام . .

واستجاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاقتراح عمر . . وقد كان ينتظر ذلك اليوم .

فخرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه المسلمون من دار الأرقم بن أبى الأرقم فى صفين . يشقون الطريق الى المسجد ، وعلى رأس أحد الصفين عمر وعلى رأس الآخر حمزة . .

ووصل هذا الموكب الايمانى إلى المسجد الحرام ، يتصاعد من تحت أقدامهم تراب ناعم شبهه الرواة بكديد الطحين ورأى المشركون هذا الموكب الصغير عدده القوى روحه ، فعلتهم كآبة ، وشملهم خذلان ، وأحاط بهم خزى من الله ، فقد جبن كل منهم أن يعترض هذا الموكب أو يقترب من أحد صفيه ، أو يتفوه بأى كلمة من كلمات السخرية التى كانت تمتلىء بها أفواههم قبل أن يسلم الفاروق . .

لقد تغير وجه الموقف بين عشية وضحاها . .

وأصبح المسلمون المقهورون على قلتهم عصبة قوية تستطيع أن تعلن عن نفسها فى ثقة واعتزاز . . فكان جديرا أن يلقب النبى ـ صلى الله عليه وسلم عمر بعد هذا بالفاروق ، لأنه فرق بين الحق والباطل . .

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : « لما أسلم عمر قال جبريل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم : يا محمد لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر » ذلك أن الله أعز به الدين ونصر به المستضعفين . .

وقال ابن مسعود : كان إسلام عمر عزا ، وهجرته نصرا ، وامارته رحمة ، والله ما استطعنا أن نصلى حول البيت ظاهرين حتى أسلم عمر .

وقال صهيب : لما أسلم عمر قال المشركون انتصف القوم منا .[٢٦٧]

وهناك روايات أخرى فى إسلام عمر ، منها ما ذكره السهيلى فى كتابه « الروض الأنف » قال : حدثنا أبو المغيرة قال : حدثنا صفوان بن عمرو ، قال : حدثنى شريح بن عبيد قال : قال عمر بن الخطاب : خرجت أتعرض لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقنى إلى المسجد ، فقمت خلفه فاستفتح سورة « الحاقة » فجعلت أتعجب من تأليف القرآن .

قال : قلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش .

فقرأ

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [٢٦٨]

قال : قلت : كاهن علم ما فى نفسى . فقال :

﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [٢٦٩]

إلى آخر السورة .

قال : فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع .

وسجل عمر إسلامه بشعره ، وقال فى ذلك : ـ

الحمـــد لله ذى المن الذى وجبــت	لــه علينــا أياد مالهــا غيــر

---

(٢٦٧) المواهب اللدنية جـ ١ ص ٢٧٧

(٢٦٨) الحاقة ٤٠ : ٤١

(٢٦٩) الحاقة ٤٢

وقد بدأنا فكذبنا ، فقال لنا صدق الحديث : نبي عنده الخبر
وقد ظلمت ابنة الخطاب ثم هدى ربي عشية قالوا : قد صبا عمر
وقد ندمت على ما كان من زلل بظلمها حين تتلى عندها السور
لما دعت ربها ذا العرش جاهدة والدمع من عينها عجلان يبتدر
أيقنت أن الذي تدعوه خالقها فكاد تسبقني من عبرة درر
فقلت : أشهد أن الله خالقنا وافي الأمانة ما في دينه خور(٢٧٠)

الكفر يواصل تحديه

ولكن هل كف المشركون عن عنادهم باسلام عمر ؟

إنهم قد زلزلوا حقا ، وفقدوا صوابهم ولكن إلى حين ، فإنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى ما كانوا عليه من كفر وشقاق ، وتحد لهذه الدعوة الجديدة .

فأقبلوا على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطلبون منه الآية تلو الآية . .

آية انشقاق القمر

وكانت قريش قوما خصمين كما ذكرهم القرآن ، قالوا له : أرنا آية حتى نؤمن بك .

فأراهم الله آية انشقاق القمر . ذكر البيهقي في دلائل النبوة هذه الواقعة وأتى بمصادر متعددة لها . ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أنس قال : إن أهل مكة سألوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم آية فأراهم القمر مرتين انشقاقه » أي فأراهم انشقاق القمر مرتين . .

وقد سجل القرآن الكريم هذه الحادثة في قوله تعالى :

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ

---

(٢٧٠) الروض الأنف جـ٢ ص ٩٩

مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ
﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ
بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ
نُّكُرٍ ﴿٦﴾ ﴾ (٢٧١)

لقد صار القمر فلقتين فلقة فوق جبل ، وفلقة فوق جبل آخر ، فقالوا سحرنا محمد .

ولكن إن كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ سحر القرشيين ، فهل سحر الناس كلهم فى كل مكان هؤلاء الذين عاينوا القمر مقسوما شطرين ؟

ولكنها المكابرة التى أعمتهم عن سبيل الحق ، وصدتهم عن طريق الصواب لقد كان انشقاق القمر ردا على تحدى الكفار للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يريهم آية فيؤمنوا . ولكنهم لم يؤمنوا .

قال القرطبى راويا ما ذكره ابن عباس قال : اجتمع المشركون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا : إن كنت صادقا فاشقق لنا القمر نصفين

فقال لهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن فعلت تؤمنون ؟

قالوا : نعم ـ وكانت ليلة بدر ـ

فسأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ربه أن يعطيه ما قالوا فانشق القمر نصفين ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينادى المشركين يا فلان ، يا فلان ، اشهدوا .

---

(٢٧١) القمر ١ : ٦

قال ابن مسعود : فقالت قريش : هذا من سحر محمد ، سحركم ، فاسألوا السفار ـ أى الذين كانوا فى سفر ، فسألهم ، فقالوا قد رأينا القمر انشق ، فنزلت « اقتربت الساعة وانشق القمر »

وقد جعل الله تعالى ـ هذه الآية علامة من علامات قرب القيامة ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبر عن قرب الساعة ببعثه ، فقال : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وقرن بين السبابة والوسطى .

ومعنى ذلك أنه خاتم الرسل ، ولن يأتى رسول بعده لينذر الناس .

ومن أسمائه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أنا الحاشر وأنا العاقب ـ أى الذى يحشر الناس على قدمه ولا يعقبه أحد من الأنبياء .

إنكارهم البعث

وكان إنكارهم الشديد للبعث الذى جعل الله الايمان به جزءا من عقيدة الإسلام . سبباً من أسباب تماديهم فى الكفر وتمسكهم بما هم فيه من ضلال . .

إنهم يرون أن الناس يموتون فلا يعودون . فكيف يصدقون أنهم يبعثون ؟

إن قضية البعث عرضها القرآن الكريم فى آيات كثيرة ، وأثبت إمكانها فى مواضع متعددة ، والمشاهدات اليومية تثبت قضية البعث بما لا يحتاج إلى دليل . .

فالنوم واليقظة وهما دائبان مستمران لاينقطعان عن حى ، أمر مشاهد محسوس فما بالهم يصدقون بانتباه الانسان من نوم عميق كان فيه أشبه بالميت ولا يصدقون بانتباهه من نومه الآخر ليحاسب على ما قدمت يداه ؟

قال الحلبى فى سيرته : إن قريشا فى تحديها للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ طلبت منه قائلة : سل ربك يسيِّر عنا هذه الجبال التى ضيقت علينا ويبسط لنا بلادنا ويشق فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا قصى بن كلاب ، فانه كان شيخ صدق ، فنسأله عما تقول أحق هو أم باطل ، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا منزلتك من الله ـ تعالى ـ وأنه بعثك إلينا رسولا كما تقول . فقال لهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما بهذا بعثت لكم ، إنما جئت من الله بما بعثنى به »(٢٧٢)

لقد استنكر القرشيون البعث تماما ، وعارضوه بكل قوة ، لقد كانوا يقولون : ما حكاه القرآن عنهم

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾(٢٧٣)

جاء فى سيرة ابن هشام :

مشى أُبىُّ بن خلف الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعظم بال فقال : يا محمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم ؟ ثم فته بيده ، ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : نعم أنا أقول ذلك ، يبعثه الله

---

(٢٧٢) السيرة الحلبية جـ١ ص ٤٩٥

(٢٧٣) الجاثية ٢٤ : ٢٦

وإياك بعد ما تكونان هكذا ، ثم يدخلك الله النار .

فأنزل الله ـ سبحانه قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (٢٧٤)

الحياة الآخرة

إن وقوف مشركى قريش بكل ما أوتوا من قوة أمام الإيمان بالبعث ، يستدعى حديثا خاصا عن هذه الحياة الأخرى ، وهى الحياة الأبدية التى خلق الانسان من أجلها ، وجعل الدنيا معبرا لها . . وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يلح عليها فى أحاديثه ، ويركز على توجيه الأنظار إلى ما يدعو إلى الايمان بها لأن النفوس درجت على الإيمان بما هو محسوس فحسب ، وما وراء المادة شىء لاتقبل النفس على الايمان به بسهولة . . ومن هنا وجدت دعوات الالحاديين والماديين فى العصر الحديث رواجا كبيرا ، بعد أن ارتدت الانسانية الى جاهليتها الأولى ، وطغت المادة فى الأرض ، وفشا الضلال حتى أصبحت الغيبيات التى جاءت بها الأديان ودعت الى التصديق بها شيئا يحتاج الى مائة دليل وبرهان . .

---

(٢٧٤) يس ٧٨

ومن هنا كان للحديث عن الحياة الآخرة أهمية خاصة لأنه يناقش منطق الجاهلية الأولى وجاهلية القرن العشرين .

ونستعين في حديثنا عن الحياة الآخرة بما كتبه علماؤنا الأفاضل من أمثال الغزالي في كتابه ـ إحياء علوم الدين ـ والقرطبي في تذكرته وابن القيم في كتاب الروح ، وغيرهم من العلماء . .

الايمان باليوم الآخر جزء من عقيدة المسلم :

تقوم عقيدة المؤمن كما سبق أن ذكرنا على الأساس الذي بينه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : في الحديث الصحيح المشهور الذي روى عن عمر بن الخطاب من أن جبريل سأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الايمان فقال له : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره وحلوه ومره . .

والايمان باليوم الآخر هو من الأسس التي ينبغي أن نؤمن بوجودها طالما سمعنا من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الاخبار بها . هذا هو الغيب الذي أشار اليه الحق في قوله ـ تعالى ـ

« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون »

إن الإيمان باليوم الآخر أمر يستدعيه العدل الإلهي الذي لم يخلق أي شيء عبثاً . .

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ (٢٧٦)

---

(٢٧٥) البقرة ٢ : ٥

(٢٧٦) المؤمنون ١١٥

ولو أن الحياة منتهية فى الدنيا لانتفت الحكمة الالهية من خلق الخلق .

وقد تنبه إلى ذلك بعض الجاهليين أنفسهم الذين أعملوا عقولهم ، وأدركوا بوحى الفطرة الصائبة أن هناك حياة أخرى يبعث فيها المرء فيحاسب على ما قدمت يداه . .

بل إن ذلك أمر تكاد معرفته أن تكون متفقا عليها من جميع العقلاء فى كل زمان ومكان . .

ولذلك يقول الشيخ محمد عبده « اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين علماء وفلاسفة الا قليلا لا يقام لهم وزن على أن لنفس الانسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن ، وأنها لا تموت موت فناء . وانما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وإن اختلفت منازعهم فى تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه . .

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبث فى جميع الأنفس عالمها وجاهلها ، باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها لا يمكن أن يعد ضلة عقلية أو نزعة وهمية ، وانما هو من الأمور الثابتة فى الأديان السماوية ، والتى يقرها عقل الانسان وفكره . وهما طريق الانسان الى المعرفة واليقين وإن ذهب البعض إلى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للإرشاد فى عمل ما ، أو إلى أنه لا يمكن للعقل أن يوقن باعتقاد ولا للفكر أن يصل الى مجهول ، بل قالوا إنه لا وجود للعالم الا فى اختراع الخيال ، وأنهم شاكون حتى فى أنهم شاكون . . »[٢٧٧] . وأى شىء يمكن أن يقال لمن هو شاك فى كل شىء .

وقد كان الجاهليون من هذا القبيل الذين لم يستسيغوا حتى مجرد التفكير فى هذا الموضوع . إنهم القلة التى عناها الامام محمد عبده بأنهم لا يقام لهم

---

(٢٧٧) رسالة التوحيد للامام محمد عبده ص ٩٠

وزن . وكيف يقام لهم وزن والحق يقول فى وصفهم :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩ ﴾

لقد جاء الاسلام ليوضح للناس معالم طريقهم ، ويوضح لهم أنهم لم يخلقوا عبثا . وأنهم سوف يبعثون ويحشرون ويحاسبون ويجازون على ما قدمت أيديهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

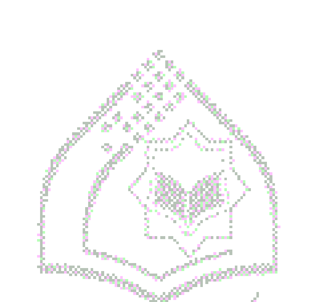
ويقوم الايمان بالحياة الآخرة على هذه المعالم :

السؤال فى القبر . .

عذاب القبر ونعيمه

الحشر والنشر

الحساب والميزان



الصراط

الجنة والنار . .

وهناك من الأدلة النقلية ما يؤيد ذلك الى جانب تأييد العقل الثاقب والفكر الصائب .

أما عذاب القبر فيؤيده قوله ـ تعالى ـ فى حق آل فرعون :

﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦ ﴾ (٢٧٩)

وقد ورد فى صحيح الحديث أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يستعيذ من عذاب القبر .

---

(٢٧٨) الأعراف ١٧٩

(٢٧٩) غافر ٤٦

ومتى كان العذاب ثابتا ، فمقابله وهو النعيم لابد أن يكون ثابتا .

وأما سؤال القبر . فقد وردت فيه أحاديث صحيحة تثبته وتؤكده . ولا يدفع ذلك أننا لا نسمع هذا السؤال ولو كنا قريبين من القبر . فإن النائم ساكن بظاهره ويدرك بباطنه من الآلام واللذات ما يحس بتأثيره ، وقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يسمع كلام جبريل - عليه السلام - ويشاهده ، ومن حوله لا يسمعونه ولا يرونه .

وأما الحشر والنشر فقد أخبرنا به القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قال تعالى :

﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) ﴾ (٢٨٠)

وقال تعالى

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥) ﴾ (٢٨١)

وقال :

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) ﴾ (٢٨٢)

وقد جاء في الحساب قوله - تعالى -

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨)
وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ (١٠) فَسَوْفَ
يَدْعُوا۟ ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُۥ ظَنَّ

---

(٢٨٠) الكهف ٤٧

(٢٨١) مريم ٨٥

(٢٨٢) طه ١٠٢

﴿أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾ (٢٨٣)

وغير ذلك من الآيات

وأما الميزان فهو ثابت بقوله ـ تعالى ـ

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ (٢٨٤)

وغير ذلك من الآيات.

أما الصراط فهو من قوله ـ تعالى ـ

﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ (٢٨٥)

أما الجنة والنار، فما أكثر الآيات الدالة عليهما، المتحدثة عنهما، الواصفة لأحوالهما . .

وسنحاول بتوفيق الله ـ تعالى ـ الاجابة على بعض التساؤلات التي تدور في الأذهان حول الحياة الآخرة . .

متى تبدأ الحياة الآخرة ؟

تبدأ الحياة الآخرة بالموت .

والقبر هو أول منازل الآخرة .

ذكر القرطبي عن ابن ماجة عن هانىء بن عثمان قال : كان عثمان ـ رضي

---

(٢٨٣) الانشقاق ٧ : ١٥

(٢٨٤) الأنبياء ٤٧

(٢٨٥) الصافات ٢٢ : ٢٤

الله عنه ـ إذا وقف على قبر بكى حتى تبتل لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار ولا تبكى ، وتبكى من هذا ؟

قال : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إن القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه أحد فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه . . (٢٨٦)

وكان عثمان ينشد على قبر :

فإن تنج منها تنج من ذى عضيمة   والا فإنى لا إخالك ناجيا

والموت قاس على كل نفس مهما كانت درجتها فى الايمان ، حتى لقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول فى دعائه : اللهم أعنى على سكرات الموت .

قال الامام الغزالى : واعلم أن شدة الألم فى سكرات الموت لا يعرفها فى الحقيقة الا من ذاقها ، ومن لم يذقها فانما يعرفها بالقياس الى الآلام التى أدركها ، أو بالاستدلال بأحوال الناس فى النزع على شدة ماهم فيه .

فأما القياس الذى يشهد له فهو أن كل عضو لاروح فيه لا يحس بالألم ، فاذا كان فيه روح أحس بذلك فالمدرك للألم هو الروح . فمهما أصاب العضو من جرح أو حرق سرى الأثر الى الروح فيتألم ـ فأجزاء الجسم التى تباشرها الآلام ، إنما تتألم لما فيها من روح تعطى لتلك الأجزاء الحس والشعور . فان كان فى الآلام ما يباشر نفس الروح فما أعظم ذلك الألم وأشده . (٢٨٧)

ان ألم النزع الذى ينزل بالروح . هو أعظم الألم وأشده .

---

(٢٨٦) التذكرة ص ٨٨

(٢٨٧) إحياء علوم الدين للغزالى جـ ٤ ص ٢٨٦٥ ط دار الشعب

روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذكر الموت وغصته وألمه فقال : « هو قدر ثلثمائة ضربة سيف »

وكان الامام على - كرم الله وجهه - يحض على القتال فيقول: « إن لم تقتلوا تموتوا . والذى نفسى بيده لألف ضربة بالسيف أهون علىّ من موت على فراش » . فنزع الروح أصعب شيء وأشقه على الفساق والعصاة ، ولكن الحق-سبحانه وتعالى-ييسر ذلك ويسهله على المؤمن الصالح ، لأنه على الرغم من صعوبته أول راحة المؤمن .

وقد ذكر السيوطى عدة أحاديث توضح فضل الـموت وأنه خير من الحياة عند المؤمن . . ومما أورده فى ذلك .

عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحفة المؤمن الموت . .(٢٨٨)

وأورد عن الحسين بن على أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « الموت ريحانة المؤمن »(٢٨٩)

وذكر عن محمود بن لبيد أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « يكره ابن آدم الموت ، والموت خير له من الفتنة »(٢٩٠)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « الدنيا سجن المؤمن وسنته فاذا فارق الدنيا فارق السجن والسنة »(٢٩١)

ومعنى السنةُ : الجدب

---

(٢٨٨) أخرجه الطبرانى فى الكبير ورجاله ثقات
(٢٨٩) الحديث فى جمع الجوامع ١ / ٤٤٩
(٢٩٠) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده
(٢٩١) أورده السيوطى فى الصغير

ومن دعاء النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما يُرْوَى عن أبى مالك الأشعرى : « اللهم حبب الموت الى من يعلم أنى رسولك »

وتعليل ذلك أن المؤمن الصادق يوقن بأن ماعند الله خير وأبقى فهو يرغب فيه وقد قال تعالى :

﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾ (٢٩٢)

أما الكافر فهو يائس من الآخرة لا ينتظر بعد الموت نشورا ولا نعيما .

حياة البرزخ :

اذا مات الميت انتقل الى البرزخ ، قال - تعالى -

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (٢٩٣)

والبرزخ - كما فسره القرطبى - حاجز بين الموت والبعث ، فمن مات فقد دخل البرزخ ، قال رجل بحضرة الشعبى : رحم الله فلانا فقد صار من أهل الآخرة . فقال : لم يصر من أهل الآخرة ، ولكنه صار من أهل البرزخ وليس من الدنيا ولا الآخرة .

وقد وردت كلمة البرزخ بمعنى الحاجز فى قوله - تعالى - :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾ (٢٩٤)

---

(٢٩٢) آل عمران ١٩٨

(٢٩٣) المؤمنون ٩٩ ، ١٠٠

(٢٩٤) الفرقان ٥٣

وفى قوله تعالى : ـ

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٢٩٥)

ولكن حاجز مابين البحرين بخلاف الحاجز بين الدنيا والآخرة .

وهذا البرزخ يشرف فيه أهله على الدنيا والآخرة . والمؤمن منعم فيه لأنه ينظر الى ماأعده الله له فى آخرته من نعيم .

والكافر فيه معذب . لأنه يرقب منه مصيره الى النار .

والبرزخ هو أول دار الجزاء ـ كما يقول ابن القيم (٢٩٦) يظهر فيه ما يليق بتلك الدار وماتقضى الحكمة إظهاره . فعذاب البرزخ ونعيمه أول عذاب الآخرة ونعيمها فبشريات النعيم ونذر العذاب يصلان الى أهل البرزخ كما دل على ذلك القرآن والسنة الصحيحة الصريحة فى غير موضع كقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حق المؤمن : « فيفتح له باب الى الجنة فيأتيه من روحها ونعيمها » وفى الفاجر : « فيفتح له باب الى النار فيأتيه من حرها وسمومها »

قال ابن القيم : ومعلوم أن البدن يأخذ حظه من هذا الباب كما تأخذ الروح حظها ، فاذا كان يوم القيامة دخل من ذلك الباب الى مقعده الذى هو داخله .

ماقاله العلماء عن الموت :

قال العلماء : الموت ليس بعدم محض ولافناء صرف . . وانما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ، ومفارقة وحيلولة بينهما ، وتبدل حال وانتقال من دار الى دار ، والله ـ سبحانه ـ لم يخلق الناس للفناء ، والا تعطلت الحكمة من

---

(٢٩٥) الرحمن ١٩ ، ٢٠

(٢٩٦) الروح ص ١٠٠

خلقهم ، وإنما خلقهم للبقاء فى دار أخرى غير دار الدنيا حيث يثابون أو يعاقبون .

وقد تنبه المعرى لهذه الحكمة فقال :

خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبونهم للنفاد
انما ينقلون من دار أعمال الى دار شقوة أو رشاد

وهذا ما قاله بلال بن سعد : إنكم لن تخلقوا للفناء وانما خلقتم للخلود والأبد ولكنكم تنتقلون من دار الى دار .

قال ابن القاسم : للنفس أربعة دور كل دار أعظم من التى قبلها :

الأولى بطن الأم وذلك محل الضيق والحصر والظلمات الثلاث ـ لعله يقصد ظلمة البطن والرحم والمشيمة ـ والثانية هى الدار التى انشأتها وألفتها واكتسبت فيها الخير والشر . وهى الدار الدنيا .

والثالثة هى دار البرزخ ، وهو أوسع من هذه الدار وأعظم ، ونسبة هذه الدار الدنيا إليها كنسبة البطن إلى دار الدنيا .

والرابعة هى دار القرار ، الجنة أو النار ، وللنفس فى كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الأخرى .

ومن العجيب أن النفس عادة تألف المكان الذى تقيم فيه ، فإذا ما فارقته تألمت على الرغم من ضيقه ورحابة ما هى منتقلة إليه . .

فالطفل حين يولد يبكى على فراق بطن أمه مع أنه خارج إلى سعة الدنيا . .

وحين يموت يبكى ويتألم ويود لو بقى فى دنياه مع أنه منطلق إلى ما هو أوسع وأرحب . .

وقد فلسف ابن الرومى بكاء الطفل عند ولادته فلسفة أخرى فقال :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأوسع مما كان فيه وأرغد ؟

وذكر السيوطى أثرا فى حال المؤمن عند انتقاله من الدنيا فقال : « إن مثل المؤمن فى الدنيا كمثل الجنين فى بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه ، حتى إذا رأى الضوء ورضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه ، وكذلك المؤمن يجزع من الموت فإذا مضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا ، كما لايحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه[٢٩٧]

حالة المؤمن عند قبض روحه

مر بنا فى حديثنا عن الروح ما رواه البراء بن عازب عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشأن قبض روح المؤمن ، وأن المؤمن تنزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس فيطمئنونه ويقبضون روحه إلى رحمة الله ومغفرته ورضوانه وعلى النقيض من ذلك الكافر . .

وقد ورد فى معنى الحديث « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » أن الله سبحانه وتعالى يبشر المؤمن قبل موته ويريه مقعده من الجنة ، فيفرح بلقاء الله ويحب لقاء الله . .

أخرج ابن أبى الدنيا ـ رضى الله عنه ـ مرفوعا : « إن المؤمن إذا احتضر ورأى ما أعد الله له جعل يحرص على أن تخرج نفسه لأنه أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ، وأن الكافر إذا احتضر ورأى ما أعد له جعل يتمنى عدم خروج نفسه كراهية أن تخرج ، فهناك كره لقاء الله وكره الله لقاءه .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ : قال :

---

(٢٩٧) بشرى الكئيب بلقاء الحبيب للسيوطى ص ٢٢

« لايقبض المؤمن حتى يرى من البشرى ، فإذا قبض نادى ـ وليس فى الدار دابة صغيرة ولا كبيرة إلا وهى تسمع صوته إلا الثقلين : الجن والإنس ـ تعجلوا بى الى أرحم الراحمين ، فإذا وضع على سريره ـ أى نعشه ـ قال : ما أبطأ ما تمشون ، فإذا أدخل فى لحده أقعد ، فأرى مقعده من الجنة وما أعد الله له ، وملء قبره من روح وريحان ومسك ، فيقول : يا رب قدمنى ، فيقال : إن لك إخوة وأخوات لم يلحقوا نم قرير العين »

إن هذا هو ما يشير إليه قوله ـ تعالى :

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ (٢٩٨)

قال القرطبى فى تفسير هذه الآيات :

ذكر الله طبقات الخلق عند الموت وعند البعث فقال :

فأما إن كان المتوفى من المقربين ـ وهم السابقون ـ فروح وريحان وجنة نعيم .

والروح هو الرحمة والاستراحة والأمن والطمأنينة . . والريحان هو الرائحة الجميلة التى يُتَلَقى بها المؤمن عند قبض روحه ، قال أبو العالية : لايفارق أحدا روحه من المقربين فى الدنيا حتى يُؤْتى بغصنين من ريحان فيشمهما ثم تقبض روحه .

---

(٢٩٨) الواقعة ٨٨ : ٩٦

وأما إذا كان من أصحاب اليمين ، فإنه يتلقى بالتحية والسلام قائلين له : سلام لك ، أى لست ترى إلا ما تحب من السلامة ، لقد نجوت مما تكره ، وهذا ما يوافق قوله تعالى

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٢٩٩)

وقال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام . . .

وأما ـ والعياذ بالله ـ إن كان من المكذبين الضالين فإنهم يتلقون بنزل من حميم وهذا يوافق قوله ـ تعالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (٣٠٠)

إن الله يُرى المؤمن مقعده فى الجنة قبل موته فيطمئن على مصيره . . عن مجاهد فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ

(٢٩٩) النحل ٣٢
(٣٠٠) الواقعة ٥١ : ٥٦

﴿ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٣٠١)

ان ذلك عند الموت . . . .

ولعل هذا ما يفسر سرور المؤمن عند معاينة الموت وإستبشاره ، وما يُرَى على وجهه من علامات النور والوضاءة .

فاذا زفت الروح إلى مثواها الذى انتقلت إليه بعد فراق جسدها استقبلتها أرواح المؤمنين السابقين بفرح وسرور .

قال ابن القيم : الأرواح المنعمة المرسلة غير المحبوسة - وهى أرواح المؤمنين(٣٠٢) - تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ماكان منها فى الدنيا ، وما يكون من أهل الدنيا فتكون كل روح مع مايماثلها فى عملها ، وروح نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - فى الرفيق الأعلى ، قال الله تعالى -

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ (٣٠٣)

قال : وهذه المعية ثابتة فى الدنيا وفى دار البرزخ وفى الدار الآخرة .(٣٠٤)

فقد ورد قوله - صلى الله عليه وسلم : يحشر المرء مع من أحب .

وقال الشعبى : جاء رجل من الأنصار وهو يبكى إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال له النبى : ما يبكيك ؟

---

(٣٠١) فصلت ٣٠ : ٣٢

(٣٠٢) أما أرواح الكفار فهى محبوسة فى سجين

(٣٠٣) النساء ٦٩

(٣٠٤) الروح لابن القيم ص ٢١

فقال : يا نبى الله ، والله الذى لا اله الا هو لأنت أحب إلىَّ من أهلى ومالى ومن نفسى ، وأنا أذكرك أنا وأهلى ـ وأشتاق إليك حتى أراك ، فذكرت موتك وموتى فعرفت أنى لن أراك إلا فى الدنيا وأنك فى الآخرة ترفع فى النبيين وعرفت أنى إن دخلت الجنة كنت أدنى منزلة منك . فلم يرد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئا ، فأنزل الله ـ تعالى هذه الآية :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾[٣٠٥]

وهذا ما يفهم من قوله ـ تعالى

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾[٣٠٦]

أى ادخلى فى جملتهم وكونى معهم . . . وهذا يقال للروح عند الموت[٣٠٧] ويزيد السيوطى[٣٠٨] هذا الأمر توضيحا بما ذكره من آثار . قال :

لما مات بشر بن البراء بن معرور حزنت عليه أمه حزنا شديدا ، فقالت : يا رسول الله لايزال الهالك يهلك من بنى سلمة ، فهل تتعارف الموتى فأرسل إلى بشر السلام ؟

---

(٣٠٥) النساء ٦٩ ، ٧٠
(٣٠٦) الفجر ٢٧ : ٣٠
(٣٠٧) الروح لابن القيم ص ٢٢
(٣٠٨) بشرى الكئيب ص ٣٢

قال : نعم ، والذى نفسى بيده إنهم ليتعارفون كما يتعرف الطير فى رءوس الشجر .

فكان لايهلك هالك من بنى سلمة الا جاءته أم بشر فقالت : يا فلان ، : أقرأ بشرا السلام .

قال : وعن سعيد بن جبير قال : إذا مات الميت استقبله ولده كما يستقبل الغائب . .

ويقصد بولده الذين تقدموه . يؤيد ذلك ما ورد عن ثابت البنانى قال : بلغنا أن الميت إذا مات استوحشه أهله وأقاربه الذين تقدموه من الموتى . فلهم افرح به وهو أفرح بهم من المسافر إذا قدم إلى أهله .

ولم لا ؟ أليست هى حياة حافلة ؟ إنها بالنسبة للمؤمن حافلة بالخير والمسرات ، خالية من الهم والغم الذى يملأ عرصات هذه الحياة الدنيا التى نحياها .

روى أبو أيوب الأنصارى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عباد الله تعالى كما يتلقون البشير من أهل الدنيا ، ويقولون : اتركوا صباحكم يستريح فانه كان فى كرب شديد ، ثم يسألونه : ما فعل فلان ؟ وماذا فعلت فلانة ؟

لم ينس هؤلاء أهلهم فى الدنيا ، وإنهم ليستروحون أخبارهم يريدون أن يطمئنوا عليهم . وإن هذه الأخبار لتصل إليهم فيفرحون بما يفرح ، وربما اغتموا بما يكون سببا للغم .

حدث القرطبى قال :

أخبرنا عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى الثقفى قال : أخبرنى عثمان بن عبد الله بن أوس أن سعيد بن جبير قال له : استأذن لى على ابنة أخى ـ وهى

زوجة عثمان ، وهى ابنة عمرو بن أوس ـ

فاستأذنت له ، فدخل عليها ، ثم قال : كيف يفعل بك زوجك ؟

قالت : إنه إلىّ لمحسن فيما استطاع . فالتفت إلىّ ثم قال : يا عثمان أحسن إليها فانك لاتصنع بها شيئا إلا جاء عمرو بن أوس .

فقلت : وهل تأتى الأموات أخبار الأحياء ؟ أى هل تصل إليهم ؟

قال : نعم ، ما من أحد منهم له حميم يموت إلا ويأتيه بأخبار أقاربه ، فإن كان خيرا سر به وفرح وهنىء ، وان كان شرا ابتأس وحزن[٣٠٩]

ان الموتى يسألون القادم إليهم من دار الدنيا عن كل شىء حتى إنهم ليسألونه كما قال أبو هريرة عن هرّ البيت[٣١٠]

ما هذا الاستقصاء المتناهى ؟ إنه ليدل على أن هناك صلة على وجه ما بين الأموات والأحياء ، وإن هناك حياة متكاملة فى هذه الدار التى انتقل إليها الميت .

زيارة الموتى :

وهذا موضوع يشغل بال الكثيرين من الناس

والمعروف أن تشييع الجنازة أمر واجب تحتمه المروءة والوفاءوالبر ،وقبل ذلك كله يحتمه الدين . . والدين بدعوته الى تشييع الجنائز إنما دعا اليه للعظة والاعتبار والتذكر ، فإنه لاواعظ أوعظ من الموت ـ وقد ورد أنه :

« من أراد واعظا فالموت يكفيه »

والعاقل هو الذى يتعظ بغيره . ويقدر فى نفسه أنه هو الميت المحمول على الأعناق ، ولو قدر ذلك واقتنع به لنفعه ، ودفعه الى الخير ومنعه من الشر .

---

(٣٠٩) التذكرة للقرطبى ص ٦٢

(٣١٠) التذكرة للقرطبى ص ٦٣

يروى أن أبا هريرة - رضى الله عنه - كان إذا رأى جنازة قال : امضوا فإنا على الأثر .

وكان مكحول الدمشقى إذا رأى جنازة قال : اغدوا فإنّا رائحون ، موعظة بليغة وغفلة سريعة ويذهب الأول ،والآخر لا عقل له .

كان شهود الجنائز للعظة والاعتبار فأصبح للمجاملة والافتخار ، وقد تنبه لنبى - صلى الله عليه وسلم - لما سوف يحدث للناس بالنسبة لموقفهم من هذا الحدث اليومى المتكرر دون أن يثير فى النفوس أكثر من احساس وفتى بالتشاؤم والرثاء ، ثم تبحث عن الأثر الذى تركه فى النفس فلاتجد شيئا . .

تنبه النبىّ - صلى الله عليه وسلم - لذلك فوضع للناس منهجا يتبعونه يفيدهم عند مجابهة هذا القضاء المحتوم . . فقال لهم : « أيها الناس كأن الموت على غيرنا كتب ، وكأن الحق فيه على غيرنا وجب ، وكأن مانشيِّعُ من الموتى عن قليل الينا راجعون ، نبوئهم أجداثهم ، ونأكل تراثهم ، كأنا مخلدون من بعدهم ، فطوبى لمن شغله عيبه عن عيب غيره ، طوبى لمن ذل فى نفسه من غير منقصة ، وتواضع لله من غير مسكنة ، وأنفق مالا جمعه من غير معصية ، ورحم أهل الذل والمسكنة ، وخالط أهل الفقه والحكمة ، طوبى لمن ذلت نفسه وطاب كسبه ، وصلحت سريرته ، وحسنت خليقته ، وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن عمل بعلمه ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله(٣١١)

أما زيارة القبور فقد أباحها النبى - صلى الله عليه وسلم - بالحديث

---

(٣١١) أخرجه الحكيم الترمذى عن أنس ، وفى جمع الجوامع برقم ٣١٣ / ٩٥٦٣

المشهور : كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألافزوروها فانها تذكر الآخرة غير الا تقولوا هجرا(٣١٢)

وقد زار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبر أمه ويبكى على قبرها وكان عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ اذا وقف على قبر بكى حتى تبتل لحيته . .

وقال الغزالى : زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار . .

ودعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى زيارة الشهداء فقال : زوروهم وسلموا عليهم فوالذى نفسى بيده ما يسلم عليهم مسلم الى يوم القيامة الا ردوا عليه السلام .

ودعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى زيارة قبره فقال : من زار قبرى فقد وجبت له شفاعتى يوم القيامة

ولزيارة القبور آداب هى : أن يقف الزائر مستدبر القبلة ، مستقبلا بوجهه الميت ، وأن يسلم ، ولا يمسح القبر ، ولايمسه ، ولايقبله .

وقد ورد أن الميت يستأنس بالزيارة . قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده الا استأنس به ورد عليه حتى يقوم »

وروى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه ـ واذا مر بقبر لا يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام .(٣١٣)ع٣٢

---

(٣١٢) رواه الامام أحمد فى مسنده وابن أبى الدنيا فى كتاب القبور
(٣١٣) الروح لابن القيم ج٦

تلقين الميت :

وقال الغزالى : يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له . قال سعيد بن عبد الله الأزدى : شهدت أبا أمامة الباهلى وهو فى النزع ، فقال : ياسعيد ، إذا مت فاصنعوا بى كما أمرنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول : يافلان بن فلانة . فإنه يسمع ولايجيب ، ثم ليقل : يافلان بن فلانة ـ الثانية ـ فانه يستوى قاعدا ، ثم ليقل : يافلان بن فلانة ـ الثالثة ـ فانه يقول : أرشدنا يرحمك الله ، ولكن لاتسمعون ـ فيقول له : اذكر ماخرجت عليه من الدنيا ، شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وأنك رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا ، وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبيا ورسولا وبالقرآن إماما .

فقال رجل : يارسول الله فإن لم يعرف اسم أمه ؟

قال : فلينسبه الى حواء(٣١٤)

قراءة القرآن للميت

اختلف العلماء فى انتفاع الميت بثواب قراءة القرآن . فذهب كثير من العلماء الى أن آيات القرآن الكريم صريحة وظاهرة فى أن الانسان لاينتفع إلا بسعيه وعمله . قال تعالى

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ (٣١٥)

وقال :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ (٣١٦)

---

(٣١٤) أورده الطبرانى فى تلقين الميت .. والاحياء جـ ١٥ ص ٢٩١٢ ، ط دار الشعب

(٣١٥) البقرة ٢٨٦

(٣١٦) الشمس ٩ ، ١٠

وقال :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ (٣١٧)

وقال :

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٣١٨)

فهذه الآيات ظاهرة فى أن الانسان لاينتفع الا بسعيه وعمله . ولهذا رأى هؤلاء العلماء أن الميت لاينتفع بثواب قراءة القرآن . ولابثواب أى عمل يفعله الغير .

ويرى بعض العلماء أن الميت ينتفع بثواب العمل الصالح الذى يوهب له مصداقا لقول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث . صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له . . وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة التى سئل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ـ عن الحج عن الميت . والصوم عه فأجاب بجواز ذلك . مما يدل على أن الميت يثاب بعمل غيره ، وهؤلاء يرون أن الميت ينتفع بعمل غيره حتى وان كان العامل ليس من ولده ، ويقولون ان الثواب ملك للعامل فله أن يتبرع به . وأن يهديه الى أخيه المسلم .

والحق الذى نراه أن الميت لاينتفع الا بعمله وكسبه طبقا لنص الآيات الكريمة . . أما الأحاديث الشريفة التى وردت فى هذا الشأن ، فإنها وردت فى شأن قيام الأبناء بالحج أو الصوم أو الصدقة عن الآباء بعد موتهم . وقد

---

(٣١٧) النجم ٣٩ : ٤١

(٣١٨) فصلت ٤٦

رأى العلماء أن الآباء والأمهات ينتفعون بذلك لأن ولد الانسان من سعيه وعمله من عمله . وبذلك كان انتفاع الآباء بهذا العمل مما تتناوله الآيات الكريمة . . أما ماجرت به عادة الناس من استئجار المقرئين لقراءة القرآن ، واهداء ثوابها للميت . فليس له سند شرعى سليم . والله تعالى أعلم .

على أن هذا لايمنع من قراءة القرآن عند قبر الميت والدعاء له . . فالدعاء عبادة ثوابها للداعى . . والمدعو له إنما ينتفع بالاستجابة إذا قبل الله سبحانه وتعالى دعاء الداعى . . والرحمة تنزل على قُرّاء القرآن فاذا نزلت عليهم وهم يقرأون القرآن عند قبر الميت أصابه منها نصيب .

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو لمن مات من أصحابه . فعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلما كانت ليلتها من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .(٣١٩) يخرج من آخر الليل الى البقيع فيقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وأتاكم ماتوعدون غدا مؤجلون . وإنا ان شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الفرقد » رواه مسلم(٣٢٠)

وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إذا حضرتم المريض أو الميت . فقولوا خيرا ، فإن الملائكة يؤمنون على ماتقولون . قالت فلما مات أبو سلمة أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ـ فقلت يارسول الله ، إن أبا سلمة قد مات ، قال : قولى : اللهم اغفر لى وله ، واعقبنى منه عقبى حسنة ، فقلت : فأعقبنى الله من هو خير لى منه :

---

(٣١٩) أى الليلة التى تخصها منه صلى الله عليه وسلم
(٣٢٠) دليل الفالحين جـ٣ ص ١٩

محمدا صلى الله عليه وسلم »[٣٢١]

كما أن الدعاء للميت فى صلاة الجنازة أمر مشروع وردت به الأحاديث الصحيحة .

فعن أبى عبد الرحمن عوف بن مالك رضى الله عنه قال : « صلى رسول الله الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على جنازة فحفظت من دعائه ، وهو يقول : اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ، ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، وأبدله دارا خيرا من داره ، وأهلا خيرا من أهله . وزوجا خيرا من زوجه ، وأدخله الجنة ، وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار ، حتى تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت » رواه مسلم .

وقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم ـ كان اذا فرغ من دفن الميت قال : استغفروا لأخيكم ، وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل »

وعن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال « إذا دفنتمونى فأقيموا حول قبرى قدر ماتنحر جزور ويقسم لحمها حتى استأنس بكم ، وأعلم ماذا أراجع به رسل ربى » رواه مسلم . . قال الشافعى رحمه الله : ويستحب أن يقرأ عنده شىء من القرآن ، وإن ختموا القرآن كله كان حسنا »[٣٢٢]

---

(٣٢١) دليل الفالحين جـ٣ ص ٤٠١
(٣٢٢) دليل الفالحين جـ٣ ص ٤٣٢



- خروج الدابة من الأرض .
- المسيخ الدجال .
- الدجال وفتنة آخر الزمان .
- طلوع الشمس من المغرب .
- الترتيب بين العلامات .
- علامات أخرى .
- نزول عيسى بن مريم .
- ظهور الدخان .
- حقيقة ظهور المهدى .
- قيام الساعة .
- النفخ فى الصور .

يظل الميت فى قبره أو بعبارة أصح فى برزخه حتى تقوم الساعة .. وهو كما سبق إما منعم أو معذب ..

وقد يلطف الله بالعاصي ، فيخفف عنه بسبب ماتركه من أعمال صالحات ، فقد ورد فى الحديث الصحيح : اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : علم نافع أو صدقة جارية أو ولد صالح يدعو له ..

وبسبب مايصل إليه من ثواب قراءة أو الدعاء له أو الاستغفار له من ولده وذريته .

ويتحلل الجسد ويعود إلى أصله الأول وهو التراب بمرور الزمن ، ماعدا أجساد الأنبياء فقد ورد أن الله تعالى حرم على الأرض أجساد الأنبياء .

يظل الناس على ذلك حتى يجيء موعد الساعة التى يبعث الله فيها العباد للعرض والحساب والجزاء ، وللساعة علامات ..

وقد ورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وضم السبابة والوسطى .

ويدل على ذلك قوله تعالى :

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾

وقوله تعالى :

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾ (٣٢٤)

---

(٣٢٣) القمر ١

(٣٢٤) محمد ١٨

ولم يرد فى القرآن الكريم ولا السنة الصحيحة خبر يفيد الموعد الدقيق لقيام الساعة وطالما سأل الكفار عن ذلك الموعد ـ كما أخبر القرآن بذلك فى أكثر من موضع : ـ قال تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٣٢٥)

وقد أجاب الحق عز وجل عن هذه الأسئلة بقوله :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ (٣٢٦)

ويقوله :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ (٣٢٧)

وحين سأل جبريل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمام أصحابه ليعلمهم

---

(٣٢٥) الأنبياء ٣٨ يس ٤٨ تبارك ٢٥
(٣٢٦) النازعات ٤٢ : ٤٦
(٣٢٧) الأعراف ١٨٧

قواعد الاسلام والايمان والاحسان ، سأله أيضاً قائلاً : أخبرنى عن الساعة .

فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن أخبرك بعلاماتها : أن تلد الأمة ربتها ، وأن يتطاول الناس فى البنيان . ثم قال خمس لا يعلمهن إلا الله وقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٣٢٨)

وقد جاء فى الأخبار الصحيحة ما يوضح هذه العلامات وقد أشار إليها القرطبى فى كتابه التذكرة . ومن ذلك :

ما رواه البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة ، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر القتل ، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض ، وحتى يُهم رب المال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه فيقول الذى يعرضه عليه لا أرب لى فيه ، وحتى يتطاول الناس فى البنيان ، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتنى مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس أجمعون فذلك حين « لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن

---

(٣٢٨) لقمان ٣٤

آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً » ، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه . ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى منه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » فهذه ثلاث عشرة علامة منها ما قد حدث فعلاً .

فما أكثر الدجالين ومدعى النبوة الذين ظهروا .

وما أكثر العلماء الذين ماتوا فطويت صفحات من العلم النافع بوفاتهم ، وقل العمل بالعلم ، وما أكثر الزلازل التى حدثت ومازالت تحدث ، حتى هلك بسبب ذلك خلق كثير .

وما أقل البركة فى الوقت حتى تنتهى السنوات كأنها شهور . أو قل ما أسرع الوقت الذى يمر . وما أكثر المسافات التى تطوى فى الزمن القليل وما أكثر الفتن التى حدثت وراح ضحيتها الآلاف المؤلفة من القتل . وما أكثر المال الذى فاض حتى غير حال كثير من الناس والأمم والجماعات .

وما أشد الضوائق التى تمر بالناس حتى جعلت الأحياء يغبطون الأموات على سكناهم القبور ونجاتهم من هذه المعاناة التى يقاسونها .

وما أكثر العمارات الشاهقة التى ارتفعت طوابقها إلى المئات ، حتى انها لتطاول السحاب ، وعاش فيها الناس وتمتعوا فيها بالعيش الوارف والظل الظليل والهواء المكيف . .

وفى غير هذا الحديث الذى ذكرناه أخبار أخرى وأحاديث كثيرة تشير الى علامات غير تلك التى ذكرناها . . وقد ظهر بعضها أيضاً . . منها : إذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة . .

وما أكثر من تولوا مقاليد الأمور دون أن يكونوا أهلًا لذلك .

وروى الترمذى عن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء قيل : وما هى يا رسول الله ؟

قال : إذا كان المغنم دولا ، والأمانة مغنماً ، والزكاة مغرماً ، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه ، وبر صديقه وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات فى المساجد ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وشربت الخمور ، ولبس الحرير ، واتخذت القينات ، والمعازف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء أو خسفاً أو مسخاً(٣٢٩) .

وإذا نظرنا إلى هذا الحديث وجدناه قد صدق فيما أخبر به . فلم يبق إلا ارتقاب ما أنذر به ـ نرجو الله النجاة من سوء العاقبة ـ

خروج الدابة من الأرض

ذكر العلماء أن من علامات الساعة ـ خروج الدابة التى تكلم الناس ـ قال الله تعالى :

﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾(٣٣٠)

---

(٣٢٩) التذكرة للقرطبى ص ٧٣٠

(٣٣٠) سورة النمل ٨٢

وقد قيل الكثير فى شأن هذه الناقة وصفاتها فقيل : انها فصيل ناقة صالح فر هاربا حين عقر القوم أمه ، وانفتحت له فى طريقه صخرة فدخلها ثم انطبقت عليه فهو فى باطنها إلى أن يخرج قرب يوم القيامة . . وقيل : إنها الجساسة وهى دابة بحرية سوداء كثيرة الشعر رآها أحد أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واسمه تميم الداري - فى احدى الجزر وأخبر رسول الله ﷺ بما رآه .

وقيل : هى دابة قديمة خلقت فى عهد الأنبياء المتقدمين ، وأن موسى عليه السلام سأل ربه أن يريه إياها ، فأخرجها الله ثلاثة أيام ولياليها فرأى موسى عليه السلام منظراً فظيعاً ، فقال : يارب ردها فردها الله سبحانه وتعالى . . وقيل : هى الثعبان الذى كان فى جوف الكعبة الذى خافت منه قريش حين أرادت بناء الكعبة وتراجعوا حتى أرسل الله عقاباً فاختطفته وألقته بالحجون فابتلعته الأرض فهو فى باطنها حتى يخرج قرب قيام الساعة . .

ومن أعجب ما قيل فى شأنها أنها جمعت من كل حيوان عضواً ، فلها وجه انسان ورأس ثور وعين خنزير وأذن فيل ، وأن طولها ستون ذراعاً بذراع آدم عليه السلام . وأنها لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب . .

والحق أن المفسرين قد ذكروا كثيراً من الغرائب والعجائب فى وصف تلك الدابة ، ولكن ما يجب أن نؤمن به حق الايمان هو ما ورد فى كتاب الله بشأنها . وأنها ستظهر للناس حين يأمر الله بذلك ، وحين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل . . أما حقيقتها ونوعها وصفاتها وغير ذلك من

الأمور فكل ذلك فى علم الله . فنحن نؤمن بأن دابة ستخرج وتكلم الناس . وأن خروجها سيكون قرب قيام الساعة .

المسيخ الدجال

.. ومن علامات الساعة التى ذكرها العلماء ظهور الدجال .. والدجال الكذاب .. وقد ورد فى وصفه أنه أعور العين اليسرى . وأن شعره شديد الجعودة ، وأن عينه طافية . وقد ذكره الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكر أوصافه فى عدة أحاديث فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين لا أدرى أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين سنة . فيبعث الله تعالى عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ فيطلبه فيهلكه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة . ثم يرسل الله عز وجل ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو ايمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدكم دخل فى كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه ، فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع . لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول ؛ ألا تستجيبون فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم فى ذلك دارٌ رزقهم حَسَنٌ عيشهم . ثم يُنْفَخُ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق ويصعق الناس حوله ، ثم يرسل الله . أو قال ينزل الله مطراً كأنه الطل أو الظل ، ثم ينفخ فى الصور مرة أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسئولون ، ثم يقال : أخرجوا بعث النار فيقال : من

كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فذلك يوم يجعل الولدان شيباً ، وذلك يوم يكشف عن ساق[٣٣١] »

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة ، وليس نَقْب من أنقابها إلا عليه الملائكة صافين تحرسها فينزل بالسبخة فترجف المدينة ثلاث رجفات يخرج الله منها كل كافر ومنافق[٣٣٢] »

وقد بين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمسلمين صفات الدجال حتى لا يفتتنوا به ، وقال : إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم ، فكل امرىء حجيج نفسه ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف »

ولحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى فإنه يبعث مع الدجال آيات تفتن الناس ، وذلك لاختبار مدى تمسكهم بدينهم ، وإيمانهم بصدق ما أخبر به نبيهم ـ فقد ذكر أنه يأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، ثم يدعى الربوبية ، فيلتبس الأمر على بعض الناس ، ولهذا قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبيناً ذلك لأمته : « ألا إن الدجال أعور ، وإن ربكم عز وجل ليس بأعور » فمن تبع الدجال فقد فتن .

ومن قال : ربى الله عز وجل حتى يموت على ذلك فقد عصم من فتنته ، ولا فتنة عليه ولا عذاب .

---

(٣٣١) دليل الفالحين جـ ٤ ص ٦٤٧ ، ٦٤٨ ـ الليت ـ صفحة العنق ، يلوط حوضه أى يطينه ويصلحه

(٣٣٢) دليل الفالحين جـ ٤ ص ٦٤٩ ـ السبخة ـ الأرض الرملة لا نبت فيها

مخرج الدجال

قيل يخرج الدجال بين الشام والعراق فيعيث يميناً وشمالاً .... هذا ولم يرد ذكر فى القرآن الكريم للدجال . وقد ورد أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يستعيذ منه ، وأمر بالاستعاذة منه ، وربما كان خبره مندمجاً ضمن قوله ـ تعالى :

﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾(٣٣٣)

فقد وضح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حديثه هذه الآية ، والحديث مفصل للقرآن . قال :

« ثلاث إذا خرجن لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل : الدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها(٣٣٤) »

وذكر كثير من العلماء أنه قد ورد فى القرآن ما يفيد نزول عيسى بن مريم فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾(٣٣٥)

وقد ورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن المسيح هو الذى سيقتل المسيخ الدجال فذكر أحدهما أغنى عن ذكر الآخر .

الدجال وفتن آخر الزمان

إن الناظر الى فتن آخر الزمان يشهد بأن كثيراً من الدجالين وراءها وما يروج من الباطل فى زماننا وما يشيع من الالحاد الآن وراءه كثير من

---

(٣٣٣) الأنعام ١٥٨

(٣٣٤) أخرجه الترمذى فى أبواب التفسير

(٣٣٥) الزخرف ٦١

الدجالين . . ووراءه من يزعم أن الدين أفيون الشعوب ، وأن المادة هي أساس كل شيء ، وأن الطبيعة خلقت نفسها وأن الاله الوحيد هو الآلة . ووراء هذه الدعوات أموال توزع بغير حساب لترويجها ، فمن اتبع هذه الدعوات تمتع قليلاً فى دنياه وخسر كل أخراه ومن ابتعد عنها ربح دنياه وأخراه فالابتعاد عنها هو السعادة الكاملة والصراط المستقيم . .

إن كل مُرَوِّج للفتنة والباطل دجال ، وقد يكون وصف دجال آخر الزمان بالعور وتشويه الخلقة كناية عن بشاعة مخبره وسوء فعله ، ولكن ذلك لا يحول بالطبع دون أن يظهر فى هذه الصورة التى أخبر بها النبى - صلى الله عليه وسلم - شخص تنطبق عليه هذه الأوصاف فى آخر الزمان ، ليكون علامة من علامات الساعة . .

طلوع الشمس من المغرب

ذكر العلماء أن من علامات الساعة الكبرى التى أخبر بها النبى - صلى الله عليه وسلم - طلوع الشمس من مغربها ، ورووا فى ذلك أحاديث منها ؛ ما رواه مسلم عن أبى هريره - رضى الله عنه - قال : قال رسول - صلى الله عليه وسلم - « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض »

وعنه أيضاً أنه قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس ، آمن من آمن عليها . فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل » ومنها ما أخرجه ابن ماجة فى سننه عن صفوان بن عسال قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إن من قبل مغرب الشمس باباً مفتوحاً عرضه

سبعون سنة . فلا يزال ذلك الباب مفتوحاً للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه ، فإذا طلعت من نحوه لم ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيراً .

ذكر القرطبي في تفسيره عند قوله ـ تعالى ـ

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (٣٣٦)

قال :

روى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : سمعت عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول : أيها الناس ، إن الرجم حق فلا تخدعن عنه ، وان آية ذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد رَجَم ، وأن أبا بكر قد رَجَم ، وإنا قد رَجَمْنا بعدهما ، وسيكون قوم من هذه الأمة يكذبون بالرجم ، ويكذبون بالدجال ، ويكذبون بطلوع الشمس من مغربها ، ويكذبون بعذاب القبر ، ويكذبون بالشفاعة ، ويكذبون بقوم يخرجون من النار بعدما امتحشوا(٣٣٧) .

أما كيف تطلع الشمس من المغرب ، فقد ذكر القرطبي أيضاً حديثاً في ذلك ، قال :

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ما معناه :

« إن الشمس تحبس عن الناس ـ حين تكثر المعاصي في الأرض ،

---

(٣٣٦) الأنعام ١٥٨

(٣٣٧) امتحشوا : احترقوا ، والرجم المقصود في الحديث هو رجم ابليس في الحج (رمى الجمار)

ويذهب المعروف فلا يأمر به أحد ، ويفشو المنكر فلا ينهى عنه أحد - تحتبس مقدار ليلة تحت العرش كلما سجدت واستأذنت ربها - تعالى - من أين تطلع لم يجىء لها جواب ، فلا يعرف طول تلك الليلة إلا المتهجدون فى الأرض وهم يومئذ عصابة قليلة فى كل بلدة من بلاد المسلمين ، ثم يأمر الحق سبحانه وتعالى أن ترجع الشمس إلى مغربهافتطلع منه ثم يغلق باب التوبة فلا تقبل لعبد بعد ذلك توبة ، ولم تنفعه بعد ذلك حسنة يعملها إلا من كان قبل ذلك محسناً فإنه يجرى عليه ما كان عليه قبل ذلك اليوم ، فذلك قوله - تعالى -

« يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً . . »

من أفهام بعض العلماء

ولبعض العلماء فهم آخر فى عدم قبول التوبة . يقولون : إن العبد لا يقدر عليها لما أصابه من ذهول وخوف وفزع ، ويكون ذلك سبباً فى إخماد كل شهوة من شهوات النفس وفتور كل قوة من قوى البدن ، فيصير الناس كلهم كذلك لإيقانهم بدنو القيامة يصبحون كلهم كحال من حضره الموت فى انقطاع الدواعى الى أنواع المعاصى والشهوات عنهم . فمن تاب فى مثل هذه الحالة لا تقبل توبته ، كما لا تقبل توبة من حضره الموت مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ (٣٣٨)

---

(٣٣٨) النساء ١٨

ولقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر .

الترتيب فى العلامات

لقد ذكرت هذه العلامات وليس من الشرط أن تأتى متعاقبة كما ذكرت فقد تأتى على غير الترتيب الوارد فى الحديث السابق ذكره . ففى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : حفظت من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حديثاً لم أنسه بعد . سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحا وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً[٣٣٩] قال عبد الله ، ولا أظنها إلا طلوع الشمس من مغربها . وهناك حديث آخر يذكر الترتيب بين العلامات ـ ذكره القرطبى أيضاً ، ورواه عن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ قال :

كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غرفة ونحن أسفل منه ، فاطلع إلينا فقال : ما تذكرون ؟

قلنا : الساعة

قالَ : « إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف فى جزيرة العرب ، والدخان ، والدجال ، ودابة الأرض ، ويأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونار تخرج من قعر عدن ترحل الناس »

فهذه تسع علامات عاشرها نزول عيسى بن مريم .

وعلق القرطبى ـ رحمه الله ـ على ذلك بقوله : هذا حديث متقن فى ترتيب العلامات ، وقد وقع بعضها وهى الخسوفات . .

---

(٣٣٩) تفسير القرطبى ـ الأنعام ـ ص ٢٥٨٣ ط دار الشعب

ويقال : إن هذه الآيات تتابع كالنظم فى الخيط عاماً فعاماً .

أما الحكمة فى طلوع الشمس من مغربها فقد أشار إليها العلماء بقولهم : إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال لنمروذ : « فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب »

فلم يستطع نمروذ ـ وقال القرآن الكريم عن ذلك)

﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ (٣٤٠)

وجاء من الملاحدة من جارى النمروذ فى تفكيره وعدم تصديقه بإمكان طلوعها من المغرب إذا أراد الله ـ فكان إطلاعها من المغرب رداً على هؤلاء المنكرين واثباتاً لقدرة الله الذى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

العلامات الأخرى

ومن العلامات التى ذكرت نزول عيسى بن مريم ، وقد أشار الى ذلك القرآن الكريم فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (٣٤١)

---

(٣٤٠) البقرة ٢٥٨

(٣٤١) الزخرف ٥٧ : ٦١

فقد ذكر العلماء أن الآية الأخيرة تشير الى نزول عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ آخر الزمان ، وأن ذلك من علامات الساعة .

ويؤيد ذلك ما جاء فى الأحاديث الشريفة ، فقد جاء فى صحيح مسلم وابن ماجة عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله بعليه وسلم ـ : « لينزلن عيسى بن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ، ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها ، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعون الى المال فلا يقبله أحد »(٣٤٢)

ويوضح الأستاذ عبد اللطيف عاشور فى كتابه « المسيخ الدجال » هذا الأمر فيقول : « من المعلوم أن السيد المسيح ـ عليه السلام ـ لم يمت(٣٤٣) وإنما رفعه الله إليه ، ثم يعيده مرة أخرى الى الأرض ليقوم بمهمة أخرى كشفت عنها الأحاديث النبوية ، مثل قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يرويه عبد الله بن عمرو ـ يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين (لا أدرى أربعين يوماً ، أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً) فيبعث الله عيسى بن مريم

---

(٣٤٢) تفسير القرطبى ـ سورة الزخرف ـ ص ٥٩٢٦ ط دار الشعب

(٣٤٣) هذا رأى كثير من العلماء ، ويرى آخرون موت عيسى عليه السلام ، ويقولون : إن التوفى المذكور فى قوله تعالى : « إذ قال الله ياعيسى بن مريم إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا » وفى قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام « فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد »

يقولون : إن التوفى فى هذه الآيات هو الموت . . ويفسرون الرفع فى قوله تعالى « ورافعك الىّ » برفع المكانة والمنزلة كقوله تعالى فى شأن ادريس عليه السلام « ورفعناه مكاناً علياً » ويقولون أيضاً : إن معنى الآيات الكريمة الواردة فى شأن رفع عيسى ونجاته أن الله سبحانه وتعالى : بشر عيسى بانجائه من مكر الكافرين ، ورد كيدهم فى نحورهم وأنه عليه السلام سيستوفى أجله المقدر له ثم يموت من غير قتل ولا صلب ثم يرفعه الله إليه . . » راجع فى ذلك كتاب الفتاوى للشيخ محمود شلتوت رحمه الله . . ص ٥٢ ومابعدها

كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدكم دخل فى كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه . .

قال : فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟

فيقولون : فما تأمرنا ؟

فيأمرهم بعبادة الأوثان

وهم فى ذلك دارٌ رزقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ فى الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا .

قال : وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله .

قال : فيصعق ويصعق الناس[٣٤٤] »

كيف ينزل ؟

يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يرويه حذيفة : « فإذا كان يوم الجمعة من صلاة الغداة ، وقد أقيمت الصلاة ، فالتفت الامام[٣٤٥] فإذا عيسى بن مريم ، قد نزل من السماء فى ثوبين كأنما يقطر من رأسه الماء . .

---

(٣٤٤) رواه مسلم فى باب خروج الدجال ومكثه فى الأرض ونزول عيسى . . رقم ٢٩٤٠ من كتاب الفتن وأشراط الساعة

(٣٤٥) فى حديث مسلم باب نزول عيسى من كتاب الإيمان ١ / ١٣٧ : « ينزل عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ فيقول أميرهم تعال صل لنا فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله تعالى لهذه الأمة »

فيقول له الامام : تقدم فصل بالناس .

فيقول له عيسى : إنما أقيمت الصلاة لك .

فيصلى عيسى خلفه .

وحين يرى الدجال عيسى ـ عليه السلام ـ يذوب كما يذوب الملح فى الماء(٣٤٦) . فمهمة عيسى ـ عليه السلام ـ فى أثناء نزوله هى تحذير الناس من الدجال وتخليصهم منه ، بعد أن يدعوهم إلى قتاله . فهو يقول لهم : أيها الناس ، ما يمنعكم أن تخرجوا الى الكذاب الخبيث ؟

فيقولون : هذا رجل جنىٌ .

وقد تقدم أن عيسى ـ عليه السلام ـ يكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ومعنى ذلك أنه يصحح العقيدة ويقيم العدل ، ويروج به الخير ويرفع الظلم .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ينزل ابن مريم حكما عادلاً مقسطاً ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويرجع السلم ، فتتخذ السيوف مناجل ، ويُذْهِب حُمَةَ كل ذى حمة ، وتُنْزِل السماء رزقها ، وتخرج الأرض بركتها ، حتى يلعب الصبى بالثعبان فلا يضره ، ويراعى الذئب الغنم فلا يضرها ، ويراعى الأسد البقر فلا يضرها(٣٤٧) »

وسوف يذهب الشره الذى استشرى داؤه فى الناس ، وتقطعت بسببه الأرحام وضاعت المودة ، وفقدت الثقة ، وعز الوفاء . . ففى حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ « يفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون

---

(٣٤٦) مسند أحمد عن جابر ٣ / ٣٦٧ بلفظ نياث كما نياث الملح فى الماء

(٣٤٧) رواه أحمد فى مسنده عن أبى هريرة ٢ / ٤٨٢

السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها . ثم يقول أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ « اقرءوا إن شئتم

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ (٣٤٨)

إن عيسى ـ عليه السلام ـ يدعو الى الاسلام حين نزوله ـ بدليل أنه يصلى خلف إمام المسلمين ـ ويرفض أن يؤم هو الناس . وتهلك فى زمانه الملل كلها إلا الاسلام(٣٤٩)

عيسى يجد فى أمة محمد خلفا من حوارييه

ذكر القرطبى فى كتابه التذكرة ما قاله الترمذى راويا حديث عبد الرحمن بن سمرة ، قال : « بعثنى خالد بن الوليد بشيراً الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم مؤتة ، فلما دخلت عليه قلت : يا رسول الله . .

فقال : على رسلك يا عبد الرحمن ، أخذ اللواء زيد بن حارثة ، فقاتل زيد حتى قتل ـ رحم الله زيدا ـ

ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب ، فقاتل جعفر حتى قتل ـ رحم الله جعفراً ـ

ثم أخذ اللواء عبد الله بن أبي رواحة ، فقاتل حتى قتل ـ رحم الله عبد الله بن رواحة ـ

---

(٣٤٨) النساء ١٥٩

(٣٤٩) ارجع الى كتاب « المسيخ الدجال حقيقة لاخيال لعبداللطيف عاشور ، فصل عودة المسيح ص ٤٥ ومابعدها . .

ثم أخذ اللواء خالد ففتح الله لخالد ، فخالد من سيوف الله ـ فبكى أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم حوله .

فقال : ما يبكيكم ؟

قالوا : وما لنا لا نبكى وقد قتل خيارنا وأشرافنا وأهل الفضل منا ؟

فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا تبكوا فإنما مثل أمتى مثل حديقة ، قام عليها صاحبها ورعاها وهيأها وسقاها فهى تعطى أكلها كل حين بإذن ربها ولن تخلو من الخير والذى بعثنى بالحق ليجدن ابن مريم فى أمتى خلفاً من حوارييه(٣٥٠)

الدخان

ومن علامات الساعة الدخان الذى أشارت إليه الآية الكريمة :

﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ ﴾(٣٥١)

وكثير من العلماء يرون أن الدخان هنا من علامات الساعة . وأنه يمكث فى الأرض أربعين يوماً ، يملأ ما بين السماء والأرض ، فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام . وأما الكافر والفاجر فيدخل فى أنوفهم فيثقب مسامعهم ، ويضيق أنفاسهم ، وهو من آثار جهنم يوم القيامة .

وفى حديث حذيفة بن أسيد الغفارى الذى ذكرناه آنفاً ، والذى ذكر فيه علامات الساعة وأنها عشر . .

قال حذيفة : قلت : يا نبى الله ، وما الدخان ؟

قال : هذه الآية :

« فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين . . . . » يملأ ما بين المشرق

(٣٥٠) انظر التذكرة للقرطبى ص ٧٧٤ ط دار الكتب العلمية بيروت
(٣٥١) الدخان ١٠ : ١١

والمغرب ، يمكث أربعين يوماً وليلة ، فأما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام ، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران ، يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينيه وأذنه ودبره(٣٥٢) »

ومن العلماء من يقول : إن الدخان المذكور فى الآية هو ما أصاب قريشاً بدعاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهم حتى كان الرجل يرى ما بين السماء والأرض دخاناً . .

ولم يرتفع هذا العذاب عنهم حتي دعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم فكشفه الله عنهم ، وقد مرت الاشارة الى ذلك .

ولا يمنع أن يكون الدخان قد حدث وسوف يحدث . . وحدوثه أولاً تذكير بما سوف يحدث قبل قيام الساعة . ليتفكر الناس ويعتبروا ، وليعلموا أن وعد الله حق ـ وان الساعة آتية لا ريب فيها . .

هذه بعض العلامات التى وردت بها الأخبار وهناك علامات غيرها ظهرت واضحة يتحدث بها الناس ـ كظهور المنكر وكثرة الفجور ، وخروج النساء كاسيات عاريات والاستهانة بالدين وغير ذلك مما يجعل العامة يتحدثون قائلين « هذا من علامات الساعة .

ظهور المهدى

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن هناك أخبارا تدور حول مَعْلم من معالم الساعة ينبىء بقيامها ، وهو ظهور المهدى . .

من هذه الأخبار ما رواه مسلم عن أبى نضيرة قال : كنا جلوسا عند جابر بن عبد الله فقال : يوشك أهل العراق أن لايجىء قفيز ولا درهم ، قلنا : من أين ؟

---

(٣٥٢) انظر تفسير القرطبى ـ سورة الدخان ص ٥٩٥٠

قال : من قبل العجم ، يمنعون ذلك .

ثم قال : يوشك أهل الشام أن لا يجىء اليهم دينار ولامدى - أى مكيال - قلنا : من أين ذلك ؟

قال : من قبل الروم . ثم سكت هنيهة ثم قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يكون فى آخر الزمان خليفة ، يحثى المال حثيا ولا يعده عدا .

قيل لأبى نضرة وأبى العلاء : تريان أنه عمر بن عبد العزيز ؟ قالا : لا .

وجاء فى صحيح سنن ابن ماجة عن أبى سعيد الخدرى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال:يكون فى أمتى المهدى إن قصر فسبع وإلا فتسع فتنعم فيه أمى نعمة لم ينعموا مثلها قط تؤتى أكلها ولا تدخر منهم شيئاً والمال يومئذ كدوس فيقوم الرجل فيقول يا مهدى أعطنى فيقول : خذ [٣٥٣]

والحق أن ظهور رجل يعيد للاسلام مجده ، ويرفع شأنه ، ويشيع العدل ويقضى على الظلم ، ويقهر أعداء الدين ، ويرفع راية اليقين ، ليس أمراً مستغربا إن لم يكن من الأمور المتوقعة الواجبة لهذا الدين الذى قضى الله بظهوره على غيره من الأديان بنص قوله - تعالى - :

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [٣٥٤]

---

(٣٥٣) صحيح سنن ابن ماجة - مجلد ٢ ص ٣٨٩ باب رقم ٣٤

(٣٥٤) الصف ٨ : ٩

وقوله تعالى :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٣٥٥)

وقوله تعالى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (٣٥٦)

وهذه الآيات كونية ليست خاصة بزمان دون زمان . فدين الله لابد وأن يظهر على غيره من تلك الأديان التى تناولتها يد التحريف والتبديل . وظهوره لابد وأن يكون على يد رجل يهيئه الله لحمل هذه الأمانة ، فيقوم بها خير قيام ، وتسميته بالمهدى لذلك ليس أمرا غريبا . .

إلا أنه يجب أن تتوافر فيه صفقة الهداية فعلا ، فيكون أمنا وسلاما على المسلمين ، فلا يجرد السيف إلا ضد أعداء الاسلام . . . . أما أن يحارب

---

(٣٥٥) التوبة ٣٢ : ٣٣

(٣٥٦) النور ٥٥

أهل الإسلام فذلك ليس مهديا بل هو على عكس ذلك تماما . . . . وقد حاول البعض استغلال الأخبار التى وردت فى شأن ظهور المهدى ، وادعوا كذبا وزورا أنهم هم المقصودون بتلك الأحاديث . . . ومن هؤلاء ذلك الذى ظهر منذ سنوات ـ مع مطلع القرن الخامس عشر الهجرى ـ فى مكة المكرمة ، وأطلق على نفسه اسم المهدى ، وأشاع الفزع فى الحرم ، وروع الطائفين ، والعاكفين والركع السجود وانتهك حرمة بيت الله الحرام الذى جعله الله حرما آمنا وقال فى حقه

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ (٣٥٧)

فهل هذا وأمثاله يمكن أن يقال عنهم أنهم مهديون لقد استقصى ابن خلدون الأحاديث الواردة فى شأن المهدى ، ولكنه ذكر معها ما تكلم به العلماء فى شأنها حتى إنه لم يكد يخلص منها من النقد إلا القليل . .

ولكن على الرغم من ذلك يمكن أن نقول : إن هذا القليل يصلح أن يكون دليلا على ظهور مهديين صادقين يدعون الى الله ، ويسيرون على نهج واضح من الكتاب والسنة ليعيدوا للاسلام مجده وقوته وعظمته

وقد ذكرت بعض الروايات أن عيسى عليه السلام بعد نزوله آخر الزمان ـ سيأتم بالمهدى وهذا يدل على أنه لن يكون فى آخر الزمان إلا دين واحد هو دين الإسلام . ويظل كذلك حتى يأذن الله بقيام الساعة . . فيأزر الإيمان إلى المدينة كما تأزر الحية الى جحرها(٣٥٨) ، وتنطفىء شعلة الإيمان فى الأرض ، وتعلو كلمة الباطل بعد أن علت كلمة الحق حينا ، وينعدم

(٣٥٧) آل عمران ٩٧

(٣٥٨) يأزر ـ أى يضمُّ ويجمع

الأمن ، ويذهب الاستقرار ، ولا يصبح فى الدنيا من يقول : لا إله إلا الله » الا القليل النادر عند ذلك ، يبعث الله نارا تسوق الناس الى المحشر ، استعدادا للحدث الأكبر : وهو النفخ فى الصور .

قيام الساعة

النفخ فى الصور :

قال ـ تعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (٣٥٩)

والصور هو البوق الذى يأمر الله إسرافيل ـ عليه السلام ـ بأن ينفخ فيه ، وهو الناقور أيضا . . ذكره الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله :

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ﴿١٠﴾ ﴾ (٣٦٠)

قال العلماء : هما نفختان : النفخة الأولى يموت منها الخلائق أجمع إلا من شاء الله ، والنفخة الثانية يحيون جميعا .

أما الاستثناء فهو ينصرف إلى بعض الملائكة : جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت ـ عليهم السلام ـ والى ذاك أشار حديث رواه القرطبى فى تفسيره عن أنس ـ رضى الله عنه ـ

---

(٣٥٩) الزمر ٦٨

(٣٦٠) المدثر ٨ : ١٠

وقد أضاف بعض العلماء إلى هؤلاء ـ موسى عليه السلام ـ لأنه صعق مرة قبل ذلك حين طلب رؤية ربه .

وقيل : إن الاستثناء ينصرف الى الشهداء الذين استشهدوا فى سبيل الله ، يكونون حول العرش متقلدين سيوفهم ، وقد روى ذلك مرفوعا من حديث أبي هريرة ، وذكره القرطبى .

وبعد أن تموت الخلائق جميعا باستثناء من شاء الله ، يأمر الله ملك الموت أن يقبض روح جبريل ، ثم روح ميكائيل ثم روح إسرافيل ، ثم يأمر الله ملك الموت أن يموت فيموت .

ويبقى الخلق فى البرزخ أربعين سنة . .

ثم يحيى الله إسرافيل فيأمره أن ينفخ النفخة الثانية . وهذا ما يعنيه قول الحق :

« ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون »

وهذا هو البعث ، وهو الهول الذى لاينجو منه إلا من رحم الله . . وهى الساعة التى طالما تساءل المشركون عن موعد قيامها مكذبين . . فاذاهم فيها الآن يجنون ما قدمت أيديهم ، ويتجرعون غصة تكذيبهم بآيات الله ورسله . .

لقد جاءت النفخة الأولى وهم يختصمون ويتنازعون ويتبايعون ، فيأخذهم الموت دون أن يستطيع الواحد منهم التوصية لمن يريد ، وقد أشار الحق ـ سبحانه وتعالى ـ إلى هذا الهول الذى لاتستطيع الأقلام وصفه بقوله :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً

تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ
وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ (٣٦١)

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه : « تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فلا يطويانه حتى تقوم الساعة ، والرجل يليط حوضه ليسقى ماشيته فما يسقيها حتى تقوم الساعة ، والرجل يخفض ميزانه فما يرفعه حتى تقوم الساعة ، والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما يتبلعها حتى تقوم الساعة »(٣٦٢)

إن المقصود بقوله « تقوم الساعة » الأولى ـ النفخة الأولى . التى يموت الخلق على أثرها ،ثم يبعثون بالنفخة الثانية على حالهم التى كانوا عليها . .

ثم إن الدنيا كلها تحتضر سماء وأرضا ، فليس الفناء خاصا بالانسان وحده لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

« فصعق من فى السموات ومن فى الأرض »

ويشمل انفناء الجبال والأنهار والشمس والأقمار وغير ذلك مما تقع عليه العين من مظاهر الحياة . .

فالسموات تطوى

---

(٣٦١) يس ٤٨ : ٥٢

(٣٦٢) تفسير القرطبى سورة يس ص ٥٤٨٣ ط دار الشعب

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ (٣٦٣)

والجبال تتلاشى ، وتصبح كالعهن المنفوش ، والأرض تتغير وتتبدل :

(٣٦٤)

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾

والبحار تفور والأنهار تثور وتطمس النجوم وتنسف الجبال وتنشق السماء وتنتثر الكواكب وتزلزل الأرض ، وتذهل الشياطين »

لقد أتى أمر الله الذى وعد به ، وفنى كل مخلوق ، وسكن كل شيء ، حتى الملائكة الذين كانت لهم الهيمنة والسيطرة ، خمدت فيهم الأنفاس ، واستسلم الشيطان وذريته لمصيرهم ، بعد أن أزهقت أرواحهم ، وضاع نشاطهم وشلت حركتهم . .

ولم يبق فى مسرح الحياة الذى كان يمرح بالحركة والاضطراب شيء . لم يبق الا الله ـ قال عز وجل :

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ (٣٦٥)

حال الناس عند قيام الساعة :

لقد صورت الآيات الكريمة هول الساعة بما لايدع مجالا لقائل بعدها اللهم إلا إعمال الفكر والنظر والتأمل فى بعض ما تدور حوله هذه الآيات من معان لايدرى حقيقتها إلا الله ـ تعالى ـ

انظر الى قوله ـ تعالى ـ

---

(٣٦٣) الأنبياء ١٠٤

(٣٦٤) ابراهيم ٤٨

(٣٦٥) الرحمن ٢٦ ، ٢٧

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢ ﴾ (٣٦٦)

وانظر إلى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ٨٧ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ٨٨ ﴾ (٣٦٧)

ولقد قلنا قبل ذلك إن هناك نفختين فى الصور ، نفخة الإماتة ، ونفخة البعث ، وذكر بعض العلماء أن هناك نفخة ثالثة تسبقهما أشار إليها الحديث الذى ذكره القرطبى فى تفسيره قال :

قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ : إن الله لما فرغ من خلق السموات خلق الصور فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر بالنفخة قال أبو هريرة : قلت : يا رسول الله ما الصور ؟ فقال : قرن والله عظيم ، والذى بعثنى بالحق إن عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض فينفخ فيه ثلاث نفخات ، النفخة الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة البعث والقيام لرب العالمين(٣٦٨) .

(٣٦٦) الحج ١ ، ٢

(٣٦٧) النمل ٨٧ : ٩٠

(٣٦٨) تفسير القرطبى سورة النمل ص ٤٩٥٦ ط دار الشعب

ولكن الثابت بنص القرآن الكريم أنهما نفختان فقط .

إن النفخة التى يفنى على أثرها الخلق جميعا لتشهد بعظمة الله سبحانه وقهره وجبروته ، فهو وحده الباقى بعد فنا كل شىء . . يقول: لمن الملك اليوم ؟

ولا مجيب إلا هو - عز وجل - « لله الواحد القهار »

أين من كانوا يدّعون القوة ؟ ، وأين أصحاب السلطة والتسلط ؟ أين المتكبرون والجبابرة ؟ أين المتسلطون والمتغطرسون ؟

أين الذين كانوا ينظرون إلى الناس شذرا ؟ ويصعرون خدودهم عجبا وكبرا ؟

أين الذين ظلموا الناس وأذاقوهم العسف والنكال ؟ وأين الذين قضوا أيامهم فى اللهو الباطل والغرور الكاذب ؟

أين الذين باعوا أنفسهم للشيطان ؟ وأين الذين قضوا أيامهم لاهم لهم إلا ممالأة الظالم ومداهنة السلطان ؟

لقد سجل القرآن الكريم هذا المشهد الرهيب بأسلوب معجز عجيب حيث قال : -

﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ (٣٦٩)

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله - صلى الله

---

(٣٦٩) غافر ١٦

عليه وسلم ـ : « يطوى الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهم بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرض بشماله ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يقول : لمن الملك اليوم فلا يجيب أحد ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا . . ويجيب الحق نفسه بنفسه قائلا : لله الواحد القهار . .

ويروى القرطبى فى تذكرته حديثا يفسر به هذه المحاورة الالهية فيقول : « ثم يأمر الله ـ عز وجل ـ إسرافيل فينفخ نفخة الصعق فيصعق كل من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، فإذا صاروا أمواتا جاء ملك الموت إلى الله فيقول : قد مات أهل السماء والأرض إلا من شئت ، فيقول الله ـ سبحانه ـ وهو أعلم ـ : من بقى ؟

فيقول : يا رب بقيت أنت الحى الذى لايموت ، وبقى حملة العرش ، وبقى جبريل وميكائيل واسرافيل ، وبقيت أنا فيقول الله عز وجل : ليمت جبريل وميكائيل .

فينطق الله ـ عز وجل ـ العرش ، فيقول : أى رب بموت جبريل وميكائيل ؟

فيقول : اسكت إنى كتبت الموت على كل من تحت عرشى . فيموتان .

قال : ثم يأتى ملك الموت إلى الله ـ جل جلاله ـ فيقول : يارب قد مات جبريل وميكائيل فيقول الله ـ سبحانه ـ وهو أعلم : من بقى ؟

فيقول : يا رب بقيت أنت الحى الذى لايموت وبقى حملة عرشك وبقيت أنا .

فيقول : ليمت حملة العرش فيموتون .

ثم يقول ـ ليمت اسرافيل . فيموت

ثم يأتى ملك الموت فيقول : يارب قد مات حملة عرشك ومات إسرافيل فيقول ـ وهو سبحانه أعلم ـ بمن بقى ؟

فيقول : بقيت أنت الحي الذى لا تموت ، وبقيت أنا .

فيقول الله : أنت خلق من خلقى خلقتك لما رأيت وأردت فمت - فيموت - فاذا لم يبق إلا الله الواحد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » فكان كما كان أولا طوى السماء كطى السجل للكتب .

ثم قال : أنا القهار الجبار ، لمن الملك اليوم ؟

فلا يجبه أحد فيقول : جل ثناؤه وتقدست أسماؤه : « لله الواحد القهار » ان هذا تصديق لقوله تعالى

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾(٣٧٠)

ولقوله تعالى :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾(٣٧١)

قدرة الله تتجلى فى إعادة الأجساد .

إن قدرة الله تتجلى فى إعادة الأجساد كما كانت فى الحياة الدنيا ، ولقد كانت هذه الاعادة هى مثار الشك عند الكفار لأنها تكبر على مستوى تفكيرهم ، وتبعد عن مدار تصورهم ... إن الإيمان بالبعث إيمان بالغيب ، وأنى لهؤلاء أن يؤمنوا بالغيب ؟

على أن الله سبحانه وتعالى - أراد أن يقرب أمر البعث إلى الأذهان ، فلفت أنظار الناس إلى وجود البعث فى حياتنا الدنيا ، وأنه ظاهر أمام أعيننا صباح مساء ، مشاهد لنا فى متقلبنا ومثوانا ، وما النوم الا موت تعقبه حياة هى اليقظة ، وما جدب الأرض إلا موت لها تعقبه حياتها ، بالخصوبة والخضرة والنبات ، وقد ذكر الله فى القرآن الكريم آيات متعددة تنبه الأذهان وتحفزها الى التفكير الذى يصل بصاحبه الى الاقتناع بأن البعث بعد

---

(٣٧٠) الرحمن ٢٦ : ٢٧

(٣٧١) القصص ٨٨

الموت ، والحياة بعد الفناء حقيقة لاشك فيها . إقرأ قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ۝٧ ﴾ (٣٧٢)

لقد وجه الحق أنظار الخلق هم الى مشهدين محسوسين لا يغيبان عن حس أحد . . ولا يحتاجان إلا الى التنبه الى ماوراءهما من قدرة عجيبة . .

فهل ذلك الخالق الذى قدر على أن يخلق هذا البشر السوى من تراب أولا ثم من نطفة بعد ذلك ـ يعجز عن ان يعيد هذا البشر بعد موته ؟

وهل ذلك الخالق الذى قدر على أن يحيل هذه التربة القاحلة الجرداء الصماء الى روضة بهيجة ضاحكة بالأزهار والثمار يعجز أن يعيد الانسان الى الحياة مرة أخرى بعد موته ؟

واذا احتج الجاحد بأن الميت تفتت وتبدد واندثر فان قدرة الله الخارقة المعجزة التى جعلت من العدم وجودا ومن التراب مخلوقا حياً متحركا فى صورة إنسان لا تعجز أن تجمع الذرات المتبددة وتعيد الأجزاء المبعثرة الى ما كانت عليه . وجل القادر الذى اذا أراد أمراً أن يقول له كن فيكون . . ومن يحتج بكثرة الأعداد الفانية يرد عليه بما قاله الحق ـ

---

(٣٧٢) الحج ٥ : ٧

سبحانه وتعالى -

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝٢٨ ﴾ (٣٧٣)

ولنستمع إلى الإمام القرطبى فى كتابه « التذكرة » يحدثنا عن بدائع القدرة فى إعادة الخلق فيقول :

« النفخ فى الصور هو علامة وإشارة لخروج أهل القبور وغيرهم ، فيعيد الله الرفات من أبدان الأموات ، ويجمع ما تفرق منها فى البحار وبطون السباع وغيرها حتى تصير كهيئتها الأولى ، ثم يجعل فيها الأرواح ، فيقوم الناس كلهم أحياء حتى السقط ، الذى تم خلقه ونفخ فيه الروح والموءودة قال الله - تعالى - ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ ﴾ (٣٧٤)

فدل على أن الموءودة تحشر وتسأل ، ومن قبرها تخرج وتبعث وأما من لم ينفخ فيه الروح فهو وسائر الأموات سواء .

ويكون خروج الخلق بدعوة من الحق سبحانه لقوله - تعالى - :

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢ ﴾ (٣٧٥)

أجل .. إن هذه الأحقاب والازمان على امتدادها ليست فى حسبان المبعوثين الا قليلا .. اقرأ قوله تعالى :

﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ۝١١٣ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١٤ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ ﴾ (٣٧٦)

ويقول القرطبى : ان الخلق حينما يبعثون يقولون : سبحانك اللهم

---

(٣٧٣) لقمان ٢٨

(٣٧٤) التكوير ٨

(٣٧٥) الاسراء ٥٢

(٣٧٦) المؤمنون ١١٢ : ١١٥

وبحمدك . . ، فيوم القيامة يبدأ بالحمد ويختم به . .

فبدؤه بالحمد من قوله تعالى - « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده » وختامه بالحمد من قوله تعالى :

﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾[377]

قام الخلق من مرقدهم استجابة لأمر الله ، إنهم يخرجون من الأرض كما يخرج المطر النبات من البذور الميتة . . . اقرأ قوله - تعالى -

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾[378]

ثم يقوم ملك الصور بين السماء والأرض فينفخ فيه فتنطلق كل نفس الى جسدها حتى تدخل فيه ثم يقومون فيحيون بنفخة واحدة .

أما كيف يحيُّون ربهم ؟

فقد قيل إن التحية على حالتين :

إحداهما أن يقوم المبعوث على قدميه واضعا يديه على ركبتيه . .

والأخرى ان يخر المبعوثون على أذقانهم سجدا كما يقول القرآن الكريم « يخرون للأذقان سجدا » . .

وربما اتضحت صورة البعث أكثر بذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة وذكره القرطبي أيضا قال :

حدثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونحن فى طائفة من أصحابه . . ذكر فى هذا الحديث : قوله الله تعالى

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾[379]

---

(٣٧٧) الزمر ٧٥

(٣٧٨) فاطر ٩

(٣٧٩) سورة إبراهيم ٤٨

تبدل الأرض ببسطها بسطاً

﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾[380]

ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة فاذا هم فى هذه الأرض المبدلة فى مثل ماكانوا فيه من الأولى ، من كان فى بطنها كان فى بطنها ، ومن كان على ظهرها كان على ظهرها ، ثم ينزل الله عليكم ماء من تحت العرش يقال له ماء الحياة ، فتمطر السماء عليكم أربعين سنة حتى يكون الماء من فوقكم اثنى عشر ذراعا ، ثم يأمر الله عز وجل الأجساد فتتجمع حتى اذا تكاملت أجسادكم فكانت كما كانت يقول الله - عز وجل - ليبعث حملة العرش فيحيون ، ثم يقول : ليبعث جبريل وميكائيل واسرافيل ، فيبعثون ، فيأمر الله تعالى اسرافيل فيأخذ الصور ، ثم يدعو الله - تعالى - الأرواح فيؤتى بها تتوهج أرواح المسلمين نورا . . أما أرواح الكافرين فتكون مظلمة ، فيأخذها الله فيلقيها فى الصور ، ثم يقول لاسرافيل : انفخ نفخة البعث ، فينفخ فتخرج الأرواح كلها كأمثال النحل ، وقد ملأت مابين السماء والأرض ، فيقول الله - عز وجل - : وعزتى وجلالى ليرجعن كل روح الى جسده ، فتدخل الأرواح إلى الأجساد ، فتمشى فى الأجساد مشى السم فى اللديغ ، ثم تنشق الأرض عنكم ، وأنا أول من تنشق الأرض عنه . فتخرجون منها شبابا كلكم أبناء ثلاث وثلاثين ، سراعا الى ربك تنسلون . . . قال تعالى :

﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾[381]

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾[382]

---

(٣٨٠) سورة طه ١٠٧

(٣٨١) القمر ٨

(٣٨٢) ق ٤٢

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ (٣٨٣)

وهنا يكون الموقف صعب(٣٨٤) . . .

أرض المحشر

ويحدثنا الامام الغزالى ـ رضى الله عنه ـ عن أرض المحشر ، فيصفها لنا بأنها أرض بيضاء قاع صفصف لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، ولا ترى عليها ربوة يختفى الانسان وراءها ، ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها ، بل هو صعيد واحد بسيط ـ أى مبسوط ـ لا تفاوت فيه(٣٨٥) .

ويساق الخلق الى أرض المحشر زمرا . .

وقد وصف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الأرض بقوله :

« يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقىّ . ليس فيها معلم لأحد(٣٨٦)

وأرض عفراء أى بيضاء غير ناصعة البياض ، وقرص النقىّ هو المصنوع من دقيق خال من قشر ونخالة . والمَعْلَمَ هو البناء أو العلامة التى توضع ليهتدى بها الناس .

إنها أرض جديدة لا تفاوت فيها يردُّ البصر ، ليس بينها وبين أرض الدنيا تشابه إلا فى الاسم . . . قال ـ عز وجل ـ

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ (٣٨٧)

قد يكون التبديل بالتغيير وبالزيادة وبالنقصان وبذهاب الأشجار والجبال والوديان وغير ذلك مما هو مشاهد محسوس فى أرض الدنيا . . . هى أرض

---

(٣٨٣) الكهف ٤٧

(٣٨٤) التذكرة للقرطبى ص ٢٠٤

(٣٨٥) احياء علوم الدين جـ ١٦ ص ٢٩٥٢

(٣٨٦) متفق عليه من حديث سهيل بن سعيد

(٣٨٧) ابراهيم ٤٨

جديدة ، لم تسفك فيها دماء ، ولم يظلم عليها أحد ، ولم ترتكب عليها فاحشة ، ولم تقترف عليها خطيئة ، تظلها سموات جديدة لا شمس فيها ولا قمر ولا نجوم . .

ظلام دامس ، فقد طمس نور الشمس والقمر وزال ضوؤهما . . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية منهارة سائلة كالفضة المذابة تخالطها صفرة فهى كما أخبر الحق عنها « وردة كالدهان » أو كالمهل .

وتتناثر الجبال وتتطاير فهى كالعهن المنفوش . . أى الصوف المنقوش .

تأملات فى معنى آية

لقد قال الله ـ تعالى ـ فى شأن الشمس والقمر

﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۝١٠ ﴾ (٣٨٨)

كيف تجمع الشمس والقمر ؟ إن ذلك لن يكون إلا نتيجة اختلال حركة الكون واضطرابه وتغيره يوم تقوم الساعة . . فيخسف القمر بزوال ضوئه ، ويجمع بين الشمس والقمر بطلوعهما معا من المغرب مظلمين لا نور فيهما . .

إن هذا وإن كان علامة من علامات الساعة إلا أن وراءه سببا أراده الله . .

ويمكن التعبير عنه بما قالته الاستاذة ليلى مبروك فى كتابها « علامات الساعة » : قالت : « كلام الله ـ تعالى حق لا ريب فيه ، وقد قال

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (٣٨٩)

وكلام الله لا يحتاج الى دليل ، ولكنه يحتاج الى تفسير . .

---

(٣٨٨) سورة القيامة ٧ : ١٠

(٣٨٩) الأنبياء ٣٠

وقد ثبت أن الماء يدخل فى تكوين كل جسم حى سواء كان انسانا أو حيوانا أو نباتا ـ وما الى ذلك من سائر الكائنات الحية .

ومم يتكون الماء ؟ يتكون من عنصرى الهيدروجين والأوكسجين .

وماذا لو تفككت عناصر الماء ؟ ماذا لو انفصل الأوكسجين عن الهيدروجين واتحد كل منهما مع عناصر أخرى ؟

لو حدث ذلك لتحولت المادة الأصلية وهى الماء الى مواد أخرى مختلفة تماما فى خواصها عن المادة الأصلية وهى الماء .

ولو ثبت أن أجسام الكون المختلفة تحتوى على أحد عنصرى الماءوهما الهيدروجين أو الأكسجين ، أيرجع ذلك أن الكون كان أصله ماء ؟ ولماذا لايكون ذلك والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾(٣٩٠)

إن ذرات الهيدروجين هى المكونة لغالبية كتلة الشمس الغازية . . كما ثبت أن الغلاف الجوى يدخل فيه العديد من العناصر ، ومنها الأكسجين والهيدروجين .

دعك من كل هذا ، وفكر فيما ثبت من أن الماء نفسه كان أصله هيدروجين ، والهيدروجين هو أصل كل العناصر التى كونت المواد المختلفة .

ترى ، ماسر هذا ؟(٣٩١)

إن سره يعلمه الله الواحد الأحد الذى وسع كل شىء علما . . فلايستحيل عليه إذن أن يحيل الكون كله بنفخة واحدة من الصور ينفخها إسرافيل بأمر الله الى بقايا حطام أو الى عدم محض . ثم يعيده بنفخة أخرى بأمر الله الى كون آخر له وظائف أخرى ، وسبحان القادر المقتدر الذى اذا

---

(٣٩٠) هود ٧

(٣٩١) علامات الساعة لبيل مبروك ص ١٨٦

أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . . وهكذا تحشر جميع المخلوقات من جديد ، ومن بينهم الناس . . ويهيم الناس على وجوههم فهم كالفراش المبثوث ، حفاة عراة ، مشاة ، قد ألجمهم العرق ، ويلغ شحوم آذانهم ، وربما زاد على أكثر من ذلك

لقد أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك . . حتى قالت عائشة أو سودة ـ رضى الله عنهما ـ يارسول الله واسوأتاه ، ينظر بعضنا الى بعض ؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : شغل الناس عن ذلك بأنفسهم ـ ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٣٩٢)

وَسَيْرُ الناس فى ذلك الى الغاية المسوقين اليها مختلف ، فبعضهم يمشون كما يمشون فى الدنيا على أقدامهم

وبعضهم يزاد فى تكريمهم فيسيرون ركبانا .

وبعضهم يبالغ فى إهانتهم فيزحفون على بطونهم مكبين على وجوههم .

قال أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ فيما يرويه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ركبانا ومشاة وعلى وجوههم . فقال رجل : يارسول الله ـ وكيف يمشون على وجوههم »

فقال : الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم . . إنه موقف صعب ، يكتنفه الهول من جميع نواحيه ، لقد انكشف المستور ، ووقع المحذور ، وجاء اليوم الذى استبعد عقل الكفار حدوثه ، وأنكر المكذبون وقوعه ، واجتمعت الخلائق كلها منذ البدء السحيق الى يوم الصعق الأول فى صعيد واحد ، على اختلاف أجناسهم وفصائلهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم مابين ملائكة وانس وجان وشياطين ووحوش وسباع وبهائم وطير وحشرات وغيرها من أنواع الخلق التى لا

---

(٣٩٢) عبس ٣٧ .

يعلمها الا الله ..

وربما يقول قائل : إنما يبعث الناس للحساب فما بال الحيوان والطير يبعث ويحشر ؟

والاجابة على ذلك أن القرآن الكريم سجل حشر هذه العجماوات فقال :

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ (٣٩٣)

وقال :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٣٩٤)

إنه يوم الحساب ، يحشر هؤلاء ليحاسب كل على مااقترفت يداه . حتى انه ليقتص للجماء من القرناء ..

الا أن هذه الدواب والحشرات والحيوانات بعد الحساب يقول الحق لها : كونى ترابا فتكون ترابا .. أما الثقلان وهما الإنس والجن فيؤمر بمن أطاع الله وعمل صالحا منهما الى الجنة ويؤمر بالعاصى منهما الى النار الا من رحم الله ..

ولذلك يود الكافر أن لو كان كالبهائم فيصير ترابا .. وهذا هو قول الله تعالى :

﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾ (٣٩٥)

يشتد الهول فى هذا اليوم ، وتدنو الشمس من الرءوس ـ وقد اشتد حرها ، وتضاعف لهيبها وتبدلت عما كانت عليه . لقد كانت فى الدنيا نعمة

---

(٣٩٣) التكوير ٥

(٣٩٤) الأنعام ٣٨

(٣٩٥) النبأ ٤٠

للناس تستوجب الشكر . أما الآن فقد اصبحت نقمة على الكافرين ووبالا على العاصين .

لقد كان الانسان فى الدنيا فى امكانه النجاة من لفح الشمس باللجوء الى الظل . . أما فى هذا اليوم فأين الظل الذى يلجأ إليه ؟

لاجبل ، ولاشجر ، ولاجُدُر . . لم يبق الا ظل العرش الذى وعد الله أن يظل فيه فئات من خلقه ذكرهم الحديث الشريف : « سبعة يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل الا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد . ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله رب العالمين . ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه . ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه »[٣٩٦]

ذكر القرطبى فى تفسيره عند قوله ـ تعالى ـ :

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[٣٩٧]

قال : عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ثلاثة يوم القيامة فى كثيب من المسك الأذفر ولايحزنهم الفزع الأكبر : رجل أمَّ قوما محتسبا وهم له راضون ، ورجل أذَّن لقوم محتسبا ، ورجل ابتلى برق فى الدنيا فلم يشغله عن طاعة ربه »[٣٩٨]

ولامنافاة بين هذا الحديث وذاك ، فإن فضل الله واسع ، ورحمته سابغة

---

(٣٩٦) رواه البخارى فى كتاب الصلاة عن أبى هريرة وفى صحيح مسلم فى كتاب الزكاة وفى الترمذى ومسند الامام أحمد وفى غير ذلك ، وهو حسن صحيح وله روايات متعددة وفى جمع الجوامع برقم ٨٠ / ١٤٥٩

(٣٩٧) الأنبياء ١٠٣

(٣٩٨) تفسير القرطبى سورة الأنبياء ص ٤٣٨٦

وعطاءه متعدد ، وأبواب الخير التى فتحها أمام عباده ليرحمهم بها كثيرة متعددة وليس يعنى ذكر العدد القصر عليه .. بل هناك من أسباب النجاة وطرقها مالاحصر له . قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : مررت برجل يضرب غلاما له ، فأشار الىّ الغلام ، فكلمت مولاه حتى عفا عنه ، فلقيت أبا سعيد الخدرى فأخبرته ، فقال : يابن أخى : « من أغاث مكروبا أعتقه الله من النار يوم الفزع الأكبر » سمعت ذلك من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ان ذلك تصديق لقوله ـ تعالى ـ :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٣٩٩)

طول هذا اليوم :

ويشتد طول هذا اليوم على مافيه من تعب ونصب ، حتى يغطى العرق الرءوس ، عند بعض الخلائق ، إن العرق يرتفع على حسب الأعمال ، وعلى حسب المنازل عند الله ، فمن الناس من يبلغ العرق ركبتيه ، ومنهم من يبلغ حقويه ، ومنهم من يصل الى شحمة أذنيه ، وبعضهم يغيب فيه . قال ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم فى رشحه الى أنصاف أذنيه »

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « يعرق الناس حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين باعا ويلجمهم ويبلغ آذانهم »

وقال عقبة بن عامر : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ، ومنهم من يبلغ ركبته ، ومنهم من يبلغ

---
(٣٩٩) النمل ٨٩

فخذه ، ومنهم من يبلغ خاصرته . ومنهم من يبلغ فاه ، ومنهم من يغطيه العرق ، وضرب بيده على رأسه هكذا »[٤٠٠]

فياله من موقف عصيب ومقام رهيب . .

ويطول اليوم طولا زائدا على الحد دون طعام أو شراب أو منام . . وكيف يفكر أحد فى ذلك وقد ذهلوا عن أنفسهم ، وأهمهم هذا الهول الذى لايعرفون كيف يواجهونه أو يتخلصون منه . .

لقد ذكر : ان مقدار هذا اليوم ألف عام ، وقال عبد الله بن عمرو : تلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾[٤٠١]

ثم قال :

« كيف بكم إذا جمعكم الله كما تجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لاينظر اليكم ؟ »[٤٠٢]

ووصف الغزالى بلسان الحسن ـ رضى الله عنه ـ حال الكفار فى ذلك اليوم فقال :

« ماظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لا يأكلون فيها أكلة ، ولايشربون فيها شربة ، حتى اذا انقطعت أعناقهم عطشا ، واحترقت أجوافهم جوعا ، انصرف بهم الى النار فسقوا من عين آنية ـ ملتهبة ـ قد عظم حرها واشتد لهبها ، فلما بلغ المجهود منهم مالا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضا فى طلب من يكرم لدى مولاه ليشفع فى حقهم فلم يتعلقوا بنبى الا دفعهم ، وقال : دعونى ، نفسى نفسى ، شغلنى أمرى عن أمر غيرى .

---

(٤٠٠) هذه الآثار من مكاشفة القلوب للغزالى ص ١٠٦ ط دار الشعب

(٤٠١) سورة المطففين ٦

(٤٠٢) رواه الطبرانى فى الكبير

واعتذر كل واحد بشدة غضب الله - تعالى - وقال :

« قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولايغضب بعده مثله ، حتى يشفع نبينا - صلى الله عليه وسلم - لمن يؤذن له فيه

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ (٤٠٣)

أسماء يوم القيامة :

وقد أكثر القرآن الكريم من ذكر يوم القيامة حتى لم تكد تخلو سورة من ذكرها ، وسميت بعض السورباسمها كسورة الحاقة . وسورة القارعة ، وسورة القيامة وسورة التغابن ، وسورة الزلزلة ، وسورة الغاشية ، وسورة الجاثية ، وسورة الواقعة . .

وأسماؤها المذكورة فى القرآن الكريم ، والتى أخبر النبى - صلى الله عليه وسلم - عنها تدل عليها وتنبىء عن أهوالها . .

فانظر إلى أسماء الطامة الكبرى ، والى الصاخة ، والى الآزفة والى الحاقة ، والى الواقعة ، والى غيرها مما يشير الى ما يكون فى هذا اليوم من فزع شديد ، وويل كثير ورعب طويل .

إنه اليوم الذى تنفطر فيه السماء ، وتنتثر فيه الكواكب وتتكدر النجوم الزواهر ، وتتكور الشمس ، وتسير الجبال ، وتعطل العشار ، وتسجر البحار ، وتسعر النيران .

يوم ترى الأرض وقد زلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها ، قال تعالى :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ ﴾ (٤٠٤)

وقال تعالى :

---

(٤٠٣) طه ١٠٩

(٤٠٤) الزلزلة ١ ، ٢

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ
ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ
ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ (٤٠٥)

إنه اليوم الذى يفر فيه المرء من أخيه ، وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . وفصيلته التى تؤديه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه .

لقد أكثر الله من أسماء هذا اليوم ـ كما يقول حجة الاسلام ـ الغزالى ـ ليقف الانسان من كثرة « أسامى القيامة » على كثرة معانيها ، فليس المقصود بكثرة الأسامى تكرار الأسماء والألقاب ، بل الغرض تنبيه أولى الألباب ، فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر .



---

(٤٠٥) الحاقة من ١٤ : ١٨


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مشاهد يوم القيامة

- الحشر .
- العرض .
- الحساب .
- الميزان .
- الصراط .
- الشفاعة .
- الحوض .
- صفة جهنم .
- أسماء جهنم .
- موقف الكفار من النار .
- الجنة ونعيمها .
- أبواب الجنة .
- أول الناس دخولاً إلى الجنة .
- محاورة بين أهل النار وأهل الجنة .
- أصحاب الأعراف .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الحشر

ومن أسماء القيامة الحشر ، ولنقف قليلا عند هذا الاسم .. والحشر معناه الجمع ، ويتردد هذا الاسم كثيرا فى الألسنة كما تردد فى القرآن الكريم .

من ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةً وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾(٤٠٦)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدًا ﴿٨٥﴾ ﴾(٤٠٧)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ ﴾(٤٠٨)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾ ﴾(٤٠٩)

وغير ذلك من الآيات .

وقد اتسع مدلول هذا اللفظ حتى أصبح يطلق على أربعة وجوه .. منها وجهان فى الدنيا . أحدهما هو المعنى بقوله ـ تعالى ـ

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ ﴾(٤١٠)

فهؤلاء القوم من اليهود أجلاهم الله ـ تعالى ـ على يد نبيه صلى الله عليه وسلم ـ لكفرانهم ونقضهم العهد ـ أجلاهم إلى الشام وهو أرض المحشر كما يقول العلماء ، ولذلك قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فيما يرويه القرطبى

---

(٤٠٦) الكهف ٤٧ .

(٤٠٧) مريم ٨٥

(٤٠٨) طه ١٠٢

(٤٠٩) مريم ٦٨ .

(٤١٠) الحشر ٢ .

فى تذكرته : « من شك أن المحشر فى الشام فليقرأ هذه الآية ، وذلك أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لهم : اخرجوا ،

فقالوا له : إلى أين ؟

قال : إلى أرض المحشر .

فهذا حشر فى الدنيا . .

وحشر الدنيا الثانى هو ما يشير إليه الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « يحشر الناس على ثلاث طرائق : راغبين وراهبين ، واثنان على بعير وثلاثة على بعير ، وتحشر بقيتهم النار ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمسى معهم حيث أمسوا »

إن هذا يكون فى الدنيا قبل قيام الساعة ، وهذه النار هى آخر أشراطها .

فهذا الحديث يشير إلى حال الناس . . فهم إما أبرار راغبون فيما عند الله .

وإما مخلطون ، خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يعفو عنهم ، وهؤلاء هم الذين أشار اليهم الحديث بقوله : اثنان على بعير وثلاثة على بعير .

وعلى قدر العمل تكون الإبل التى تحملهم . . وقد فهم أبو حامد الغزالى رضى الله عنه فى هذا الحديث فهما آخر ، فقال : إن قوما يأتلفون فى الاسلام برحمة الله فيخلق الله لهم بسبب أعمالهم إبلا يركبون عليها . . فعلى قدر الأعمال تكون الإبل ، وكلما حسن العمل تميزت النجيبة التى تحمل صاحبها . . والمتقون يفدون على ربهم وفودا على نجائب النجاة هؤلاء فى

أمن إذا فزع الناس « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا »

وبما يقرب هذا المعنى إلى الأذهان هذه القصة التى وردت فى بعض الأخبار قال النبى - صلى الله عليه وسلم - يوما لأصحابه :

« كان رجل من بنى إسرائل كثيرا ما يفعل الخير ، حتى انه ليحشر فيكم »

قالوا : وماذا كان يصنع ؟

قال : « ورث من أبيه مالا كثيرا ، فاشترى بستانا فحبسه للمساكين ، وقال :

هذا بستانى عند الله - تعالى - وفرق دنانير عديدة على الضعفاء ، وقال : بهذا أشترى جارية من الله - تعالى - وعبيدا .

وأعتق رقابا كثيرة وقال : هؤلاء خدمى عند الله - تعالى -

والتفت ذات يوم لرجل ضرير البصر فرآه تارة يمشى ، وتارة يكبو ، فابتاع له مطية يسير عليها ، وقال : هذه مطيق عند الله أركبها . والذى نفس محمد بيده لكأنى أنظر إليه وقد جىء بها إليه مسرجة ملجمة ، يركبها تسير إلى الموقف »(٤١١)

وما أشبه هذا العمل بعمل أخ صاحب الجنتين الذى أنفق ماله فى مرضاة الله ليشترى به نفسه من عذاب الله ..

إن هذا الحشر الذى أشار إليه هذا الخبر وأشار إليه حديث النار التى تحشر الناس هو فى الدنيا حيث يبدأ الحشر الأكبر ليوم لاينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وأما الحشران اللذان فى الآخرة ، فأحدهما الحشر إلى الموقف ، وإليه يشير قوله - تعالى -

﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾(٤١٢)

---

(٤١١) التذكرة للقرطبى ص ٢٢٧ .

(٤١٢) الكهف ٤٧ .

حيث يقف الناس للحساب والمناقشة وقد ذكرنا هذا اليوم ووصفناه بقدر ما أسعفنا به اللفظ والجهد . . .

وأما الثانى فهو الحشر إلى الجنة أو النار .

أما المؤمنون فيحشرون فى مواكب مشرقة يعلوهم النور وتحفهم الملائكة . ويصحبهم الرضا ، وتفتح لهم أبواب الجنة التى أزلفت لهم ، يدخلون من أىّ أبوابها . . وسيأتى الحديث عن ذلك إن شاء الله ـ تعالى .

وأما الكفار ، فيحشرون مسوقين إلى النار على حسب ما وصف الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى قوله :

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾(٤١٣)

إن هذا المصير الذى يصير إليه كل من المتقين والفجار إنما يكون بعد العرض والمناقشة ، وبعد أن يوقن كل إنسان بعدالة الحكم الذى صدر له أو عليه ، وهذا ما سنتحدث عنه فيما يأتى : ـ

العرض وتجىء ساعة العرض التى يقول الحق فيها

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾(٤١٤)

ويقول :

﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾(٤١٥)

---

(٤١٣) الزمر ٧١ ، ٧٢ .

(٤١٤) الحاقة ١٨ .

(٤١٥) الكهف ٤٨ .

إن هذا الموقف الذى يمثل فيه العبد بين يدى ربه لهو أعظم المواقف وأخطرها ، يبعث الله ملائكة أشداء يأخذون بنواصى المجرمين وأقدامهم حيث يقفون صفوفا يناقشهم الله فى أعمالهم ، ويذكرهم بنعمه عليهم .

وحين ينزل هؤلاء الملائكة لإيقاف الناس للعرض لايبقى نبى ولا صديق ولا صالح إلا وقد خر ساجدا لله خوفا من أن يكون من المأخوذين بالنواصى والأقدام .

وَيُسأل المرسلون هل بلغوا رسالة الله إلى خلقه ؟ لتكون إجابتهم حجة على العصاة والمقصرين . قال ـ تعالى ـ

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾(٤١٦)

وقال تعالى

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾(٤١٧)

لقد ذهل الأنبياء عن الاجابة من هول الموقف ، أو أنهم وكلوا ما علموه إلى علم الله تعالى الذى أحصى كل شىء ووسع كل شىء علما .

وقال تعالى :

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾(٤١٨)

وقال ـ تعالى ـ

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾(٤١٩)

وقبل هذا العرض وتوجيه الأسئلة للخلق يظهر نور العرش الذى تشرق

---

(٤١٦) الاسراء ١٥ .

(٤١٧) المائدة ١٠٩ .

(٤١٨) الأعراف ٦ ، ٧ .

(٤١٩) الحجر ٩٢ ، ٩٣ .

به أرض المحشر وتعشى لنوره الأبصار ، وقد قال الله ـ تعالى ـ فى ذلك ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤٢٠)

وتنادى جهنم فتجىء وقد تميزت غيظا

﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٤٢١)

وتزفر جهنم زفرات يخر المجرمون على وجوههم من هولها خوفا ورعبا ، ولا ينجو من هذا الهول والخوف أحد . . إن الكل يقول : نفسى نفسى وتستدعى الخلائق للمناقشة أمام الله ـ تعالى ـ فيسأل الله الإنسان عن قليل عمله وكثيره وسره وعلانيته ، وهو سبحانه أعلم بكل ذلك ، ولكن لتقوم الحجة .

روى أبو هريرة وأبو سعيد الخدرى ـ رضى الله عنهما قالا : إن ناسا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ـ قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ : « هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة صحوا ليس دونها سحاب ؟ وهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس دونه سحاب ؟

قالوا : لا يا رسول الله .

قال : ما تضارون فى رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما .

إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون فى النار ، حتى

---

(٤٢٠) الزمر ٦٩ .

(٤٢١) الفجر ٢٣ : ٢٦ .

إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر ، وغير أهل الكتاب ، فيدعى اليهود الذين بدلوا وغيَّروا وانحرفوا ـ فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟

قالوا : كنا نعبد عزيزا بن الله .

فيقال لهم : كذبتم ، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد . فماذا تبغون ؟

قالوا : عطشنا يا ربنا فاسقنا ، فيشار : ألا تردون ، فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فيتساقطون فى النار .

ثم يدعى النصارى الذين بدلوا وغيَّروا وانحرفوا ـ فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟

قالوا : كنا نعبد المسيح بن الله . .

فيقال لهم : كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد .

فيقال لهم : ما تبغون ؟ فيقولون : عطشنا يا ربنا فاسقنا ، فيشار ألا تردون ، فيحشرون الى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فيتساقطون فى النار .

حتى إذا لم يبق إلا من يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين . .

قال : فماذا تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد .

قالوا : يا ربنا فارقنا الناس فى الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم .

فيقول : أنا ربكم .

فيقولون : ما أشركنا بالله شيئا ، مرتين أو ثلاثا ، حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب ، فيقول : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ؟

فيقولون : نعم .

فلا يبقى من كان من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود . ولا يبقى من كان يسجد نفاقا ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة ، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه .

ثم يرفعون رءوسهم فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا .

ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ، ويقولون : اللهم سلم اللهم سلم(٤٢٢)

وفى هذا جاء قوله ـ تعالى ـ

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾(٤٢٣)

قال العلماء فى تفسير الساق إنها أصل الشىء وحقيقته أى يكشف لهم عن أصل الأمر حتى يعاينوا حقائق الأمور وأصلها فيزدادون إيمانا ويقينا ، وقيل المقصود ساق العرش .

الحساب

ويحاسب كل انسان على ماقدمت يداه . .

ويتولى الحق سبحانه وتعالى حساب الخلق . . قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾(٤٢٤)

وكل انسان يجد أعماله التى قام بها فى الدنيا مسطورة فى صحيفة يتناولها بيمينه أو يساره .

فمن تناولها بيمينه فهو السعيد ، ومن تناولها بيساره أو من وراء ظهره فهو الشقى . .

ويقرأ كل منهم صحيفة عمله .

قال تعالى :

---

(٤٢٢) التذكرة للقرطبى ص ٢٤٨ .

(٤٢٣) القلم ٤٢ ، ٤٣ .

(٤٢٤) الرعد ٤٠ .

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾(٤٢٥)

ولا يستطيع أحد أن يتخلص من كتابه أو يلقى به بعيدا ، إنه ملازم له لا يستطيع منه فكاكا

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾(٤٢٦)

وفى تناول الكتاب باليمين أو باليسار يقول الله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾(٤٢٧)

ومن نوقش الحساب عذب ـ تصديقا لحديث رسول الله ﷺ ـ الذى روته عائشة ـ رضى الله عنها ـ

قالت : قال رسول الله ﷺ : « من حوسب يوم القيامة عذب » قالت : فقلت : يارسول الله ، أليس قد قال الله « فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا » ؟

فقال : « ليس ذلك الحساب ، إنما ذلك العرض ، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب »(٤٢٨)

إن العبد يقف بين يدى الله ـ تعالى ـ ومعه صحيفة أعماله التى سطر فيها

---

(٤٢٥) الكهف ٤٩ .

(٤٢٦) الاسراء ١٣ ، ١٤ .

(٤٢٧) الانشقاق ٧ : ١٥ .

(٤٢٨) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وقال حديث صحيح حسن .

كل شيء حتى ماهم به من أعمال الخير . .

ويستطيع كل واحد أن يتمثل كيف يكون موقفه حين يسأله ربه عن شبابه الذى أنعم الله به عليه فيم أبلاه ؟ .

وعن عمره الذى منحه له فيم أفناه ؟

وعن ماله الذى كان معه من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وهذا مفهوم الحديث الوارد فى ذلك : لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن ثلاث : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟

ومع المساءلة تكون المخاصمة والقصاص . . فيؤخذ من حسنات المعتدى لتوضع مع حسنات المعتدى عليه ، ويؤخذ من سيئات المعتدى عليه فتوضع على أوزار المعتدى . . وقد ورد فى ذلك الحديث المشهور عن رسول الله ﷺ : قال : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس من لادرهم له ولا دينار . قال : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ماعليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار »[٤٢٩] وربما كان فى التجاوز عن المظالم يوم العرض نصيب ، ولكن ذلك يكون لمن أراد الله كرامته وسعادته .

روى أنس قال : بينما رسول الله ـ ﷺ ـ جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه .

فقال عمر : مايضحكك يارسول الله ؟ بأبى أنت وأمى ؟

قال : رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العزة ، فقال أحدهما : يارب خذ لى مظلمتى من أخى .

---

(٤٢٩) رواه أبو هريره وذكره الغزالى فى الاحياء .

فقال الله ـ تعالى ـ للثانى : أعط أخاك مظلمته .

فقال : يارب لم يبق من حسناتى شيء .

فقال الله ـ تعالى ـ للطالب : كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء ؟

قال : يارب يتحمل عنى من أوزارى .

قال : وفاضت عينا رسول الله ـ ﷺ ـ بالبكاء . ثم قال : « إن ذلك ليوم عظيم يحتاج الناس فيه إلى أن يُحْمَل عنهم من أوزارهم » قال : فقال الله للطالب : ارفع رأسك فانظر فى الجنان ، فرفع رأسه . فقال : يارب أرى مدائن من فضة مرتفعة ، وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ . لأى نبى هذا أو لأىِّ شهيد هذا ؟

قال : لمن أعطانى الثمن .

قال : يارب ، ومن يملك ثمنه ؟

قال : أنت تملكه .

قال : وماهو ؟

قال : عفوك عن أخيك .

قال : يارب إنى قد عفوت عنه .

فيقول الله ـ عز وجل ـ خذ بيد أخيك فأدخله الجنة .

ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فان الله يصلح بين المؤمنين »(٤٣٠)

الميزان

ولاينبغى أن نغفل عن الميزان ، وقد ذكره الله تعالى فى القرآن الكريم فى مواضع متعددة قال ـ تعالى ـ

---

(٤٣٠) احياء علوم الدين جـ ١٦ ص ٢٩٧٢ .

﴿ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ۝٩ ﴾[431]

وقال ـ تعالى ـ

﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧ ﴾[432]

وقال ـ تعالى ـ

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١ ﴾[433]

وساعة الميزان هذه من الساعات التى لايذكر فيها أحد أحداً لأنه مشغول بمصيره ، فعن عائشة رضى الله عنها ـ قالت . قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« والذى نفسى بيده ـ فى ثلاثة مواطن فإن أحدا لايذكر إلا نفسه ، اذا وضعت الموازين ، ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أيخف ميزانه أم يثقل ؟ وعند تطاير الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه أم بشماله ، وعند الصراط »[434] .

وماأشد فرح الانسان حين يثقل ميزانه ، لقد نجا ونجاته تعنى فوزه بسعادة الأبد . وماأشد حزنه حين يخف ميزانه ، لقد خسر وخسراته يعنى شقاء الأبد .

روى عن أنس أنه قال : يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتى

---

(٤٣١) الأعراف ٨ ، ٩ .

(٤٣٢) الأنبياء ٤٧ .

(٤٣٣) القارعة ٦ : ١١

(٤٣٤) رواه أبو داوود . وفى الأحياء جـ ١٦ ص ٢٩٦٧ .

الميزان ، ويوكل به ملك ، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت مسموع يسمعه الخلائق : سعد فلان سعادة لايشقى بعدها أبدا ، وان خف ميزانه نادى بصوت يسمعه الخلائق : شقى فلان شقاوة لايسعد بعدها أبدا إلا أن يشاء الله

الصـــــراط

أما الصراط فقد ذكره الله ـ تعالى ـ فى قوله :

﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[435]

والصراط جسر ممدود على متن جهنم ، وصفه الواصفون بأنه أدق من الشعرة وأحد من السيف .

إن الكافر يتمثله كذلك لأنه يتعثر فى اجتيازه والمرور عليه ، حتى يتجندل فى جهنم هاويا فيها . .

أما المؤمن فيتسع امامه حتى ليجتازه سريعا بتوفيق الله إياه وتسليمه منه .

قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« يضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يمر بأمته من الرسل ، ولايتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعاء الرسل يومئذ اللهم سلم اللهم سلم ، وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان « هل رأيتم شوك السعدان » ؟ قالوا : نعم يارسول الله . قال : « فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنه لايعلم قدر عظمها إلا الله ـ تعالى ـ تختطف الناس بأعمالهم ، فمنهم من يوبقه عمله ، ومنهم من يخردل ثم ينجو »[436]

إن هذا الحديث يصور حالة الناس فى اجتيازهم الصراط ، وقد بين ذلك أيضا أبو سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ فذكر عن رسول الله ـ ﷺ ـ أحوال الناس ، فمنهم من يمر كالبرق الخاطف ، ومنهم من يمر كالريح ،

---

(٤٣٥) الصافات ٢٣ ، ٢٤) .

(٤٣٦) الأحاديث القدسية من حديث رقم ٣٣١ جـ ٢ ص ٥٧ .

ومنهم من يمر كالفرس المجرى ، ومنهم من يسعى سعيا ، ومنهم من يمشى مشيا ، ومنهم من يحبو حبوا ، ومنهم من يزحف زحفا ، وللناجين على الصراط نور ويكون مرورهم على الصراط على قدر نورهم ، فمن أعطى نوراً قليلا على قدر إبهام قدمه ، يحبو على وجهه ويديه ورجليه ، وتكاد كلاليب جهنم تتخطفه وتصيب جوانبه النار ، فلايزال كذلك حتى يخلص ، فاذا خلص وقف عليها ثم قال : الحمد لله لقد أعطانى الله مالم يعط أحدا إذ نجانى منها بعد إذ رأيتها . . ثم يذهب إلى غدير عند باب الجنة فيغتسل . فيذهب مابه من ضر .

إن حكمة مد الصراط على متن جهنم أن يعاين المؤمنون النار حتى يفطنوا إلى مدى النعمة التى مَنْ الله بها عليهم فنجاهم منها قال تعالى :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾(٤٣٧)

الشفاعة

من المأثور عن سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ قوله : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض مسجدا وترابها طهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأعطيت الشفاعة العظمى ، وكان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »(٤٣٨)

واعطاؤه ﷺ ـ الشفاعة العظمى يقرره قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾(٤٣٩)

---

(٤٣٧) مريم ٧١ ، ٧٢ .

(٤٣٨) متفق عليه من حديث جابر أخرجه الترمذى ، وأخرجه ابن ماجه من حديث أبى بن كعب ، قال الترمذى : حسن صحيح .

(٤٣٩) الضحى ٥ .

روى أنه - ﷺ - قال : لن أرضى وأحد من أمتي في النار . . بل إن شفاعته ﷺ شملت الخلائق أجمعين يوم الموقف العظيم ، حيث يشتد الكرب بالناس ، ويودون الانصراف ولو إلى النار ، ظنا منهم أن النار أخف وطأة مما هم فيه . .

أخرج البخارى فى كتاب بدء الخلق عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : كنا مع النبى - ﷺ - فى دعوة فقال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون بم ؟

يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، فيبصرهم الناظر ، ويسمعهم الداعى ، وتدنو الشمس ، فيقول بعض الناس : ألا ترون إلى ماأنتم فيه ؟ إلى مابلغكم ؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم ؟

فيقول بعض الناس : أبوكم آدم ، فيأتونه فيقولون : ياآدم ، أنت أبو البشر ، صورك الله ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ألا ترى مانحن فيه وما بلغنا ؟

فيقول : ربى غضب غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولايغضب بعده مثله ، ونهانى عن الشجرة فعصيته ، نفسى ، نفسى ، إذهبوا الى غيرى . اذهبوا الى نوح .

فيأتون نوحا فيقولون : يانوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبدا شكورا ، أما ترى مانحن فيه ؟ ألا ترى مابلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك ؟

فيقول : ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولايغضب بعده مثله ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا إلى محمد - ﷺ - فيأتونى ، فاسجد تحت العرش فيقال : يامحمد ارفع رأسك واشفع تشفع وسل تعط(٤٤٠)

---

(٤٤٠) الأحاديث القدسية جـ ٢ ص ٤٧ عن البخارى فى بدء الخلق جـ ٤ ص ١٣٤ .

وأورده البخارى فى كتاب التفسير بزيادة أن نوحا دلهم على موسى ، ودلهم موسى على عيسى ، وعيسى هو الذى دل على محمد - ﷺ - الذى غفر الله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر .

قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : فتأتونى ، فانطلق لأستأذن ربى ، فاذا رأيت ربى وقعت ساجدا ، فيدعنى ماشاء الله ، ثم يقال : ارفع رأسك وسل نعط ، وقل يُسمع ، واشفع تشفع . فأرفع رأسى ، فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع ، فيحد لى حدا ، فأدخلهم الجنة ، ثم أعود إليه ثم أشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود الثالثة ، ثم أعود الرابعة ، فأقول : مابقى فى النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود .

قال البخارى : إلا من حبسه القرآن يعنى قول الله تعالى : خالدين فيها[441]

ولهذا الحديث روايات أخرى فى مختلف كتب الصحاح . وكلها تشير الى منزلة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - عند ربه . . كما تشير الى صفة الرحمة التى اختصه الله بها حيث قال له :

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَـٰلَمِينَ ١٠٧﴾[442]

وأنه - صلى الله عليه وسلم - ظهرت رحمته فى موقفه من الخلق فى ذلك اليوم العصيب ، وأنه لم يعتذر كما اعتذر غيره من الأنبياء عن أداء هذه المهمة . التى انتدب إليها . بل نشط لها من فوره ، وقبل الله شفاعته فى الخلق أولا فصرفهم ، من هذا الموقف الى مصائرهم ، ثم قبل شفاعته فى أمته حيث أخذ بأيديهم الى الجنة والحمد لله .

---

(٤٤١) الأحاديث القدسية جـ ٢ ص ٥١ نقلا عن البخارى - كتاب التفسير باب وعلم آدم الأسماء جـ ٦ ص ١٧ .

(٤٤٢) الأنبياء ١٠٧

وكانت هذه الشفاعة فى الآخرة استجابة لوعد سابق من الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ تلا قول الله ـ على لسان ابراهيم ـ عليه السلام ـ

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾(٤٤٣)

وقوله تعالى ـ على لسان عيسى ـ عليه السلام ـ :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾(٤٤٤)

ثم رفع يديه وقال : « أمتى أمتى » ثم بكى فقال الله ـ عز وجل ـ :

« ياجبريل اذهب الى محمد فسله مايبكيك ؟

فأتاه جبريل فسأله : فأخبره النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخوفه على أمته والله أعلم به ، فقال :

« ياجبريل ، اذهب الى محمد فقل له : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك »(٤٤٥)

لقد أحب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمته حبا شديدا ، ولم يكف عن الدعاء لها والأخذ بيدها الى طريق النجاة على الرغم مما لقيه من أذى وتكذيب . . روى أنس وأبو هريرة فيما أخرجه مسلم أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لكل نبى دعوة مستجابة فأريد أن تكون دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة » وعن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتى الجنة

---

(٤٤٣) ابراهيم ٣٦ .

(٤٤٤) المائدة ١١٨ .

(٤٤٥) ذكره مسلم ، وفى احياء علوم الدين جـ ١٦ ص ٢٩٧٩ .

فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى . أترونها للمتقين ؟ لا ولكنها للمذنبين الخطائين »[٤٤٦]

بل لقد أكرم الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن أكرم الصالحين من أمته بقبول شفاعتهم فى غيرهم .

فعن عبد الله بن أبى الجدعاء أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « يدخل الجنة بشفاعة الرجل من أمتى أكثر من بنى تميم . قالوا : سواك يارسول الله - أى رجل سواك - ؟ قال : سواى » وقال الترمزى : هذا حسن صحيح

ان هذا يدل على أن للمؤمن الصالح شفاعة ، وهذه خصيصةلهذه الأمة المرحومة التى ورد ذكرها فى الكتب السابقة . ولاحرج على فضل الله . .

حوض النبى - صلى الله عليه وسلم -

قال - تعالى - : بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾[٤٤٧]

وحين نزلت هذه السورة قال النبى - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إنه نهر وعدنيه ربى - عز وجل - فى الجنة عليه خير كثير - عليه حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة ، آنيته عدد نجوم السماء »[٤٤٨]

وروى مسلم عن أنس - رضى الله عنه - قال النبى ﷺ : « مابين لابَتَىْ[٤٤٩] حوضى مثل مابين المدينة وصنعاء »

ولقد وصف الرواة هذا الحوض وماءه وآنيته والمزدحمين حوله - فقالوا ان

---

(٤٤٦) صحيح سنن بن ماجة مجلد ٢ ص ٤٣١ باب ذكر الشفاعة .
(٤٤٧) سورة الكوثر .
(٤٤٨) رواه مسلم عن أنس .
(٤٤٩) لابتى حوضى : طرفيه .

ماءه أشد بياضا من اللبن وأحلى مذاقا من العسل ، وإن من شرب منه شربة لايظمأ بعد ذلك أبدا وإن ريحه أطيب من المسك وإن الحصباء التى يجرى عليها مثل اللؤلؤ وإن أوانيه لاتحصى كثرة بعدد نجوم السماء . . ويدل ذلك على كثرة المتزاحمين عليه الذين يطلبون الأوانى للشرب ، وقد ورد أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يذود عن هذا الحوض من غيَّر وبدل من أمته كالفساق وأصحاب الدعوات الضالة والمنحرفة .

ولقد وصف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وُرَّاد هذا الحوض بأنهم متواضعون وأن أولهم ورودا هم فقراء المهاجرين . ومن سار على نهجهم فباع دنياه بآخرته ، وآثر رضا ربه على رضا غيره من المخلوقين .

صفة جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ

بعد المناقشة واجتياز الصراط يصير كل الى مصيره . . وقد أعد الله للكفار نار جهنم ، وقد وصفها الله فى القرآن الكريم وصفا يكفى العاقل أن يحذرها ، وذلك بترك الأسباب الموصلة اليها ، وأن يسلك الوسائل التى تنجيه منها .

وقد حذر الله الناس منها ، ولم يترك لاحد عذراً قال الله تعالى مخاطبا الكفار الذين تحدوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وناصبوه العداء :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
(٢١) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ
(٢٢) وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟
شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟
فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ (٢٤) ﴾ (٤٥٠)

---

(٤٥٠) البقرة ٢١ : ٢٤ .

ولقد أفاض القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة فى وصف النار ، وذكر القرآن الكريم أن أبوابها سبعة لكل باب جزء من الضالين المكذبين . قال ـ تعالى ـ فى حق أتباع ابليس ـ لعنه الله ـ

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾(451)

أما طعامها فهو الزقوم قال تعالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾(452)

والزقوم شجرة ملعونة ثمرها كريه قال عنها القرآن

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾(453)

وأما شراب جهنم فهو الحميم والماء الحار الذى يشوى الوجوه .. قال تعالى :

﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾(454)

وقـــال :

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ ﴾(455)

وقـــال :

﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾(456)

---

(٤٥١) الحجر ٤٣ ، ٤٤ .

(٤٥٢) الواقعة ٥١ ، ٥٣ .

(٤٥٣) الصافات ٦٤ : ٦٦ .

(٤٥٤) الكهف ٢٩ .

(٤٥٥) الصافات ٦٧ ، ٦٨ .

(٤٥٦) الواقعة ٥٤ ، ٥٥ .

أما أبوابها التى أشرنا اليها ، والتى ذكرها القرآن فى الآية التى استشهدنا بها آنفا - فقد خصص لكل طائفة من الكفار باب منها . وأورد القرطبى فى تذكرته حديثا عن أنس بن مالك يحدد هذه الطوائف قال : « جزء أشركوا بالله ، وجزء شكُّوا فى الله ، وجزء غفلوا عن الله ، وجزء آثروا شهواتهم على طاعة الله ، وجزء شفوا غيظهم بغضب الله ، وجزء صيروا رغبتهم الى غير الله ، وجزء عتوا وتكبروا »(٤٥٧)

وفسر القرطبى هذه الاجزاء بقوله : فالمشركون بالله هم الثنوية وأمثالهم ، والشاكُّون فى الله هم الذين لا يدرون أن لهم إلها ، أولا ، أو يشكون فى شريعته وفى أنها من عند الله

والغافلون عن الله هم الذين يجحدونه أصلا ، ولايثبتونه وهم الدهرية .

والمؤثرون شهواتهم على الله هم المنهمكون فى المعاصى لتكذيبهم رسل الله وأمره ونهيه .

والشافون غيظهم بغضب الله - تعالى - هم القاتلون أنبياء الله والذين يعذبون كل من ينصح لهم ، أو يذهب غير مذهبهم

والمصِّيرون رغبتهم الى غير الله - تعالى - هم المنكرون للبعث والحساب ، الذين يعبدون أى شىء يرغبون فيه . .

والعاتون المتكبرون هم الذين لايبالون بأن يكون ماهم فيه حقا أو باطلا ، فلايتفكرون ولايعتبرون ولا يستدلون .(٤٥٨)

ومن القصص التى أوردها القرطبى . والتى تدل على خشية المسلمين الأوائل من الله ، ورغبتهم فى ثوابه وعطائه - وما أحرانا أن نقتدى بهم - مايقصه قائلا : -

---

(٤٥٧) التذكره للقرطبى ص ٤٤٦ .

(٤٥٨) المرجع السابق .

قال بلال : كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى فى مسجد المدينة وحده ، فمرت به أعرابية فصلت خلفه ، ولم يعلم بها ، فقرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الآية

« لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم »

فخرت الاعرابية مغشيا عليها ، وسمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صوت وقعتها . فلما انصرف ـ اى عن الصلاة ـ دعا بماء فصب على وجهها حتى أفاقت وجلست .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ياهذه ، مالك ؟

فقالت : يارسول الله ، هذا شىء من كتاب الله أو شىء من تلقاء نفسك ؟ـ فقال : ياأعرابية ، بل هو من كتاب الله المنزل .

فقالت : كل عضو من أعضائى يعذب على باب منها ؟

قال : ياأعرابية : « بل لكل باب منهم جزء مقسوم يعذب أهل كل باب على قدر أعمالهم .

فقالت : والله إنى امرأة مسكينة لا مال لى ، وليس لى إلا سبعة عبيد أشهدك يارسول الله أن كل عبد منهم حر لوجه الله ـ تعالى ـ .

فأتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال : يارسول الله : بشر الأعرابية أن الله قد غفر لها وحرم عليها أبواب جهنم ، وفتح لها أبواب الجنة كلها .(٤٥٩)

أسماء جهنم :

ولجهنم أسماء كثيرة تشير الى شدة عذابها ونكالها ، وماسميت جهنم الا لأنها تتجهم فى وجوه أهلها ، وهى لَظَى النزاعة للشوى وهى الحطمة ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ ﴾(٤٦٠) وهى الجحيم لعظم جمرها ، وهى السعير التى

---

(٤٥٩) المرجع السابق .

(٤٦٠) الهمزة ٥ : ٧ .

تسعرت نارها،وهى الهاوية لأن المأخوذ فيها يهوى فى قعرها الى مالا نهاية وهى سقر التى تأكل اللحم والعظم .. عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون .. أما عذابها فالوصف لايستطيع أن يدركه .. ويكفى فى وصف عذابها . قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١١﴾ (٤٦١)

ويكفى أن يتمثل الانسان فى نفسه أن نار الدنيا على شدتها وهولها لاتمثل إلا جزءا من سبعين جزءا من نار الآخرة .. ومن الذى يطيق ان يتعرض جسمه لشعلة عود كبريت فضلا عما هو فوق ذلك ؟ ..

موقف الكفار من النار

إن افاضة القرآن الكريم فى وصف النار وتحذير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أحاديثه وخطبه ونصائحه ووصاياه من عذاب النار لم يلق من الكفار الا سخرية واستهزاء . وحين نزل قوله تعالى ـ فى شأن الوليد بن المغيرة وغيره ممن هم على شاكلته :

« سأصليه سقر . وماأدراك ماسقر . لاتبقى ولاتذر . لواحة للبشر . عليها تسعة عشر » (٤٦٢)

حين نزلت هذه الآيات ظلوا يسخرون ويستهزئون فقال أبو جهل

---

(٤٦١) الملك ٦ : ١١ .

(٤٦٢) المدثر ٢٦ : ٣٠ .

لقريش : ثكلتكم أمهاتكم ، أسمع محمدا يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدّهم الشجعان . . أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ؟ ؟

وقال أبو الأشد الجمحي : لا يهولنكم التسعة عشر ـ أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة وبمنكبي الأيسر تسعة ، ثم تمرون الى الجنة . يقول ذلك مستهزئا .

وفي رواية : أن الحارث بن كلدة قال أنا أكفيكم سبعة عشر ، واكفوني أنتم اثنين .

وقيل : إن أبا جهل قال أما لرب محمد من الأعوان إلا تسعة عشر : أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم تخرجون من النار ؟ فنزل قول الله تعالى

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ (٤٦٣)

لقد أعمى الله أبصارهم فلم يدركوا أن هذا العدد ما هو إلا فتنة لهم .

وما دروا أن قدرة الله كفيلة بأن تحرس كل شيء ، ولو وكل أمر النار على سعتها إلى ملك واحد لجعل فيه القدرة على حمايتها وتسعيرها وإلقاء أهلها فيها على مراتبهم . . وحتى لو لم يكل أمرها إلى أحد من ملائكته فإن قدرته تعالى كفيلة بحفظها وسوق المكذبين إليها وإدخالهم فيها . . ولكنهم ضلوا عن الحق لأن الله أراد أن يجعلهم طعاماً لهذه النار التي وقودها الناس والحجارة . .

---

(٤٦٣) سورة المدثر ٣١ .

ويكفى فى حديثنا عن جهنم أن نعلم أن الله أعدها للكافرين والعصاة والمذنبين ، حتى يرتدعوا عن غيهم وضلالهم ، وربما فكر بعضهم فى هذا المصير السيىء الذى ينتظره فارتدع وثاب الى رشده ، ومن الناس من لا يلجئون الى الايمان إلا بالتخويف والانذار ، ولولا العقاب لتمادى الناس فى مخالفة الأوامر والتعدى على القانون بل وتحديه .. ونار الحياة الدنيا ظاهرة أمامنا ، وممثلة فى أذهاننا وأحاسيسنا ، نراها فى كل وقت ، ونلمس شدة تأثيرها .. فحرارة الصيف وقيظه الشديد ، ونار الشمس فى الصيف وحرارة الرمضاء فى الصحراء وما نشعله من نيران وما يشب من حرائق تشوى الوجوه والأبدان بل وتأكل الحجارة والجدران ، كل ذلك كفيل بأن يجعلنا نفكر فى نار الآخرة التى هى أشد من ذلك وأفظع ـ فما لنا لا نتقيها ؟ وما لآذاننا لا تعى ولا تسمع ؟ وما لعقولنا لا تفكر فى النجاة منها ؟ وما لضمائرنا لا تحيا حتى ننقذ أنفسنا مما هو واقع لا محالة بنا إن صددنا عن سواء السبيل ، وابتعدنا عن الصراط المستقيم ؟

نسأل الله العفو والعافية ونرجوه أن يقينا سوء المصير وعذاب الجحيم ..

وإلى الجنة معاً إن شاء الله ..

الجنة ونعيمها

كما توعد الله جلت قدرته ـ الكافرين بعذاب النار ، وعد المؤمنين بثواب الجنة قال ـ تعالى ـ

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾(٤٦٤)

وقد اقتضت حكمة الله أن تكون سياسة الناس والخلائق أجمع مبنية على الترغيب والترهيب . وهما طريقان إلى تهذيب النفوس وإشاعة الأمن وتحقيق العدل وسيادة النظام ..

وما يزال الانسان راغباً وراهباً حتى يصل إلى مقام يتعدى فيه الرغبة

---

(٤٦٤) الرعد ٣٥ .

الحسية والرهبة الحسية إلى ما هو أعظم من ذلك . فبدلاً من أن يتقى النار يتقى ربها ، وبدلاً من أن يطلب الجنة يطلب المثيب بها . . وقد سئلت السيدة رابعة العدوية وهى احدى الصالحات القانتات ، ما لك لا تذكرين الجنة ؟ فقالت : الجار ثم الدار . .

ولعل ذلك هو ما تشير إليه الآية الكريمة :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٤٦٥)

قال العلماء : الحسنى هى الجنة ، والزيادة هى رؤية الله . .

ووصف الجنة لا يفى به بيان ، وقد قرب الله إلينا نعيمها بما ذكره لنا من آيات بينات فى مختلف سور القرآن العظيم ، وإلا ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . .

ومن الأوصاف التى ذكرها الله فى القرآن الكريم للجنة قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ
الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا
مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ
﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا
يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا
أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ
مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ
﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾ (٤٦٦)

---

(٤٦٥) يونس ٢٦ .

(٤٦٦) الواقعة ١٠ : ٣٧ .

ومن نعيم الجنة أن شباب المؤمن يتجدد فيها فلا يهرم أبداً ، وهو فى كل لحظة فى لذة متجددة لا يسأم منها ولا يزهد فيها . روى مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : ينادى مناد يا أهل الجنة إن لكم أن تصحُوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تظلوا شباباً فلا تهرموا أبداً ، وان لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً ، فذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ ﴿٤٣﴾ (٤٦٧)

ولقد أشار الحق سبحانه وتعالى ـ إلى أن هذه الأوصاف التى ذكرت للجنة فى القرآن الكريم ـ ما هى إلا أمثلة ونماذج لما أعد فيها من النعيم ، وإلا فإن ما أعده للمنعمين فيها شىء لا يحيط به الوصف . قال ـ تعالى ـ

﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ (٤٦٨)

وقد أشار الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ذلك فى قوله : « فيها ما لأعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »

أجل إن فيها ما ذكره الله ـ تعالى ـ فى قوله

﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ ﴾ (٤٦٩)

« ولكن عذوبة مائها ولذة لبنها ، وطيب خمرها وحلاوة عسلها تفوق ما يرى فى الدنيا أضعافاً مضاعفة بدون نهاية . . إن الآفات التى تعرض لفاكهة الدنيا وطعامها وشرابها لا وجود لها فى دار الخلد التى لا يفنى نعيمها أبداً . .

---

(٤٦٧) الأعراف ٤٣ .

(٤٦٨) السجدة ١٧ .

(٤٦٩) محمد ١٥ .

وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى أى ظل فى الدنيا تجده محدوداً بأصله المتناهى أما ظل الجنة فممدود لا نهاية له . . وقد أخبر الصادق المصدوق أن من أشجار الجنة ما يسير الراكب فى ظله سبعين سنة أو مائة سنة . .

أبواب الجنة

وللجنة أبواب ثمانية . وقد أشار الحق إلى أبواب الجنة فى قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (٤٧٠)

إنهم يجيئون فيجدون الأبواب أمامهم قد فتحت ، على نقيض أهل النار الذين لا تفتح أبواب النار إلا بمجيئهم . .

وفى فتح الأبواب مسبقاً أمام المتقين تكريم لهم وحسن استقبال لهم فالمكرمون يجدون أبواب الكرام أمامهم مفتوحة . . أما المهانون فلا تفتح لهم الأبواب إلا بعد وصولهم ، وإذا فتحت لا يجدون وراءها إلا العذاب والاهانة .

وأبواب الجنة على حسب الأعمال ، فهناك باب الصلاة ، وهناك باب الصيام ، وباب الزكاة وغير ذلك . .

وقد ذكرنا أنها ثمانية أبواب لما ورد فى الحديث الشريف عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من توضأ فأسبغ الوضوء ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك

---

(٤٧٠) الزمر ٧٣ ، ٧٤ .

له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صادقاً من نفسه ـ أو قال : من قلبه ـ فتح له من أبواب الجنة ثمانية أبواب يوم القيامة يدخل من أيها شاء[٤٧١] »

وفى رواية : « فتحت له أبواب الجنة الثمانية »

أول الناس دخولاً إلى الجنة

لاشك فى أن أول الناس دخولاً إلى الجنة هو سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد ورد عنه أنه قال :

« آتى يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن : من ؟ فأقول : محمد ، فيقول : لقد أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك[٤٧٢] »

ولا عجب فى ذلك ، فهو سيد الخلق ومصطفاهم ، وهو رحمة الله للعالمين وحبيب الله ـ جل جلاله . .

وبشفاعته تدخل أمته ، لا يدخلها أحد من الأمم قبلهم ، وقد ورد ذلك فى الكتب السابقة ، حتى عرفت أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند أهل الكتاب بأنها الأمة المرحومة .

إن الحديث عن الجنة ونعيمها ، وما فيها من أشجار وأنهار وقصور وحور وولدان ومتاع يقصر عنه الوصف ويعجز عنه القلم .

ولكن هناك ما هو أعظم منها وأجل وهو رؤية الله سبحانه وتعالى التى أختص بها المقربين من عباده وقال فى ذلك

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[٤٧٣]

وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إنكم ترون ربكم كما ترون هذا

---

(٤٧١) أخرجه الترمذى وغيره .

(٤٧٢) رواه مسلم من حديث أنس .

(٤٧٣) القيامة ٢٢ ، ٢٣ .

القمر لا تضامون فى رؤيته فسبحوه ما استطعتم قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ثم قرأ

﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ١٣٠ ﴾(474)

وقد ذكر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قرأ قوله تعالى « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة »

وقال : الزيادة هى النظر إلى وجه الله الكريم .

محاورات بين أهل النار وأهل الجنة

ومادمنا قد ألمحنا إلى طرف من أوصاف الجنة والنار ، فعلينا أن نتأمل بيان القرآن المعجز فى تصوير الحوار الذى يدور بين الكفار بعضهم بعضا فى النار ، وبينهم وبين الملائكة ، وبينهم وبين المؤمنين الذين أكرمهم الله بالجنة .

فحين يُدفع الكفار إلى جهنم ، ويعاينون بأسها ، ويذوقون حرها ، يحاولون أن يتخلصوا من هذا المصير ، ويُلقون تبعة كفرهم وضلالهم على غيرهم .. فيقولون : ياربنا إنا كنا مستضعفين لا رأى لنا ، وقد غلبنا كبراؤنا على أمرنا ، أمرونا فأطعناهم وما كنا نستطيع أن نخالف لهم أمرا ..

وهذا هو ما تحكيه لنا هذه الآيات الكريمة :

﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ٦٨ ﴾(475)

---

(474) طه ١٣٠ .

(475) الأحزاب ٦٦ ؛ ٦٨ .

ولكن الحق سبحانه وتعالى الذى خلق الانسان وميزه بالعقل وعلمه كيف يصمد فى وجه الطغيان والجبروت ـ يرفض منطق هؤلاء وزعمهم ، فقد كان باستطاعتهم ان يتخلصوا من استعباد هؤلاء الكبار لهم . . ولكنهم خضعوا لهم فاستحقوا جميعا العذاب ، قال تعالى :

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (٤٧٦)

لقد كانت هذه المحاورة تتمة لما سبق من محاورات جرت فى يوم عرضهم على ربهم لمناقشة الحساب . فهناك نقاش طويل عريض حدث بين السادة وأتباعهم ، بعد أن عاين كل منهم ذلك المصير المشئوم الذى يتردون فيه .

لقد ألقى المستضعفون المسئولية الكاملة على عاتق سادتهم ، ولكن السادة تبرءوا من أتباعهم ، وردوا القول عليهم بحجة أن الضلال كامن مستقر فى نفوسهم ومستكن فى ضمائرهم ، وحقا ذلك ، فما بالهم لم يؤمنوا كما آمن غيرهم ممن لم ترهبهم القوة أو تغريهم المادة أو تخطف أبصارهم الوعود البراقة ؟ ولولا أن الاستعداد للضلال موجود فيهم ما استجابوا لاضلال الرؤساء والكبراء . .

وفى محاولة التبرى بين الطرفين والقاء كل منهما التبعة على الآخر يقول الله ـ تعالى ـ

---

(٤٧٦) الأعراف ٣٨ ، ٣٩ .

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ
الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا
مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ
﴿١٦٧﴾﴾(٤٧٧)

وحكى لنا القرآن الكريم نقاشا دار بين الضعفاء وسادتهم نقرؤه فيما يلي :

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ
الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ
﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ
بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا
النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ
يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾(٤٧٨)

لقد سجل القرآن الكريم أن هؤلاء الأغنياء صرفهم الاستمتاع بنعيم الدنيا ، وماهم فيه من عُجب بأنفسهم وكبر ملأ شعاب قلوبهم - عن الاصغاء لكلمة الحق - بل كان همهم أن يستولوا غلى غيرهم يصرفونهم كيف يشاءون . . يوسوسون لهم بالشر ، ويزينون لهم الباطل ، ويغرونهم بالفساد . . وحين كشف الحجاب ووقع العذاب تبين زيف الكبراء وما أوقعوه من خداع بالضعفاء قال تعالى :

---

(٤٧٧) البقرة ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٤٧٨) سبأ ٣١ : ٣٣ .

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (٤٧٩)

لقد استطاع الكبراء أن يؤثروا فى المستضعفين بكلامهم المعسول ووعودهم الكاذبة ، وأن يغروهم بالمال والوعود حتى أطاعوهم ، وقد تحمل هؤلاء الكبراء مسئولية معارضة رسل الحق فى كل زمان ومكان . فكان لهم العقاب الأكبر . . قال تعالى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (٤٨٠)

لقد غرت الدنيا هؤلاء الكبراء ، وظنوا أن ماهم فيه من نعمة إنما كان لميزة فيهم سوف تستمر معهم فى الآخرة بل إنهم شكوا فى أن تكون هناك آخرة أصلا . . ولقد قال صاحب الجنتين لصاحبه وهو يحاوره :

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ (٤٨١)

---

(٤٧٩) الصافات ٢٧ : ٣٣ .

(٤٨٠) سبأ ٣٤ : ٣٧ .

(٤٨١) الكهف ٣٦ .

وقد توهم هؤلاء الضعفاء أن الكبراء الذين خدعوهم يمكن أن يتحملوا عنهم نصيبا ، من العذاب الذى هم فيه .. ولم لا ؟ أليسوا هم الذين أضلوهم ؟ وهم يطلبون منهم ذلك فعلا ، ولكنه طلب لا يجد صدى ، ولا يمكن الاستجابة إليه ..

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾(٤٨٢)

لقد قاس هؤلاء قياسا باطلا ـ ظنوا أن حالهم فى الدنيا حينما كان هؤلاء الكبراء يتحملون مغارم أتباعهم التى تقضى عليهم نتيجة أعمالهم الاجرامية التى يسوقونهم إليها .. يمكن أن يكون فى الآخرة .. ولكن أنى هذا ؟ فلئن كان فى الدنيا زيف فكيف يكون ذلك فى الآخرة ؟

ويشتد ضيق الكفار بعضهم ببعض وهم يساقون الى جهنم ويتدافعون فيها فوجا اثر فوج حتى إذا دخلت أمة لعنت أختها . ولا تصدر من ألسنتهم إلا كلمات التحقير والضيق والكراهية التى يقولها كل فريق للآخر .. ويقول القرآن الكريم مصورا ذلك :

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ ﴾(٤٨٣)

---

(٤٨٢) غافر ٤٧ ، ٤٨ .

(٤٨٣) ص ٥٥ : ٦١ .

وييأس الكفار من أن يجدوا لهم طريقا الى النجاة أو الافلات من ذلك الجحيم السرمدى الخالد . . فينظرون الى مالك خازن النار نظرة استعطاف قائلين : يامالك هل فى الامكان أن يكون هناك نهاية لهذا العذاب ؟ أو هل فى الامكان أن تكون لنا نهاية تخلصنا من هذا العذاب ؟

ولكن مالكا يسد أمامهم طريق الأمل فيزدادون يأسا على يأسهم إنهم مخلدون فى العذاب قال تعالى :

﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾(٤٨٤)

قال المفسرون : إن مالكا لم يرد عليهم فورا بل مكث ثمانين سنه لايجيبهم . . إنهم لم ينادوا مالكا إلا حين بلغ بهم اليـأس أقصاه ، بعد أن استغاثوا بخزنة النار من الملائكة أن يخففوا عنهم العذاب ولو يوما واحد . . ولكنهم لم يجدوا استجابة لذلك . . وقد حكى القرآن الكريم ذلك قائلا :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ ﴾(٤٨٥)

ولقد جرب أهل النار محاولة أخرى مع أهل الجنة ، ولكنها كانت محاولة فاشلة أيضا . هذه المحاولة سجلها القرآن الكريم أيضا فى قوله تعالى :

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾(٤٨٦)

---

(٤٨٤) الزخرف ٧٧ .

(٤٨٥) غافر ٤٩ ، ٥٠ .

(٤٨٦) الأعراف : ٥٠ ، ٥١ .

إنها محاورات تدل على شدة ما يعانيه هؤلاء الكفار من عذاب متجهد لا يفتر كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلودا غيرها ليذوقوا العذاب .

وربما استعرض هؤلاء الكفار أحوالهم فى الدنيا ، وتذكروا هؤلاء الذين كانوا يسخرون منهم ويستهزئون بهم لأنهم اتبعوا دعوة الرسل الذين جاءوا اليهم .. أين هم الآن وما مصيرهم ؟

ويحكى القرآن الكريم لنا هذا المشهد قائلا :

﴿ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ ﴾(٤٨٧)

لقد طمس الله بصيرتهم وأعمى عيونهم فلم يدركوا أن هؤلاء كتب الله لهم السعادة ونجاهم من ذلك المصير السىء الذى وقعوا هم فيه ..

ولكن المؤمنين فى المقابل كشف الله لهم الحجب فرأوا هؤلاء الضالين وهم يصلون العذاب الشديد ، وذلك فى أثناء المحاورات الجميلة العذبة التى تدور بينهم فى الجنة وسط الرياض الناضرة والمناظر الساحرة والسعادة الغامرة ، وهم اخوان على سرر متقابلون .. فيقول أحدهم كما حكى لنا القرآن :

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾(٤٨٨)

---

(٤٨٧) ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٤٨٨) الصافات ٥١ : ٦٠ .

شتان ما بين المصيرين . . . أما أحدهما فقد كفر فى الدنيا فلقى نار جهنم فى انتظاره يصلى عذابها الشديد ، وأما الآخر فقد آمن بالله ورسله فلقّاه الله نضرة وسرورا ، وجزاه بإيمانه جنة وحريرا لا يرى فيها شمسا ولا زمهريرا .

وهناك محاورة جرت بين المؤمنين والكفار . حين دخل المؤمنون الجنة ونعموا بما أعطاهم الله من نعيم ودخل الكفار النار وذاقوا أشد العذاب ، وتسجل هذه المحاورة التى حكاها القرآن الكريم حال المؤمنين وماهم فيه من رضا ، وغبطة بمقامهم ، وسعادة بمصيرهم ، ولذة بما هم فيه من أنواع المتعة والجمال والراحة . وقد أرادوا فى هذه المحاورة أن يسجلوا على الكفار ضلالهم وغرورهم وتعاميهم عن الحق فقالوا فيما حكاه القرآن :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾(٤٨٩)

إن كلام أهل الجنة ، فى الجنة تمجيد وتسبيح لله وشكر له على ما أفاءه عليهم من نعمة الهداية التى أوصلتهم الى ذلك النعيم المقيم .

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾(٤٩٠)

فتناديهم الملائكة أو يناديهم ربهم ـ جل وعلا ـ فيما حكاه القرآن الكريم بعد هذا القول منهم ـ

﴿ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾٤٩٠

أصحاب الأعراف

---

(٤٨٩) الأعراف ٤٤ ، ٤٥ .

(٤٩٠) الأعراف ٤٣ .

واذا كانت هناك محاورات تمت على النحو الذى وصفناه بين الكافرين والمؤمنين ، فهناك محاورة تمت بين هؤلاء جميعا وبين أصحاب الأعراف سجلها القرآن الكريم بقوله :

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾(٤٩١)

ولتوضيح هذه المحاورة نوضح أولا معنى الأعراف ومن هم أصحابه .. ؟

ما الأعراف ؟

الأعراف جمع عُرف ـ بوزن قفل ـ ويطلق على أعالي الأشياء وأوائلها وكل مرتفع من الأرض وغيرها ، ومنه عرف الديك وعرف الفرس .

والمراد به هنا سور بين أهل الجنة وأهل النار . وهذا السور هو الذى أشار اليه الحق ـ سبحانه ـ فى قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) ﴾(٤٩٢)

---

(٤٩١) الأعراف ٤٦ : ٤٩ .

(٤٩٢) الحديد ١٣ .

أما أصحاب الأعراف : فهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فلم يستحقوا الجنة بالحسنات ولا النار بالسيئات ، فكانوا على ذلك الحجاب الحاجز بين الجنة والنار .

وقال بعضهم : انهم أهل الفترة ، أو هم مؤمنو الجن ، أو هم آخر من يفصل الله بينهم ، وربما كان القول الأول هو أعدل الأقوال ، وهو قول الجمهور .

وأصحاب الأعراف هؤلاء يعرفون كلا من المؤمنين والكافرين بسيماهم ، اى بعلامات فيهم . فسيما أهل الجنة بياض الوجوه والضحك والاستبشار ، كما قال تعالى فى حقهم :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ﴾(٤٩٣)

وسيما أهل النار سواد الوجوه والكآبة والحزن كما قال تعالى :

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾(٤٩٤)

وقال فى حق هؤلاء وأولئك :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ ٤٩٥

فحين يرى أصحاب الأعراف أهل الجنة يرحبون بهم ، قائلين : سلام عليكم ، وهى تحية أهل الجنة . وأما قولهم :

« لم يدخلوها وهم يطمعون »

فمعناه أن أهل الأعراف لم يدخلوا الجنة بعد وهم طامعون بفضل الله فى دخولها . .

---

(٤٩٣) عبس ٣٨ : ٣٩ .

(٤٩٤) عبس ٤٠ : ٤٢ .

(٤٩٥) آل عمران ١٠٦

وحين يرون أهل النار يدعون الله قائلين :

ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين » .

وهذا هو الذى يرجح رأى الجمهور فى أن أهل الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم . فهم يرجون الرحمة ويخشون العذاب . . فمن أجل ذلك يستعيذون من أن يكون مصيرهم مصير هؤلاء الكفار الذين استحقوا النار . .

وهم من أجل ذلك أيضا يبكتون المستكبرين الذين أذلوا الضعفاء ، وكانوا يسخرون من المؤمنين فى حياتهم مقسمين بأن هؤلاء لن يشموا رائحة الجنة ـ فهاهم الآن قد دخلوا الجنة ، ويبقى هؤلاء الكبراء يتلظون فى السعير . نعوذ بالله من سوء المصير . .

وبعد . فان حديث القرآن عن الجنة والنار لجدير بأن يتعظ به كل عاقل ، وأن يفكر فيه كل ضال مغرور فيعتبر ، ويحاول أن يبتعد عن الطريق الموصلة الى النار ، وان يقترب من الطريق الموصلة الى الجنة . .

كما أنه يثير فى النفس الخوف من النار والرهبة من عذابها ، بقدر مايثير فى النفس . . الشوق الى الجنة والعمل على الفوز بها وسلوك الطرق المؤدية لها . .

ولم يترك القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة الناس هملا دون أن يضعا أمامهم المنهج السليم الموصل الى السعادة الحقيقية والنعيم السرمدى ، والمنجى من المصير السيء والشقاء الأبدى ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول فى ذلك « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا كتاب الله وسنتى » وقال تعالى فى حق القرآن :

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾(٤٩٦)

ولنعد الآن الى وصل ماانقطع من حديث حول معاندة الكفار للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتحديهم له ، وإيذائهم الشديد لمن آمن معه . حتى وصل الأمر الى حد حصار فرضه المشركون على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن أسلم معه وناصره فى شعب أبي طالب ، وتحرير وثيقة ظالمة بذلك وايداعها جوف الكعبة . .

فإلى الحديث عن هذه الصحيفة الظالمة . .



(٤٩٦) الاسراء ٩ ، ١٠ .

فهرس القصص القرآني

تم بحمد الله المجلد الثامن

ويليه بتوفيقه تعالى المجلد التاسع

وأوله « الصحيفة الظالمة »